

الطبعة
الثانية

السيد البلطي زقاق

رواية

صالح مرسي



رواية

السيد البلطي زقاق

صالح مرسى

«ولم يكف الناس عن الحديث... حتى أصبحوا يوماً فوجدوا
في السيد أملاً يصبو إليه كلُّ منهم... رأسُ كراش حوت، وكفُّ
تهابها الرجال، وقامة مارد، وعينا نسر لا تخطئان، وبطل يخاوي
جنيات البحر ويكتنز في صدره الأسرار، وفي بيته الجواهر
والأموال...و...وأصبح السيد البلطي أسطورة!

فمن ذا يصدق أنه يموت؟!»

هكذا... عن البحر يحكي وعن عالم القريبين منه يروي لنا الأديب
صالح مرسى حكايات زقاق السيد البلطي، مانحاً إيانا متعة
العيش بين سطور تفاصيلها.

الناشر

للطلب والاستفسار اتصل على

16766

www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group



دار نشة مصر

للشعر



6 221133 346429

زقاق السيد الباطي

صالح مرسي



العنوان:
زقاق السيد البلطي

تأليف:
صالح مرسي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

**يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.**

الترقيم الدولي: 1-4346-14-977-978
رقم الإيداع: 10616 / 2013
الطبعة الثانية، أكتوبر 2013

تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 33462576 - 02

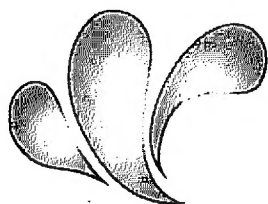
خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

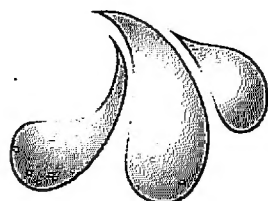


أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

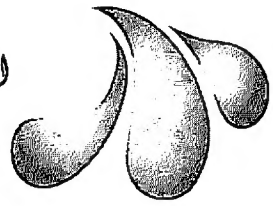
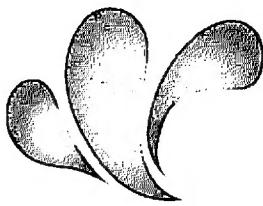


إهداء



إلى ابنتي أمل
فعمرها من عمر الرواية

صالح مرسي



لم تمر أم حنفي منذ سنوات بتلك الفترة التي يمر بها الناس عادة بين اليقظة والنوم، كانت إذا وضعت رأسها فوق الوسادة، راحت في نوم عميق لا يوقظها منه طبل أو زمر، ثم تصحو وكأن يدًا تتزعزع عن حواسها غلالة النوم على غير انتظار، فيرتفع جفناها عن عينيها، وتدير في الظلام بصرها الكليل متحسسة به جسد ولدها الراقد عند طرف الحجرة، ثم تستدير لتدثر ابتها عائشة بالغطاء وهي تلومها حينًا، وتلوم حنفي حينًا، وتدللها حينًا وتدلله حينًا آخر في غير تفريق بين لوم وتدلليل... وتسكن العجوز بعد ذلك تمامًا، وترهف السمع لذلك النداء الذي أصبح مع مضي الزمن، وكأنه يخاطبها في كل فجر من فوق مثذنة المرسي أبو العباس.

كانت العجوز قد استيقظت فجأة في فجر ذلك اليوم القارس من أيام ديسمبر عام 1931، وراحت تنتظر في هدوء صوت المؤذن... ومضت لحظات قبل أن تتساءل هامسة - إذ كانت أم حنفي دائمًا ما تعبر عن أفكارها بصوت مسموع - إن كانت غفوة قد أخذتها ففاتها الأذان، أم أنها لم تنم كفايتها في تلك الليلة؟...

وانتهت لحظتها - بلا سبب معين - إلى آلام ظهرها المتييس وتذكرت نوبات الضعف التي أخذت تزورها في الأيام الأخيرة فتلزمها

الفراش... ففتحت فمها لتأوه متوجعة، عندما ترمى إلى أذنيها صوت المؤذن سابقاً في سماء الحي، فنهضت على الفور من رقدتها وهي تلقي بشالها الممزق حول كتفيها ورأسها، وتهيئ لنفسها مكاناً عند حافة الفراش الذي أخذ يصصر صريراً حاداً مع كل حركة من حركاتها، وتمتص في نفس الوقت بأذنيها تلك الأصوات والتسييحات والدعوات التي كانت ترمى إليها من حوارى الحي وأزقته كالهمس الحنون... فرفعت كفيها أمام وجهها، وأخذت تقرأ الفاتحة في خشوع، طالبة للسيد البلطي السعادة حيث يعيش.

كان أكثر ما يثير شجنها في تلك اللحظات أنه ذهب دون أن يودعها... فيفيض قلبها بالمرارة والأسى، وتمصمص بشفتيها هامسة:

«معلش يا سيد، يمكن هي أحلى مني!».

وتجذبها على الفور ذكريات لم تفقد جدتها رغم مرور عشرين عاماً كاملة، فتستسلم لرجفات قلبها وهي تتساءل في دهشة: «ترى ما شكلها؟.... هل نصفها سمكة ونصفها إنسان؟!... وكيف تعاشره إذن؟!... هل أنجب منها أولاداً؟.... وهل هانت عليه عشرتها وحباها له؟... ألا يشواق لحنفي وعائشة؟... كم أوحشها وجهه العريض القوي بشاربه الكث الذي يغطي خديه... لماذا لم ينتبه يوم أن اختطفته تلك الجنية الصارخة الجمال؟.... هل ذهب معها برغبته، أم ذهب مغلوباً على أمره؟!... وهل كان السيد ممن يغلبون على أمرهم؟... يقولون عنها إنها كانت جميلة كالبدور في ليلة تمامه، لكن جمالها لم يشفع لها عند السيد، فتركها وتزوج جنية من جنيات البحر... وهي لم تصدقهم،

ولن تصدقهم... فالسيد لم يمت، لم يبتلعه البحر في جوفه، فالبحر يخاف الرجال... وكان زوجها رجلاً ولا كل الرجال!

ودائمًا.... دائمًا كانت ما تنتزع أم حنفي نفسها انتزاعًا من سيل الذكريات المتدفق، لتستدير نحو ولدها وتبدأ في إيقاظه بصوتها الثاقب، ونداءاتها الرتيبة المنغمة، وحديثها المتشعب.... تنقد حينًا، وتمدح حينًا، تبتسم مرة، وتعبس مرة، تحدث نفسها، وتحديثه، تسأل وتغضب، تثور وتهادأ دون أن تنتظر منه ردًا أو جوابًا.. وتنادي بلا انقطاع: «حنفي، حاااانفي، حنوووووفة، يا واد، لو ترحم نفسك من السهر، راجع بعد نص الليل وحاتصحى ازاي وش الفجر؟... اسمع كلامي يا بني، اسمع كلامي واتجوز.... حاااانفي، فين أبوك يبجي يشوف الحال المايل؟.... فكرك انت حاتجيبها البر؟.... بكرة تعمل زيه وحياة مقام المرسي... يا واد، حانفي!».

وقد صحا حنفي، وراح يتقلب في مكانه متبرمًا، وأخذ يزوم في ضجر، وينطق كلمات مقطعة غاضبة معلنا بها عن صحيانه، إلا أنها كانت تعلم أنه لن يصحو قبل أن يتعب قلبها.... فاستمرت تنادي عليه غير عابئة بزجره وهي تدير بصرها في أرجاء الحجرة، متحسسة في الظلام مكان كل شيء... فعن يسارها يقع الباب الذي يصل بين حجرتها وحجرة المعلم صادق، زوج شقيقته المتوفاة، وابنته زوبة، ويجواره باب حجرتها الذي يفتح على الفناء، وعن يسار الداخل يقوم الدولاب الصغير الذي اشتراه لها السيد البلطي قبل ذهابه بأيام... وتحت أقدام الدولاب يرقد حنفي ممدًا جسده حتى منتصف الحجرة،

وفوق رأسه منضدة مفككة المفاصل، عليها مصباح صغير اسودت زجاجته... ولا شيء غير هذا سوى السرير الذي تنام عليه مع ابنتها. ثم... وكأن العجوز تذكرت شيئاً، إذ مالَت إلى اليسار قليلاً، ومدت يدها تقرع الباب الذي يفصل بين الحجرتين وهي تنادي على زوبة:

«زوبة... زوووية، يا بت اصحي النهار طلع».

وانبعثت على الفور من الحجرة المجاورة أصوات تنبئ عن استيقاظ إنسان... زُفَرَات تشاؤب، صرير فراش قديم، مقعد يزاح من مكانه، وشبشب يزحف على الأرض... على أن هذه الأصوات ما كانت لتوقف نداءات أم حنفي، فاستمرت تنادي وتقرع الباب، حتى جاءها صوت زوبة المتكاسل النائم:

«صحيت يا خالتي.... صحيت».

فاستدارت نحو ولدها من جديد، بينما كانت الأصوات قد تسربت من حجرتها إلى الزقاق كله، وأخذت أذناها المدربتان تتبعان خطوات زوبة في فناء البيت، وتلتقطان صوت أمينة زوجة الحاج حسين في المنزل المقابل وهي تروح وتجيء في الدار... وعلا صوت الموقد في بيت حمودة المجاور، وقالت العجوز:

«يا واد اصحي... آهي عطيات صحيت.... حاالنفي».

ودبت الأقدام في الطابق العلوي حيث يقيم المعلم جابر مع زوجته وأولاده الخمسة، ومضت لحظات كانت الأصوات تتلاقى فيها في نغم مألوف، يمثل صوت أم حنفي فيه وقع الدف في لحن شرقي... لكنها

توقفت فجأة عن النداء ثم استدارت نحو ابنتها في جزع وزغرتها بقبضة يدها وهي تقول في حدة:

«بت يا عيشة، إنتِ ناوية تنامي للضهر؟ ... عيب... شة!».

ورغم أن عائشة كانت تستيقظ عند أول نداء تطلقه أمها... فإنها تعودت أن تظل ساكنة حتى تدعى إلى النهوض، ولذلك، ما إن نادتها أمها حتى ألقت الغطاء عن نفسها، وغادرت الفراش وهي تبحث بقدميها عن مكان الشبشب، وتتحاشى قدر استطاعتها جسد شقيقها الممدد حتى لا ينالها منه زجر أو سباب، وأخذت تنصت في ضيق لحديث أمها الذي تشعب - كالعادة - وأخذت كلماتها تنقر رأسها كالطارق:

«يا حنفي.... يا وله قوم، لو تسمع كلامي، لو سمع كلامي واتجاوز يا اخواتي؟... حاموت من غير ما أفرح بحد فيكم، حنوفة... هو الجواز حرام؟.... يا ابني قوم نتعت قلبي، واللا الجواز حرام؟... أختك آهي في حجابك لحد ما ربنا يعدلها، لكن نفسي أفرح بحد فيكم!». وقاطعها صوت عائشة المتبرم وهي تقول في غيظ مكتوم:

«اللمبة ما فيهاش جاز!».

فقال العجوز على الفور:

«عمريها من عند زوبة... اسم الله، مالك يا بت على الصبح... هيه؟!».

وسعل حنفي وهو ينهض، فاستكانت أمه وهدأت، وانسحبت أخته وهي تبتلع كلمة كانت على لسانها، وأخذت يدها تجمعان الغطاء حول

كتفيه، وتسويان الوسادة وراء ظهره فيما بينه وبين الحائط، ثم قال
في اقتضاب:
«الشاي!».



كانت عائشة تعلم أن حديث أمها عن زواج حنفي سيجد منه ذات
يوم أدناً مصغية... فلن ينتظرها شقيقها طيلة العمر، ولن يستطيع مقاومة
تلك الفاجرة التي تسكن الحجرة المجاورة طويلاً... والأيام تمر، وكل
يوم يضيف إلى قلبها همًّا فوق همومها.... فمتى ينتهي كل شيء؟....
متى تتزوج أو تموت؟.... وهل سيأتي ذلك اليوم الذي يطلبها
فيه رجل؟!

قالت لها أمها مئات المرات إنها تزوجت وهي في الرابعة عشرة،
وإن فتاة واحدة من عائلة البلطي لم تعشش في بيت والدها أكثر من
خمسة عشر عامًا، وما هي ذي قد بلغت العشرين... فهل فات الأوان؟!
«عمري لي اللمة يا زوبة».

رفعت زوبة رأسها، وعلى وجهها تلك الابتسامة الزائفة التي
لا تختفي، ماذا يحب حنفي في هذا الوجه المتفخ؟
«طب قول لي صباح الخير يا عيشة....».

تثاءبت عائشة وهي تمد يدها بالمصباح نحو ابنة خالتها، وقالت
وهي تمضغ كلماتها وتمطها في استهانة:
«صبحك بالخير يا اختي....».

تناولت زوبة المصباح، واستدارت نحو حجرتها، وتبعثها عائشة تتأملان في ضوء الفجر الشاحب جسدها الممتلئ، وكتفها السميتين المحشورتين في الثوب حشرًا، حتى بانث ثنيات اللحم واستدارة القوام، واختفت زوبة داخل الحجرة، وهبت نسمة باردة من باب الطريق المفتوح، فارتجفت عائشة، وضمت ذراعيها إلى صدرها، وتحسست بكفيها لحم كتفها، فاصطدمت بتسوءات عظامها البارزة وتذكرت على الفور - في حسرة شديدة - ما اشترته من محوج وحلبة ووصفات ربت اللحم على أكتاف الكثيرات، لكنها لم تؤثر في جسدها الضامر.... فهل يسكن جسدها شيطان كما تقول أمها حقًا؟.... وهل تسلط عليها ذلك الشيطان فامتص دماءها ووضع بينها وبين الزواج حجبًا كثيفًا؟!

تقدم المصباح في يد زوبة فغمر الفناء بضوئه المخمخق وراء سواد الزجاج، وأخذت عائشة - على الرغم منها - تتأمل تقاطيع زوبة وشعرها المسترسل في إهمال جعلها أشد فتنة مما تعودت أن تراها، وارتجف قلبها لمرأى الأنف الصغير كالنبقة، والعينين الواسعتين الضاحكتين، والوجنتين المكتنزتين... لكنها ما لبثت أن تناولت المصباح عندما أطلت من عيني زوبة تلك النظرة المتسائلة الحيرى التي كثيرًا ما أوقعتها في ارتباك شديد، مخافة أن تكشف زوبة ما يعتمل في نفسها... وانفلتت بالمصباح مهرولة كمن تفر من ذنب ارتكبته تاركة ابنة خالتها في الفناء وحيدة وعلى وجهها ابتسامة واسعة، وفي عينيها نظرة معفرة فاهمة!

وانتشر الضوء في حجرة أم حنفي، وتمددت ظلال الأثاث القليل على غير العادة... وأثار صمتها هذا مخاوف ابنتها، فراحت تختلس

النظر وتردده بين أمها وشقيقها في رعب.... أكونان قد اتفقا على أمر؟... ماذا يدور في رأس أمها؟... وماذا يدور في رأس حنفي؟!... هل اقترب اليوم الذي ستصبح فيه فلا تجد حنفي ممدداً على أرض الغرفة فوق حشيته؟... هل...

«حنفي... ما تقوم يا ابني تتوكل على الله، اعملي الشاي يا بت».



كان حنفي غارقاً فيما يغرق فيه كل صباح... أحلام تراوده حيناً ثم تنقطع عنه لتعود من جديد عيفة حادة هوجاء، تسلب النوم من جفونه ليالي وليالي، وتدفع النوم إلى عينيه في رفق ولذة ليالي أخرى وليالي... وتهبط عليه كل صباح عندما يصل إلى أذنيه صوت أمه، وينسحب عنه النوم تاركاً مكانه بيقظة شديدة، وحواس مرهفة، أشدها حساسية أذنان مدربتان على تتبع زحفات شبشب في الحجرة المجاورة، أو في الفناء. ما الذي يمنعه حقاً من الزواج؟!... هل هي عائشة؟... نعم عائشة!... ولكن، هب أن أحداً لم يتقدم لها، أو أنها ظلت طوال عمرها بلا زواج، فماذا هو فاعل؟... ثم، ماذا لو تقدم أحد الرجال للزواج من زوبة، هل يستطيع الاعتراض؟!

تري، هل تحبه زوبة؟!

جفل عندما راوده هذا الخاطر... خيل إليه أنه يعري زوبة من ملابسها! ما هو الحب؟!.... الحب في زقاق السيد البلطي سلعة محرمة، قد يحب الرجل زوجته وأولاده، ولكن أن يحب فتاة لم يتزوجها بعد، فهذا هو الضلال بعينه، فما بالك وهذه الفتاة ابنة خالته،

وابنة ابن عم والده، فتاة من عائلة البلطي، تجري دماؤه في عروقها... ولو أن أحدًا قال ذلك أمامه لما تردد في سحق رأسه، ولكن، لم الهرب وقصده شريف... مهما هرب ومهما فر ومهما خدع نفسه... فما في قلبه... ..

«حنفي، قوم يا اخويا اتشطف، المية جاهزة؟».

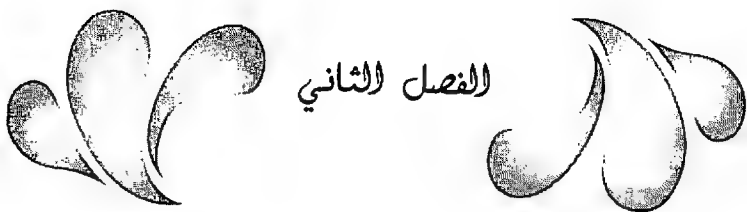
رفع رأسه فاصطدمت عيناه بوجه أخته الدميم الواجم، وقد برزت تقاطيعه في ضوء المصباح فازداد قبحًا ودمامة... يقولون إن أباه كان جميلًا قوي الملامح، وإن أمه كانت كالبلدر.... فلمن خلقت أخته دميمة، لمن هذا الأنف الكبير، والعينان الضيقتان، والفم الواسع، والعظام الناتئة؟.... موجات غامرة من الحنان تتدافع في صدره، فنكس رأسه في صمت، ونهض وراء أخته إلى حيث كان الطست عند باب الحمام، دار ببصره فشمّل المكان في لمحة... لم تكن واقفة، لا بد أنها تجهز الفطور لأبيها... متى تصب المياه على كفيه بدل عائشة؟... متى تتزوج أخته؟... متى تكف المطارق التي تهشم رأسه، وعائشة لا ذنب لها... أتركها ويكسر خاطرها وليس لها في الدنيا غيره، أينقاد لعواطفه كالإعصار دون أن يتحسس طريقه فيسحق ما أمامه ولو بالحلال؟!... لن يتزوج وليحدث ما يحدث، عائشة أولاً وقلبه ثانيًا... ولكن، هل هو صادق فيما يقوله لأمه، لقد هم بالأمس أن يحدث المعلم صادق في المقهى، وكاد منذ لحظات أن يتصنع الضيق من إلحاح أمه ويصبح فيها أن تختار له زوجة وتريحه من وجع الدماغ الذي يعيش فيه... لكنه تراجع اليوم كما تراجع بالأمس وأول أمس ومنذ شهور طويلة... تصده قوة القاهرة، حب طاغ لأخته لم يملك

إلا الإحساس به والاستسلام له، في أحيان كثيرة كان حبه هذا يفيض
فيقبل عائشة ضارباً عرض الحائط بصيحات أمه التي ترى في القبلات
مسخرة وقلة حياء!

«الشاي يا عيشة أحسن ابويا محمد زمانه اتوكل!».

قال هذا ورفع إليها وجهًا مبتسمًا وعينين يفيض منهما الحنان،
وردت هي على ابتسامته بابتسامة. وهمست بصوت منفعل مرتجف:
«حاضر يا اخويا... حاضر».

واستدار... وخطا نحو حجرته... وما كاد يدلف إليها حتى هفت
من ورائه رائحة، وحفيف، وزحف الشبشب في الفناء... وصر على
أسنانه وهو يهمس لنفسه: «يعني لو بدرتي شوية!».



الفصل الثاني

بدت زرقة السماء في ذلك الوقت المبكر رائعة تبهر البصر،
وسبحت قطع السحاب المتناثرة في جماعات كعرائس أسطورية
ترتدي غلالات شفافه... ودبت الحركة في شوارع المدينة وحواريها،
كما دبّت في زقاق السيد البلطي، وأخذت أبواب بيوته تنفرج بين الحين
والحين عن رجل يسعى ويدب فوق الأرض بقدميه مسرعاً، أو طفل
يحمل وعاء يسرع به إلى بائع الفول الذي كان صوته يصل من بعيد
منادياً على بضاعته بصوت أجش، أو امرأة تطل برأسها منادية على «عم
حسين» بائع الحليب.

غادر المعلم صادق ابنته زوبة ككل صباح، فوقفت وسط الحجرة
وحيدة، يصل إليها صوت خالتها من وراء الباب وهي تعيد موال كل
يوم... ورغم أن المناقشة لم تكن جديدة في شيء، حتى في كلماتها،
ورغم أن زوبة كانت تعلم مقدماً نتيجتها المحتومة... فإن الأمل في أن
يلين حنفي لم يفارقها.

دثرت كتفيها بشالها، ثم رفعت طرفه إلى رأسها وأحاطته به،
وتقدمت خطوة نحو الطست القابع تحت أقدام المقعد بجوار
الفراش... كان عليها أن تحمله بمياهاه وصابونه إلى الحمام الذي
يتوسط الفناء، عندما سمعت صوت حنفي يزمر متأفقاً من إلحاح أمه،

ترددت برهة، على أن ترددها لم يطل... راحت تمضغ في ذلك الوقت فكرة عابثة كثيرًا ما راودتها، الفكرة ناعمة وتدفع الدماء في العروق وتصبغ الوجه باللون القاني وتنمل الأطراف، لكنها ظلت على مر أيام طويلة تزحف في بطنها وتتمكن من نفسها يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد أخرى، حتى تمكنت منها تمامًا... ومن ثم فقد تحولت زوبية إلى الباب الذي يفصل الحجرتين وهي تلقي على الطست نظرة ذات معنى، وجذبت بأصبع قدمها الفروة العتيقة الراقدة في منتصف الحجرة حتى لاصقت الباب، ثم قبعت فوقها واستكانت إلى مجلسها الذي تعودته على مر الأيام، وجاءتها الأصوات أشد وضوحًا وأكثر صخبًا...

«يا بني اسمع كلامي... الجواز نص الدين!».

«والنبي يا امه، قلولي يا فتاح يا عليم».

كانت زوبية تعلم أن ما تفعله عيب لا يغتفر، ولو علمت أن فلانة تحب فلانًا لشهقت وخبطت صدرها بكفها وصاحت في استنكار: «يا لهوتي!»... ولو قالوا لها إن فلانة تسترق السمع من وراء الأبواب لقات على الفور في نفور ودهشة: «يا مصيبي!»... وكثيرًا ما عذبتها هذه الخواطر، لكنها كانت تجد نفسها مدفوعة رغماً عنها إلى ممارسة مشاعرها ورغباتها دون أن تبوح لأحد بكلمة، وقد فاض بها الحال ذات يوم... وأحست بعبء حبها يثقل قلبها... ولم تجد من تستطيع أن تحدثه في الموضوع سوى مسمار!

في البداية قالت عن نفسها إنها لا بد مجنونة، فكيف تحدث مسمارًا؟!... ثم قالت إنها قليلة الحياء والتربية... ثم استكانت مع الأيام، ونسيت الجنون وقلة الحياء والتربية... ولم تعد تمارس ذلك

الزجر العنيف لنفسها، والذي اعتادته منذ أن وعت ذات يوم - ولا تدري متى وكيف أو لماذا؟! - فوجدت نفسها قد وقعت في حب حنفي دون كل رجال الزقاق.

كثيرًا ما جلست في هذا المكان لتسمعه وهو يتحدث ويحكي لأمه وأخته عن الرزق الذي صادفه، أو الرجال الذين تشاجروا، أو الشبكة التي تمزقت وبليت، والقارب الذي يحتاج إلى ترميم... وكانت تستطيع - دون حرج - أن تذهب وتجلس معهم وتسمع حكاياته وترقبه عن قرب، لكن ذلك كان قبل أن يدب في قلبها ذلك الإحساس الذي كان يخطف روحها كلما التقت عيناها بعينه، حتى أصبحت تفر من أمامه خشية أن يكشف هو سرها، وهو بالذات، فماذا يقول عنها لو علم أنها تحبه؟... وهل يتزوجها رجل يعرف أنها تمارس العيب وهي فتاة؟!

واكتشفت ذلك المكان وراء الباب... ثم عثرت على ذلك المسمار الذي دفن نصفه في الجدار الرطب وبقي نصفه ممتدًا في الفضاء... تعبت به أصابعها، وتحدث إليه هامسة، وتبته شكواها ولوعتها، وتسأله المشورة وتتمنى لو أجابها بكلمة.

كان حنفي صلب الرأي... ما من مرة حدثته أمه في الأمر إلا وقال لها: «لما تتجوز عيشة!»... وتلح أمه، وتعلق عائشة بكلمة أو كلمتين... فيصمت، وتترقب زوبة رده بقلب واجف ونفس متطايرة.

خيل إليها في أحيان كثيرة أنه سيقول: «على بركة الله.... اطلبي لي زوبة يا أمه». لكنه لم يقلها أبدًا. بل كان يندفع في صوت باتر ولهجة جادة لا تدع مجالًا لاستمرار المناقشة: «لأ... قلت لأ... لما عيشة

تروح بيت جوزها، خلاص!»... كانت وقتها تحس بطعم المر في فمها، وتشعر كأن قلبها يلفظ آخر نبضاته في خفقات سريعة مضطربة... وعندئذ تمتد أصابعها إلى المسمار لتتحسس في اضطراب وهي تهمس بصوت حزين:

«شايـف... مش بيحبني!».

أفاقت زوية في ذلك الصباح من خواطرها على صوت عائشة وهي تقول:

«جرى إيه يا اخويا، هو انا حاروح فين، دانا حا افضل جنبك، النبي امي معاها حق، حانفضل عازب لإمتى، حقـة مالـكش حق يا سي حنفي».

لم يكن يهمها أن تكون عائشة كاذبة أو مختالة، لا يعينها من الأمر شيء، بل هي لا تفكر فيها ولا تريد، كل ما يهمها في تلك اللحظات أن تسمع صوته، ولو كانت كلماته في ذلك الوقت حكمًا يصدره عليها بالإعدام لتقبلته راضية، فيكفيها أن تسمعه، وتتذوق رجفة القلب وخفقته الموجهة... وقد سمعته يزجر شقيقته:

«بس يا بت بلاش كلام فاضي!».

وصاحت أم حنفي:

«والنبي حاموت، حاموت من غير ما افرح بيكم، يا واد اعقل بقى، ريح قلبي يا ابني ربنا يريح قلبك».

«يا امه قلت لك ألف مرة مش حانتجوز قبل ما تتجوز عيشة... لزومه إيه اللت والعجن بقى!».

قال هذا بحددة وهو يلقي بكوب الشاي إلى الأرض بجواره
فيتحطم... واضطربت زوية وقد تملكته تلك الفكرة المجنونة...
لكنها لم تتردد لحظة، ألقت على المسمار نظرة سريعة، ثم نهضت
كمن ألهبها لسان من النار، قفزت إلى حيث كان الطست فاخطفته
واندفعت إلى الخارج... وحدث ما توقعته... اصطدم بها حنفي في
اندفاعه خارجاً من حجرته، فتمايلت، وتمايل الطست في يديها،
وكادت مياهه أن تندلق... لولا كفاه!

كيف حدث هذا، يقولون إن كفي السيد البلطي كانتا ككفي عملاق
هائل، ولكنهما قطعاً ليستا ككفي ابنه، ولم تكن أصابعه بأية حال من
الأحوال كتلك الأصابع القوية الصلبة التي انغrust في لحم ذراعيها...
ماذا لو طالت هذه اللحظات فامتدت إلى أن تموت، أو تغرق، أو تخطفها
جنية وتخنفها... أو يحدث لها أي شيء... فقط، يبقى في وقفته، وجهه
الكبير يطل عليها من أعلى... وأنفاسه الدافئة تغرق وجهها وتلتف حوله
كغلالة عطرة، ثم تهبط إلى صدرها.. وتستكين في دوامة رائعة بين نهديها!
«صباح الخير يا زوية!».

لماذا نطق؟... لماذا تكلم؟... إن أعظم أحلامها جموحاً لم تكن
لها لذة كتلك اللذة الراحشة التي كادت أن تفقدها الوعي. وليس هناك
مفر. فلا بد من رد تحيته!

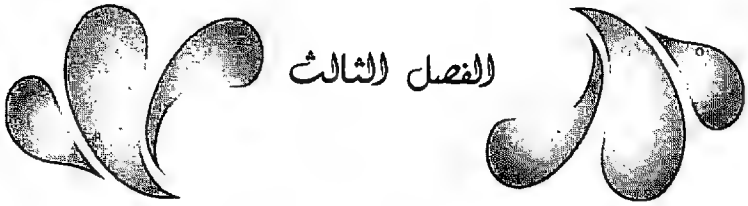
«صباحك بالنور يا سي حنفي».

وانفرجت الأصابع، وانفلت الحبيب من جوارها إلى الباب،
واختفى!

أي جنة تلك التي يعدنا الله بها؟! ... هل سيضارع جمالها جمال
ذلك الفناء الرطب ذي الأرض اللزجة والجدران المتآكلة؟ ... ليقولوا
ما يحلو لهم، لتكن قليلة الحياء... ولتكن حتى فاجرة إن كان الفُجْر أن
يمسها حنفي كل يوم، ويضمها بنظراته، ويغرقها بأنفاسه.

ترى... ماذا يحدث لو تزوجا؟!!

وانسالت المياه من جانب الطست لتغرق طرف ثوبها، وتسيل على
الأرض!



أيقن حمودة البلطي في ذلك الصباح أنه لا محالة واقع بين أنياب المرض... أحس نهشه القاسي عندما فتح عينيه على صوت زوجته وهي تناديه، صدره منقبض، أنفاسه متقطعة، والهواء شحيح... قال باسم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم استعان بالمرسي أبو العباس، وأخذ يتبع بعينه عطيات وهي تتنقل في أرجاء الغرفة رائحة غادية، تجهز له الإفطار، وتدثر الصغار الراقدين فوق الحشية، بجوار الباب، قد تعرت أطرافهم، وتكوم الغطاء بين أجسادهم منحسراً عن ساقي هذا، مغطياً وجه تلك، وأنفاسهم منتظمة هادئة، وأنفاسه متقطعة مختنقة، فسعل محاولاً انتزاع تلك السحابات الخائقة التي تملأ صدره وحلقه، فتمنع عنهما الهواء... ثم سعل مرة أخرى وزام وقال: «يا ساتر!»... ورفعت عطيات رأسها إليه، وجمدت عيناها عليه وهي تسأله عن حاله... فقال وهو يلقي بساقيه في الهواء ويدليهما من فوق الفراش:

«الدور يا عطيات، الدور!».

ردت عطيات بلهجة قلقة وهي تحاول جهد استطاعتها أن تخفي ما انتابها من قلق:

«يا خويا خليها على الله، بس انت ما تاخدش في بالك...».

وامتدت يدها بكوب الحليب الساخن، فتناوله منها ورفعه إلى شفثيه، لكن القبضة الشرسة كانت قد تملكته من صدره، والتنميل يسري في جسده، وسحابة المجهول تغطي عينيه فتغيمان، فشقق واهتز الكوب في يده، وتمايلت المراثيات أمام عينيه وتداخلت، فسعل ثم شقق مرة أخرى، واقتربت منه عطيات وتناولت كوب الحليب من يده، وحملت عينها في تلك الزرقة التي أخذت تزحف فوق صفحة وجهه، وذلك البياض الذي كسا عينيه... وقال حمودة وهو يقاوم في استماتة:

«العيال يا رب... العيال، العيال يا عطيات!».

انغrust الكلمات في صدر المرأة كإبرة حادة، اقتربت منه ووضعت كفها فوق كتفه وهي تتمتم بالدعاء، وتطلب الرحمة في رجاء. لكن تقاطيع حمودة كانت تزداد تقلصًا، وأصابع يمينه انثنت كمخالب، وأخذت تحفر في لحم رقبتة طريقًا للهواء، وشهقاته تتابع في لهفة، فصاحت بصوت مضطرب:

«سي حمودة... حمودة!!».

كان عقل حمودة لا يزال يبحث عن مخرج من ذلك الظلام الذي راح يحجب عنه الوعي تدريجيًا، وأحس ببرودة لاذعة تغرق جسده كالطوفان، وخيالات كثيفة تروح في ذهنه وتجيء كأطياف مطموسة الملامح، القارب الذي ينتظره فوق الرصيف خاليًا، والشبكة المعلقة على السياج تعبت بها الريح، والرزق، والرجال ذوو السواعد القوية يدفعون بها المجاديف إلى جوف المياه، والأجساد الخمسة الممددة فوق الحشية... من يعولهم من بعده؟!... والدواء الذي ما يكاد ينفذ حتى يشتري غيره، والإبر التي تنغرس كل يوم في لحمه، والطبيب،

والسيد أفندي الباشتمرجي... لا بد أن يأتي الآن، يجب أن يقول
لعطيات، لكن الهواء ضنين، شحيح... هواء!... نسمة... نسمة! ترد
إليه الروح... الظلام يكثف، والأطياف تذوب فيه، ورأسه ثقيل، يهوي
إلى قرار سحيق، العيال، لقد خف رأسه وأخذ يتطاير وتكاثفت السحب
فسدت الطريق إلى صدره، نسمة!... هواء!... قطرة من رحمة!...
ظلام!... أمطار!... ع... ط... يا...

وانطلقت صرخة عطيات لتثقب كل أذن في الزقاق، واندفعت تضم
الجسد الذي تهاوى بين ذراعيها...

«الحقوني يا اخواتي... الحقوني... الراجل راح من أيدي!».

فتحت النوافذ، وأطلت منها الرؤوس، وهرولت الأقدام، وقال أكثر
من صوت: «حمودة!»، واستيقظ العيال، وتسمرُوا في أماكنهم، ثم
تلاصقوا وهم يلتحمون بعضهم ببعض، ويكوا فرعين، واندفعت عائشة
إلى الحجرة ورأت خالها ممدداً، يتقلص جسده ثم ينفرد في حركات
حادة سريعة، برزت عروق رقبته ونفرت، وانفتح فمه في استغاثة،
وشهقاته تتلاحق، وأصابع يديه تتشبثان بكل شيء وأي شيء، دموع
عطيات، ونواح العيال...

وصوت أم حنفي يأتي من الخارج وهي تتعثر في الطريق وحدها:
«يا خويا، يا ضنايا، إن شا الله أنا يا حمودة!».

وسرعان ما اكتظت الحجرة بنساء الزقاق وصاحت إحداهن:

«السيد أفندي الباشتمرجي يا اخواتي. الحقوني بالسيد أفندي!».

وبلا وعي، امتدت يد عائشة فجذبت الشال من فوق كتفي زوبة
واندفعت إلى الطريق لا تلوي على شيء!



كان جنفي يوسع الخطأ وهو في طريقه إلى الشاطئ يربط الهواء
وجهه الملتهب، وتندفع من أنفه سحببات من الضباب متقطعة
كأنفاسه... كان الضعف والتراجع هما ألد ما يتوق إليه في تلك
اللحظات، ما زالت آثار أنفاس زوبة تعبث بشعيرات صدره العاري،
وعيناه تلحظان بلا مبالاة أرض الطريق المبتلة، ويقع المياه المتناثرة
كالبحيرات الصغيرة تعكس على صفحاتها نتف السحاب المثورة في
السماء... والطريق أمامه خال، ليس سوى صياد هنا، وصياد هناك...
يلقي بالتحية على الناس في اقتضاب وذهنه غائب في دوامة لا متناهية،
يتشني إلى اليمين حينًا وإلى اليسار حينًا دون أن يدري وكأن قدميه
عاقلتان تعرفان الطريق، عامل يسير على مهل وفي تكاسل، ما زال
أمامه وقت فالشمس بالكاد تصعد فوق حافة الأفق، مقهى أبو علي
الكيلاني يفتح أبوابه، عم حامد بائع الفطير يدفع عربته أمامه ويصيح
بصوته الجميل: «الحمد لله... يا غني!»، فيردد وراءه: «لا إله إلا الله»...
لا بد أن المعلم محمد يقف الآن في انتظاره، وعى فوجده في مقام أبيه
فناداه كما يناديه الجميع، يابا محمد. رياه وربى عائشة، شب عن الطوق
ليجد نفسه في قاربه يتعلم منه طرح الشبكة وجذبها، تمامًا كمحمود
ابن عمه.. كانا أخوين دائمًا وإن اختلفا في كل شيء، ترى لو عاش
أبوه، أكان قد أحبه قدر حبه للمعلم محمد؟!... كم يتوق لأن يستقل
بقارب وحده، وإن فعل... فلمن يترك عمه؟... إن محمود كعدمه

تمامًا، يعمل يومًا ويقضي يومين في البوطة بين الصحاب، لا يكاد يفوق من سكره أو سطله!... وللسن أحكام، فرغم بنية عمه القوية فإنه لا يكاد يصنع شيئًا، سبعون عامًا وهو يكدح في مهنة لا ترحم شيخوخة ولا ضعفًا... هل يظل بلا زواج حتى يولي العمر؟!... إن زوبة تزداد جمالًا يومًا بعد يوم، ونار قلبه تزداد اضطرابًا ساعة بعد أخرى... والسمااء اليوم صافية، والرزق يرسله الله بحساب وكأنه يدخر للأولاد والأحفاد ما يكفيهم!

أمه محقة وهو يعلم ذلك، وعائشة ليست دميمة إلى هذا الحد، ورجل لا بد سيطلب الزواج بها ذات يوم... وسيقول على بركة الله، ثم يهرع في نفس اليوم، لا، بل في نفس الساعة إلى المعلم صادق ويطلب منه زوبة، سيهمس في أذنه بالأمر كله... لقد ادخر ما يكفي لشراء قارب، سيكون له عذره ولن يمانع عمه، ذراعاه قوية والحمد لله وتستطيع أن تجذب شبكة تحمل طنًا من الأسماك... ثم إن زوبة بابا صادق لن تنتقل من البيت، ستظل بجوارك تخدمك وكأنها لم تبحر غرفتك، ستعبر الفناء فقط إلى حجرة حمودة التي خلت بعد زواجه من عطيات، والحجرة على يسار دورة المياه وبينك وبينها خطوتان، سيقم فرحًا لم يشهد الزقاق مثله من قبل، ولم يعرفه الصيادون منذ أيام السيد البلطي. ترى هل يشبه أباه حقًا كما يقولون؟!... كيف ابتلعت الأمواج جسده الهائل العظيم؟!... لماذا لم يسبح؟!... لماذا لم يظهر لجثته أثر؟!... وجدوا قاربه في عرض البحر خاليًا... تركه وحيدًا وعمره عامان وعائشة ابنة ثلاثة أسابيع، لم كان الرجال يخافون من أبيه؟!... هل من العدل ألا يبحث الرجال عن رزق والأرض أرض الله والمياه

مياه الله؟!... وهل كان أبوه على حق فيما كان يفعل؟!... طالما قصوا عليه القصص فتعجب... ألم تكن هناك حكومة؟!... ألم يكن هناك سلطان على الشاطئ سوى سلطان السيد البلطي؟!... إن هذا يغمره بالزهو والفخر والغبطة... على أن إحساسًا ما ظل كامنًا في أعماقه، إحساسًا لم يستطع تفسيره، بل إنه لم يجرؤ على مفاتحة أحد فيه، أي سؤال وأي حديث حول السيد البلطي يدور في غير تقديس كفر لا يغتفر...

حكى له خاله حمودة ذات مرة كيف هزم السيد دسطة من الرجال عندما حاولوا الاقتراب من شاطئ البلطي... مسكين حمودة، صاحب أولاد ومرض... إنه ينفق كل ماله على الدواء... وأفاق حنفي على صوت يناديه:

«سي حنفي... يا سي حنفي... يا خويا».

كان قد انثنى إلى شارع البحرية... وسار بجوار سور الميناء الكالح، فاستدار إلى الوراء وقد تملكته الدهشة، صدمه صوت عائشة المتلهف، ورؤعه منظر جسدها الذي كان يتمايل وهي تحجل على ساق واحدة، فهمس في قلق: «يا فتاح يا عليم!»، ثم انطلق عائذًا إليها...

اقترب منها وعيناه لا تفارقان وجهها المتقلص بالألم والبكاء، وقد تهدلت على جبينها الضيق شعيرات لم تستطع أن تخفيها من اللهفة، فاندفع يقول:

«خير يا عيشة!».

«خالي... خالي حمودة جاله الدور يا خويا!».

«وعاملة في نفسك كده ليه؟!».

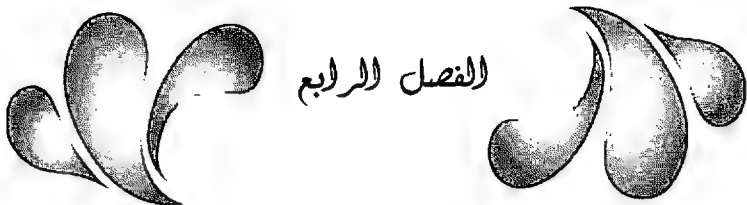
«أنا خايقة يا سي حنفي ... الدور المرة دي جامد قوي!».

أنبأته دموعها بما جعل قلبه ينقبض، وكان يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقال بلا تردد:

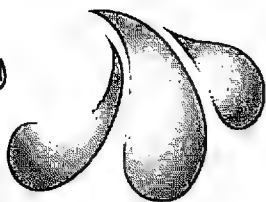
«روحي انتي، وانا رايح للسيد أفندي الباشترجي».

تركها مبهورة الأنفاس، زاد بكاؤها من دمايتها، واحمر طرف أنفها، وكست الزرقة وجنتيها، وصدرها يعلو ويهبط في انفعال حاد... كانت تتحسس بين الحين والحين قدمها التي التوت أثناء عدوها، وإحساس دفين في أعماقها يستعذب لذع الدمع وتقلصات الوجه وانفجارات الألم الكامن، فأخذت تهمس: «يا حبيبي يا خالي... يا بو العيال يا غالي!».

لكن عائشة لو وقفت لحظة أمام مشاعرها الحقيقية... لكانت أول الداهشين لسبب بكائها الشديد، ودمعها الغزير!



الفصل الرابع



كثيرًا ما تملك الغضب نفس المعلم محمد البلطي أثناء انتظاره لحنفي صباح كل يوم... على أن أمر ولده محمود في تلك الأيام ما كان يهمله في كثير أو قليل، أو هذا ما كان يحاول التظاهر به، فرغم محاولاته الكثيرة، ورغم الزجر الذي مارسه معه حينًا، واللين الذي حاول أن يغزوبه نفسه حينًا آخر فإن ولده كان يعود دائمًا إلى سيرته وحياته التي يحياها في المواخير ومع الغوازي والساقطات من بنات كوم بكير!

ولا يدري المعلم محمد البلطي متى انجرف ولده مع هذا التيار، ولم يكن يعنيه أن يحدد الزمن، فليس هذا من طبعه، كل ما يعلمه أن محمود لم يعد يظهر على الشاطئ إلا نادرًا، حتى جاء وقت أنكر فيه أن ولده يمكن أن يكون صيادًا... وقد حز في نفسه هذا الأمر وأدمى قلبه وأرقه ليالي طويلة لم يذق فيها طعم النوم، إلا أنه استطاع أن يستعيد هدوء نفسه بعد حين - وإن لم يستطع أن يمحو المرارة التي لونت حياته بلونها الأصفر الكئيب - ووضع في حنفي كل أمله.

كان المعلم محمد - ككل صياد يعتز بمهنته ويفاخر بها - لا يستطيع إلا أن يلحق مكانه من المياه قبل أن تشرق الشمس، لذلك، فقد كان أكثر ما يضايقه ويغضبه، أن يتأخر حنفي عن الموعد أو يتلأأ في اللحاق به.

وكثيراً ما تأخر حنفي عن موعد الرحيل... ينتشر الضياء، ويظهر في الأفق قرص الشمس، وتخرج القوارب قارباً وراء الآخر، ويخلو الرصيف إلا من قاربه... يهتز ويتمايل فوق صفحة المياه في انتظار ساعدي حنفي القويتين... ودائماً ما يأتي حنفي مهرولاً، وما إن يراه عمه حتى يتبخر غضبه، وتذوب الكلمات التي كانت قد تجمعت على طرف لسانه وتزاحمت في انتظار حتى تنهال عليه لوماً وتقريعاً... ويجد العجوز صوته الهادئ خالياً من كل انفعال:

«تأخرت ليه يا حنفي؟».

«والله يا با محمد، أصل ال...».

ويمضغ حنفي الكلمات الباقية فلا يبين لها معنى، ويتسّم المعلم محمد وهو يقفز إلى القارب، ويبدأ عمله وكأن شيئاً لم يحدث.

على أن الأمر لم يكن ليمر دائماً بمثل تلك البساطة، فكثيراً ما تحدث المعلم محمد مع حنفي وهما جالسان في القارب وسط المياه عن مزية التبكير في الحضور... كان الرجل يؤمن دائماً أن صيد البكاري بركة، وأن الصياد الماهر هو من يعود بحمله قبل الضحى فيتخاطفه التجار وهو حي يلعب... والناس مغرمون بالسّمك الحي، يدفعون قرشاً أكثر في مقابل سمكة تتلوى، ولو وضعها وسط أكوام من الأسماك التي صيدت في العام الماضي.

ولم يكن حنفي يرد على عمه أو يناقشه في حديث، إنما هو يصغي صامتاً لصوته الهادئ الوقور، ويهز رأسه بين الحين والحين مؤمناً، وينهض ليجذب حبلاً أو يعدل من وضع شبكة، أو يطرح أخرى على الجانب الآخر، ولا يكف عن العمل لحظة.

وقد حمد له العجوز ذلك التأدب الذي لم يجد سبيله إلى نفس ولده... وفي مثل تلك الأوقات التي يطول فيها الصمت والترقب، كان المعلم محمد يترك لنفسه العنان ليفكر في أمر محمود، أو يتحدث فيه مع حنفي فيتساءل من جديد - دون أن يمل من ترديد سؤاله - بمن يتشبه محمود؟... وهل سيظل طوال عمره متسكعًا بين الحانات والغرز؟... إنه لم يدخر وسعًا في تربيته حتى أصبح صيادًا يحسده رجال الشاطئ على مهارته، فلماذا لا يهتدي بالله؟... كم من مرة تشاجرا معًا، وكم من مرات طرده من البيت... بل إنه أعلن ذات صباح حاله فوق الرصيف وأمام كل رجال الشاطئ - وكان هذا حدثًا رهيبًا اهتزت له عائلة البلطي - أنه بريء من ولده... لكن محمود لم يهتم، غادر الرصيف وغادر الزقاق أيامًا... ثم ظهر ذات صباح مستقلًا فلوكة ذات شرع يوصل بها الناس لقاء أجر... وكانت هذه هي الطامة، واجتمع رجال البلطي وشبابه في بيت المعلم محمد، وقرروا بالإجماع أن يعود محمود إلى بيت أبيه، وأن يعتذر، وأن يعد بألا يهمل بعد اليوم عمله... وقد عاد محمود، واعتذر، وقبل يد أبيه ورأسه، وأقسم ألا يهمل بعد ذلك عمله... ومضى يوم ويومان، ومضت أيام عاد بعدها محمود إلى سابق عهده... يسهر حتى الصباح، ويعود مع بزوغ الفجر حطامًا، محمر العينين، شاحب الوجه مترنحًا.



غادرت الشمس حافة الأفق وأخذت تتسلق صفحة السماء، وألقت بشعاعها الدافئ ونورها الواهن فغمر كل شيء... ولم يظهر حنفي! وكان هذا أكثر مما يطيق المعلم محمد أو يحتمل!

ماذا دهى حنفي هو الآخر؟! ... أترأه يصنع ما صنعه محمود؟ ...
أيظنان أنه لا يستطيع أن يخرج بالقارب وحده؟! ... لماذا تأخر؟ ...
ولماذا أصبح يتأخر هذه الأيام كثيرًا؟! ... أين يقضي ليلاته هو
الآخر؟! ... هل عرف الطريق إلى الغرز ومحال البوظة؟ ... هل
يصحب معه رجلاً ويترك حنفي ومحمود ليصنعا ما شاء لهما
عبيهما؟ ... أيكون هذا نهاية الطريق التي شقها السيد البلطي؟! ...

أين أنت يا سيد لترى العائلة وما حل بها؟! ... تركنا شاطئنا بعد
موتك وجئنا إلى الميناء، لم يعد فينا من يستطيع الخروج إلى الشاطئ
المفتوح ويتعرض لما تعرضت له أنت... الرجال كثيرون متناثرون
فوق الرصيف، إنهم يمرون متسكعين يلقون بتحية تقول: أمن خدمة
نؤديها لقاء أجر؟! ... غلابي وأصحاب عيال... ربع الصيد للرجل الذي
يقوم بالعمل كله... أشياء كثيرة تغيرت وتبدلت منذ اختفائك يا سيد...
وجوه جديدة زحفت على الشاطئ تبحث عن الرزق، ومهن جديدة
خلقها الرجال خلقًا ليعثروا بها على لقمة العيش... سنوات طويلة
مرت وأنا رب العائلة... بلغت السبعين وما زلت أخرج كل صباح
بالقارب، ترى هل أستطيع الآن أن أجذب الشبكة وهي محملة؟! ...
مرت سنوات طويلة دون أن أمارس العمل، ولدك حنفي زين الرجال
حقًا، وولدي وصمة عار لم أستطع أن أمحوها... لكنني ما زلت عفيًا،
ما زالت بي قوة تستطيع أن تطرح الشبكة وتجذبها، كثيرًا ما تذكرتك
وأحسست بالضيق والوحدة! ... أنا لا أذكر أبي أو أمي، فقد كنت أبي
وأمي وأخي... كيف مت؟! ... وهل أنت ميت حقًا، أم أنك ما زلت
تعيش في قاع البحر مع جنية حسناء؟! ...

بنداري ورومة وحسنيين وزينهم يتغامزون وهم في جلستهم بجوار
السور، لا بد أنهم يتشاورون، وسيأتي إليّ أحدهم عارضا خدماته...
لماذا تأخر حنفي؟!... هل يظن أن حياتي معلقة به؟!... أظن أنني
سأقف كل يوم على الرصيف حتى تصعد الشمس إلى منتصف السماء
في انتظاره؟!... لعنة الله عليه وعلى أمه... لعنة الله على العائلة
بأكملها... سبعون عامًا لكنني أستطيع أن أخرج وحدي، وسأخرج
وحدي وأريهم... وحتى لو جاء حنفي - قسمًا بالله - فلن أسمح له أن
يطأ القارب... من يظن نفسه هذا الكلب؟!... هيه؟!!

«صباح الخير يا با محمد».

«صباح الخير يا رومة».

لن أصحب أحدًا.. ليرزقني الله بحمل واحد وأعود!

«أمال فين حنفي، اتأخر ليه النهارده يا بابا؟».

«مش جاي، عيان، مات، الله يلعن أبوكم!».

عاد رومة إلى رفاقه الجالسين بجوار السور بعد ما لقيه من المعلم
محمد البلطي، وبقايا ابتسامة ما زالت عالقة بشفتيه، غير عابئ بسباب
الشيخ وشتائمه، ثم قال مشيرًا بطرف أصبعه إلى حيث كان القارب
يبتعد مسرعًا:

«دا باين عليه اتخانق مع حنفي!».

وسرعان ما ألقي بنفسه إلى جوار زملائه... ثم دس بين شفتيه
سيجارة أشعلها وهو يستشعر لذة الكسل، ويغمض عينيه لشعاع

الشمس الدافئ الذي يحلو لرجال الشاطئ أن يتمرغوا فيه في
الأيام الشاتية...

ران الصمت على الرجال وهم يلاحقون الحياة التي أخذت تدب
على الرصيف تدريجيًا، وناول رومة سيجارته المشتعلة لجاره،
وأخذت السيجارة دورتها على الرجال، تنتقل من شفتين إلى شفتين،
وكل منهم حريص على أنفاسها القليلة... وتساءل أحدهم بلا مبالاة
عن سر غياب حنفي، وألقى آخر جوابًا فاترًا، التقطه ثالث وعلق
عليه.

ثم ثقل الحديث بهم، وامتد من حلقة إلى حلقة حتى وصل إلى
السيد البلطي، حيث لا تفقد الحكايات عنه جدتها مهما قيلت
أو أعيدت!



قبل ثلاثين عامًا، لم تكن الميناء قد أصبحت على ما كانت عليه في
تلك الأيام... فلا أسوار، ولا مباني، ولا حراس... بل ساحل رملي
يمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، تقوم في وسطه صخرة رأس
التين الشاهقة بقصرها الهائل... ويمتد الساحل عن يسار الصخرة
متجهًا نحو الغرب حتى ساحل المكس... هناك في أقصى المدينة
أو بعد ذلك بقليل... أما تلك المساحة التي تمتد عن يمين رأس التين
شرقًا حتى نهاية شاطئ الأنفوشي وبداية الميناء الشرقي، فكانت وقفًا
على عائلة البلطي... حرّم السيد على رجال البلطي أن يطرحوا شباكهم
أو يرتادوا مكانًا آخر غير مكانهم... ورغم أن هذا المكان لم يكن أكثر
الأمكن آمنًا، بل كان أشدها خطرًا التعرضه للرياح والأمواج، ولا متلائه

بالصخور والأعشاب... فإنه كان - في ذلك الوقت - أخصب الأماكن وأكثرها غنى بالأسماك!

وقد تعددت الأساطير عن السيد البلطي وتكاثرت حوله الحكايات منذ وفاته... كانت سيرته - رغم مرور ذلك الزمن الطويل - لا تزال تجد من رجال الشاطئ ونسائه وعياله آذانًا مصغية، بل كان الحديث عنه هو أحب الأحاديث إلى نفوسهم، وأدسمها مادة وأعزرها تفاصيل... يحكي الناس عنه الحكايات، ويسمعون عنه حكايات أخرى، في المقاهي وعلى عتبات البيوت في أزقة حي الأنفوشي المعتمة، وفي الغرز ومحال البوظة، عندما يصبح حديث الرجال شعرًا وخيالًا وأساطير تلهب مشاعرهم وتخفف عنهم وتجسد لهم آمالًا يصبون إليها ويتمنونها...

ولو تنبه الذين عاصروه - من غير أهل البلطي - لما كانوا يحكونه بألستهم، لدهشوا أشد الدهشة لذلك التحريف الذي أدخلوه - راغبين - على تلك الشخصية التي حكمت الشاطئ يومًا بقبضة من حديد، غير عابئة بسلطة أو سلطان، وفرضت على الرجال حكمًا جائرًا لا مبرر له ولا منطق يسنده... حكمًا أصبحوا يضربون به الأمثال في العدل والشهامة والرجولة، لكنه كان - في أيام السيد - ظلمًا تحملوه صاغرين أمام ذلك الجبار الذي نزح إليهم من قلب البلاد، ولا يدرون من أين؟ جاء إلى الشاطئ أول الأمر وحيدًا، فوجد الرزق موفورًا ومكث بضعة شهور، ثم اختفى أيامًا عاد بعدها بعائلته كلها... لا يدري أحد ما هي صلات القربى بينهم، إن كانوا إخوة أو أولاد عم أو خال، كل ما عرفه الناس عنهم أنهم «البلطية»... كانوا فقراء يرتدون أسمالًا ممزقة،

صففر الوجوه، هزيلي الأجساد... وكان السيد هو رأس العائلة تطاع كلمته بلا تردد ولا مناقشة، فأخذهم بالشدة، وجمعهم في حجرتين استأجرهما في الزقاق، حيث كانوا يجتمعون كل ليلة ليقتسموا ما أتاهم من رزق... لا يزيد نصيب فرد عن فرد، ولا يقل نصيب فرد عن آخر... وقد شغله أمر العائلة في البداية فحرم على نفسه الزواج، وحرم عليهم الاختلاط بأحد، فاحتفظوا بتقاليدهم وعزلتهم، لم يجلس أحدهم على مقهى، ولم يغش أحدهم غرزة... وما لبث عددهم أن تكاثر فاستأجروا حجرة ثالثة، ثم رابعة... ثم اشتروا بيوت الزقاق كله... وسمي الزقاق بعد ذلك باسم السيد البلطي... ولا يجرؤ غريب على الخطو داخله، أو استطلاع ما به.

وتزوج السيد قبل وفاته بثلاثة أعوام، وكانت ليلة زواجه أسطورة، دخل الناس الزقاق فيها لأول مرة، أكلوا وشربوا وتمرغوا في الخير، وطلع عليهم السيد في صباح اليوم التالي رجلاً آخر... يحدث الناس ويجالسهم ويناقشهم ويسمر معهم، وإن كان قد احتفظ بشاطئ العائلة لا يقربه رجل!

وقد مرت الأعوام، فأنشئت المباني والأسوار، وزحف العمران على تلك المساحة الرملية التي يقع عند طرفها قصر رأس التين فوق صخرته، ومن ورائه يمتد ذلك اللسان الصخري إلى قلب البحر... وتغيرت الحال، وأصبحت غير الحال... اختفى السيد البلطي ذات صباح توجهت فيه الطبيعة وثار، عصرت السماء في ذلك اليوم سحبها عصراً، وأغرقت الشاطئ بسيول الأمطار، وأربد سطح المياه وعلت أمواج البحر حتى زحفت إلى ساحة القصر وما وراءها من

أراض خالية، ودهمت العاصفة الكثيرين، لكنهم استطاعوا النجاة
لقربهم من الشاطئ، بينما كان السيد البلطي قد توغل - كعادته - يرتاد
البحر بقارب هزيل، وينتزع الرزق انتزاعًا غير عابئ بهياج أمواج
أو أمطار سماء... ومرت الساعات دون أن يعود، ثم مر الليل والعاصفة
لا تهدأ ولا تستكين، وعندما لاح فجر اليوم التالي ابتلع البحر أمواجه،
وامتص الكون رياحه، وراى على الطبيعة سكون حزين، وانطلقت
القوارب تجوب الساحل من أقصى شرقه إلى أقصى غربه بحثًا عن
السيد... لكنهم لم يعثروا عليه... وانغrust الحقيقة في قلوب الجميع
فأدتمتها، حتى الذين كانوا يضمرون له كرهًا، أمسوا يومها ليجدوا
أنفسهم وقد فقدوا رجلًا دمى الخلق، حازم الرأي، عادل الحكم...
وبكاه الجميع ليلتها، ثم بكوه بعد أيام عندما دخلت الميناء إحدى سفن
الإنجليز وهي تسحب وراءها قاربه... وظل الناس يتحدثون عنه،
وكلما تحدثوا، اكتشفوا فيه شيئًا، يلهب عواطفهم... تذكروا يوم
اختلف الصيادون مع تجار الحلقة، وكيف وقف السيد يقاوم السيطرة
على الأسعار منتصرًا للصيادين حتى هزم التجار وأصبحت الكلمة
كلمتهم... وتذكروا يوم اختلف اثنان من الرجال حول نصيب كل
منهما، وكان السيد هو الحكم الذي قبل الرجلان حكمه... ويوم أن
هبت العاصفة وكادت أمواج البحر تبتلع سبعة من الرجال بقواربهم،
فإذا بالسيد ينطلق وحده بقارب شرابي لينقذ الرجال وقواربهم
وشباكهم... وتذكروه شارب بوظة لا يشق له غبار، وحشاشًا صلب
الرأس مفتوح العينين، وقائل شعر وجليس أنس ومغني مواويل عندما
تصفو الليالي ويتوافر الرزق ويملا المال الجيوب... ويصيحون وهم
في قمة النشوة:

«كل ده مخبي فين؟».

فيرد عليهم بابتسامة الواثق المنتصر:

«حكم الزمان على الرجال يا رجال!».

ولم يكف الناس عن الحديث... حتى أصبحوا يوماً فوجدوا في السيد أملاً يصبو إليه كل منهم... رأس كرأس حوت، وكف تهابها الرجال، وقامة مارد، وعينا نسر لا تخطئان، وبطل يخاوي جنيات البحر ويكتنز في صدره الأسرار، وفي بيته الجواهر والأموال... وأصبح السيد البلطي أسطورة!

فمن ذا يصدق أنه يموت؟!

قالوا إنه تزوج ابنة أحد ملوك الجان، وقد أقامت له زوجته قصرًا - لا يزال قائمًا - تحت صخرة رأس التين، وإنه أنجب منها اثني عشر ولدًا ليست فيهم أنثى واحدة!... وهو سر يعلمه كل فرد في عائلة البلطي، يتوارثونه في الزقاق ابنًا عن أب دون أن يجروا أحدهم على البوح به، وإلا حدث له ما حدث للسيد... وكانت بداية النهاية عندما اختلف السيد مع زوجته الجنية، واشتد الخلاف بينهما فتخاصما، وقرر السيد إغاضتها فتزوج أم حنفي... كانت يتيمة لا أب لها ولا أم، جاءت مع العائلة طفلة صغيرة، وشبت في العز الذي أغرق العائلة بعد نزوحها إلى الشاطئ... وأقسمت الجنية أن تخطف السيد وتسجنه، ولولا خوفها منه ومن بطشه، لفعلت ذلك منذ اليوم الأول لزوجها... لكنها ظلت تنتظر وتنتظر حتى هبت العاصفة، فشغل السيد عن نفسه بالشبكة والقارب، وانهمك في العمل غير شاعر بالخطر المحدق به... فانقضت

عليه من الخلف - ولم تكن لتجاوزف بمواجهته - وقيدته بالسلاسل،
ثم سحبته وغاصت به إلى أعماق البحر!!



لم يكن فيما قاله الرجال في ذلك الصباح عن السيد جديد...
وتدريجياً تسرب الفتور إليهم، فتفتت الحديث، ثم تلاشى... وغرقوا
في السكون...

ما لبث أحدهم أن رفع رأسه إلى قرص الشمس المعلق في الفضاء،
وهبط بعينه إلى سطح المياه وقد تناثرت فوقه القوارب، فابتلع لعبه
بمرارة وقال بنبرة يائسة:

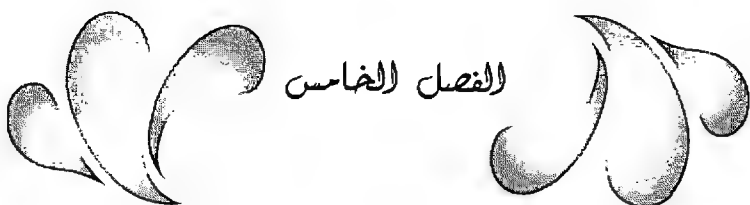
«سمعتم اللي حصل ليلة امبارح في قهوة سلومة؟!».

«لأ... حصل إيه؟».

«واحد من رجالة عبد الموجود حمدان، قال انه خلاص اتفق على
مركب الصيد الجديدة!».

«بيقولوا يا جدع انها مركب توسق ميت طن سمك!».

«حقه لو جت المركب دي يا جدعان، قول يا رحمن يا رحيم على
الصيادين!».



هرول السيد عبد الرحمن بجسده السمين المترهل وراء الطبيب وهو يغادر فراش حمودة في أدب شديد بين صفين من الأسرة، تكاد كرشه تختفي داخل انحناء جسده، ويكاد الدم يطفر من وجتيه انفعالاً... حتى إذا انتهى بهما السير إلى باب العنبر الكبير، ولاح للنظر فناء المستشفى الفسيح وقد تناثر فيه المرضى والمرضون والمرضات وبعض الأطباء، توقف الطبيب عن السير، واستدار نحو السيد قائلاً في تجهم:

«مش بتقول إنه قريبك يا سيد؟».

«أيوه يا سعادة البيه».

قالها السيد في نبرة مسكينة متزلفة، وهو يضم كفيه السميتين أمام صدره في تملق شديد، بينما راح الطبيب يتفحصه في إمعان وقد بدا على وجهه أثر التفكير العميق، ثم قال في شيء من الحدة:

«أنا مش قلت لك قبل كده انه لازم يروح مكان هواه جاف؟!».

«حصل يا سعادة البيه... حصل!».

وانفجر الطبيب فجأة والانفعال يكاد يقتلع جسده النحيل من فوق الأرض:

«وليه ما سفرش لحد دلوقت؟... إنتوا بهاييم؟!... آمال عامل
تومرجي إيه وزفت إيه؟!».

«ما هو يا سعادة البيه...».

«بلا سعادة البيه بلا زفت، افهم يا بني آدم، الراجل ده عيان،
عنده ربو، والحالة متقدمة، وحشة يعني، فاهم يا سيد؟... حالته
وحشة، لازم يروح مصر، يروح حلوان، يروح في داهية... بس
ميقعدش هنا!».

تلجلج السيد عبد الرحمن وانكمش في نفسه أمام هذه الثورة،
وكست حمرة الخجل وجهه الأبيض حتى تحول إلى قطعة من اللحم
الأحمر القاني وأحنى رأسه في أدب شديد وهو يتمتم:

«ما هو أكل عيشه يا سعادة البيه...».

وقاطعه الطبيب:

«شوف يا ابني...».

وصمت وهو يكبت انفعاله... ورغم أنه كان يصغر السيد
عبد الرحمن بسنوات لا تقل عن العشر، فإن هذا لم يلق بالآ إلى كلمة
«يا ابني» هذه التي تعودها من حضرات الأطباء... وفي رأيه - والسيد
أفندي الباشتمرجي له آراء في الحياة مهمة جدًا - أن الآباء ليسوا
بالسن، ولا بالدم... وإنما بالعلم، لذلك صمت في أدب الأبناء أمام
صمت الطبيب الشاب الذي أمسك بالقلم وأخذ يكتب على ورقة في
يده علاج المريض حمودة البلطي... كانت يده تجري بالقلم في سرعة،
ويخطف سن القلم حروف الكلمات خطفًا يطمس معالمها، وما إن

انتهى من الكتابة حتى دفع بالورقة إلى السيد عبد الرحمن وهو يرطم
مكملاً حديثه، وقد لانت لهجته في شيء من العطف المرير:

«شوف يا ابني... الراجل ده حالته خطيرة، لازم يروح مكان جاف،
مفيش علاج غير كده، فاهم؟... تبقى تدي له الدواء ده!».

ومضى الطبيب مسرعاً دون أن يلقي بالآ إلى كلمات الشكر التي
انهمرت من فم السيد أفندي، وما لبث أن اختفى في أحد الممرات،
فتنفس السيد أفندي الباشترجي ملء صدره، وسرعان ما استقام
ظهره، وبرز كرشه في زهو ولاحت أمارات الاهتمام على ملامحه وهو
يندفع مسرعاً ليهبط سلماً صغيراً يوصله إلى الفناء.

كان حنفي لا يزال في وقفته في أحد أركان الفناء الواسع، وقد
بدا القلق على وجهه عندما انقضت عليه كلمات السيد أفندي
بلا مقدمات:

«جالكم كلامي يا سي حنفي؟».

«خير يا سيد أفندي...».

«بلا سيد أفندي بلا زفت... افهم يا بني آدم، الراجل عيان، عنده
ربو، والحالة متقدمة...».

وتوقف عن الحديث ريثما يرى أثر كلماته في حنفي الذي بان عليه
الفرع وهو يتساءل في دهشة:

«متقدمة يعني إيه يا سيد أفندي؟...».

«أيوه يا سيدي متقدمة، يعني وحشة، فاهم يا حنفي، الحالة وحشة،
لازم يروح مكان هواه جاف زي ما قلت لكم قبل كده، عارف يعني إيه

جاف؟ يعني مصر، حلوان... في أي داهية بس ميقعدش هنا جنب الميه والرطوبة!».

رغم حلاوة اللسان التي كان يتمتع بها السيد أفندي، ورغم أن حنفي أبداً لم يكن ينتظر منه هذه اللهجة الحادة والثورة العنيفة، فإن ذلك لم يكن يعني سوى أن خاله مريض، وأن مرضه لا بد خطير... لذلك لم يغضب ولم يثر... حقاً لم يسبق للسيد أفندي - ولا غير السيد أفندي - أن أطال لسانه على أي من رجال الزقاق، إلا أنه لا بد وأن يكون في الأمر شيء دفع الرجل إلى هذه الثورة... الورقة ترتجف في يده، ووجهه كسته حمرة الانفعال، وعينه قلقتان لا تستقران على حال... وانتابت حنفي حيرة بالغة، فماذا يقول... قيل هذا الكلام مرات ومرات دون جدوى... ولن يترك خاله الشاطيء، وإن تركه فماذا يصنع؟... وأين يعيش؟... وماذا يعمل؟.... وكيف يطعم أولاده؟!

ثقلت الأفكار عليه، فنكس رأسه، وساد الصمت بين الرجلين... على أن غضب السيد أفندي - وإن كان مصطنعاً - قد انفثاً لسكوت حنفي، وانتابه إحساس بالزهو شديد، وإحساس آخر بالندم على ما بدر منه... فأخذت شفتاه تتمتمان بكلمات مبهمه سرعان ما أخذت تبين:

«ما هو يا حنفي الدكتور قال كده، ده زعلان خالص، وأنا قبل ما يقول الدكتور قلت لكم أنا، فاكريا حنفي... ده حتى الراجل قعد يتحايل عليّ ويقول لي: مش انا نبهت عليك المرة اللي فاتت يا سيد أفندي؟... قلت له ان حمودة صياد، وان ده أكل عيشه، مفيش فايده... الراجل حايروح من إيديكم يا حنفي!».

كان حنفي واجمًا يفكر في أمر خاله... ورغم محاولاته العديدة
للعثور في ذهنه على حل... فإنه قال أخيرًا في نبرات يائسة:
«والعمل يا سيد أفندي؟!».

قالها وهو يتحرك نحو باب المستشفى الكبير، وقد زوى ما بين
حاجبيه في ضيق... ذلك أن كل شيء بدا له في تلك اللحظة كثيبًا،
حياته، زوبة، المعلم محمد الذي يتظره على الرصيف، الجنيهات التي
ادخرها بلا فائدة، أخته التي تجري السنوات بها دون زواج، خاله
المريض وأولاده الخمسة... هل يحدث شيء لحمودة؟!
«كله بأمر الله يا سيد أفندي، كله بأمر الله!».

لوح السيد أفندي في تبرم وقد عاوده الغضب من جديد، ثم صاح
في انفعال:

«وآخرتها يا حنفي... وآخرتها يعني؟!».

لم يكن غريبًا ذلك الحماس الذي بدا من السيد أفندي الباشتمرجي،
فقد تعود أهل الزقاق منذ أن جاءهم لأول مرة ليعالج حمودة أثناء إحدى
النوبات... وتردد السيد أفندي بعد تلك المرة على الزقاق كثيرًا، وأصبح
مع الزمن طبيب العائلة، يشخص للمرضى أمراضهم ويعالجهم منها،
ويشتري لهم الدواء أو يأتي به من المستشفى... ودخل السيد أفندي كل
بيت، وعرف الكبير والصغير، ولم يعد يأخذ القرشين عند الكشف، كان
قد أصبح لطول العشرة وكأنه واحد منهم، يقضي لياليه على المقهى
وسط المعلم محمد وحمودة والحاج برعي والرئيس صادق... وأنس في
عائلة البلطي تلك الحماية المسترة التي أضفتها علاقتهم به عليه.

لكن غضب السيد أفندي سرعان ما تبخر وذاب عندما التفت إليه حنفي والتقت عيناه بعينيه، فخفق قلبه خفقة سريعة، شيء ما يربطه بحنفي بالذات، شيء يدب في قلبه ويطلق جوانحه في وعي كامل... وكانا قد وصلا إلى باب المستشفى الكبير عندما توقف حنفي وسأل السيد أفندي في أسي:

«وازاى حاله دلوقت؟!».

فرد عليه هذا بلهجة حنون وقد رق صوته، واهتزت جفونه في تأثر مبالغ فيه:

«بخير بعد ما أسعفته، عملت له اللازم، وجه الدكتور... كان التنفس ماشي عال، صحيح الراجل شكرني، إنما دا حمودة اخويا يا حنفي!».

يشهد الله أن السيد أفندي لم يقصد إلى هذا الاندفاع في الحديث الكاذب، حقًا لقد تعود هذا منذ أن عرف كيف يتقن سر الصنعة، لكنه في تلك اللحظة لم يكن ليفكر في أمر كهذا... ثمة عاطفة جياشة كانت تجتاح مشاعره في تلك اللحظة، عاطفة مست قلبه مسًا خفيًا دون ضغط أو إكراه... عاطفة أخذت تتمسح في قلبه البارد كقطعة أليفة فأدفأته، ألد أوقاته تلك التي يجتر فيها ذهنه لمسة يد، أو نظرة خاطفة، أو كلمة تؤول... حنفي يسلم ويمضي عنه فيودعه باللسان واليد والقلب معًا... ويشمل جسده العملاق الغارق في صديري مخطط وسراويل واسعة فضفاضة، ويمضي كحبيب تفيديه الروح فيجتاز الباب في خطوات واسعة ورأس مرفوع... أكثر ما أحبه في هؤلاء الناس هو كبرياؤهم التي حرم منها... مات أبوه وتركه مع أم كانت تشقى طول اليوم لتطعمه... شب عن الطوق ليرى من الحياة وجهًا واحدًا شنيع

التكوين... حمل الهمّ فأصبح الهمُّ جزءاً متمماً لشخصيته، لا يعرف في الحياة سوى كلمة حاضر، ولا يتقن شيئاً قدر إتقانه الانحناء والتملق وتقييل الأيدي وانتهاز الفرص... يبهره في آل البلطي إحساسهم بذواتهم وكأنهم ملوك الدنيا... اختفاء حنفي عن نظره، وسعيه إلى الغير، وذهابه هنا وهناك، وتنقله بين الأسرة والمرضى، وملاحظته لأنفاس حمودة ودقات قلبه، وحديثه مع زملائه، واختطافه لقطعة لحم من المطبخ، وأوامر الأطباء وصيحات الباشتمرجي... كل هذا يمر أمام ذهنه الغارق كما تمر سحابة خفيفة في يوم قاطظ، تقلل من حرارة الشمس لكنها لا تخفيها أبداً... وحرارة قلبه أكبر من أن تطفئها أحداث الحياة الباردة... وجه يراه - على خلاف الناس - أشد الوجوه سماحة وأجملها منظراً، حياء وأدب وأخلاق، وجسد نحيل حقاً، لكنه سيعرف كيف يكسوه بلحم كلحمه.

الفقير منا يجب أن يعيش - هكذا يقول السيد أفندي لنفسه دائماً - والرزق يرسله الله حتى ولو كان من طعام المرضى، واللحم الذي يأكله يكفي أربعة... ويوم يظللهم سقوف واحد سيغرقها في الأدوية الشافية واللحوم، إنه يعرف سر الصحة حقاً، لكن سر ذلك الذي يؤرقه ويطير النوم من عينيه لم يعثر عليه بعد... في قلبه شك، وفيه أيضاً أمل وخوف.

ترى... هل تشعر به عائشة؟؟

هناك أوقات يكاد قلبه يذوب حناناً لآهة تخرج من فم مريض... وأوقات لا يكاد يسمع في الآهة سوى صيحة تمر بجوار الأذن كمواء قطرة أو نباح كلب!!... ولقد ذاب قلبه ذوباناً لنداء حمودة الواهن، أسرع نحوه وانحنى عليه وابتسم بكل وجهه... هذا خالك يا عائشة،

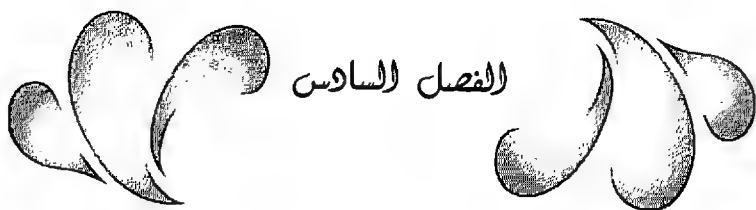
لا تخف يا حمودة لقد زال الخطر وسوف تخرج كالسبع بعد يوم أو يومين... أولادك بخير، وحنفي ترك المستشفى منذ ساعة بعد أن اطمأن عليك، قال الطبيب إنه لا بد لك من الانتقال إلى مكان هواؤه جاف، أخبرته يا حمودة بأنك صياد فلم يأبه، معه حق فهو الشاطئ يتعبك... لا شكر على واجب... ستأخذ هذه الأقراص في الرابعة، وستمر عليك نيمات الممرضة لتحقنك مرتين، مرة في الرابعة وأخرى في العاشرة، لا تهتم، السلام عليكم.

كم هو جميل أن يصنع الإنسان شيئاً من أجل محبوبه... أن ينسى كل شيء عدا حلم جميل يطوف بالنفس والقلب ويغرق العقل.
هل تحبه عائشة؟!

هو يحبها ولا يدري كيف حدث هذا؟... زوبة لا تعجبه، في عينيها نظرة فاحصة جريئة... يخيل للمرء أحياناً أنها تخترق الصدر وتكشف عن مكونات النفس، إنها تعري الإنسان من ملابسه، كم هي مخيفة... أما عائشة، فمنكسرة النظرة، أنفاسها لها رائحة الحياة نفسها، كان قلبه بارداً وكأنه محفوظ بثلاجة المستشفى حتى مرضت أم حنفي وذهب ليحقنها، انحنى عليها فانحنت معه عائشة وفاحت من فتحة صدرها رائحة أنثى دافئة، فذاب الجليد، ونبض القلب، وارتجفت الحقنة في يده... يومها... يومها كاد يجن ويطلبها من حنفي... لكن الله سلم!

لا بد من الذهاب إلى الزقاق... هل يراها الليلة؟!

يا لك من طفل يا سيد أفندي يا باشتمرجي، اعقل يا رجل فما هكذا يفكر العقلاء وذوو المراكز!



الفصل السادس

وقف المعلم محمد البلطي في منتصف قاربه، وأخذ يجول بعينه في أنحاء الميناء، كانت المياه رائقة شفافة، يخترق شعاع الشمس أعماقها فكأنه يكشف عن خباياها... وعن بعد، تناثرت القوارب في كل مكان وهي تهتز تحت أقدام الرجال وهم يروحون ويجيئون، بعضهم انحنى يعدل من وضع حبل، والبعض يجذب «الهلب» من الأعماق استعدادًا للرحيل إلى مكان آخر، وآخرون يجذفون في نشاط، ورجال يطرحون الشباك ورجال يجذبونها محملة بالأسماك... وأصواتهم تسبح في سماء الميناء منادية أو مغنية أو داعية: «يا متولي... يا عدوي... يا بو العباس!»، وسفينة هائلة تجتاز باب الميناء في ضجيج وبطء تاركة وراءها حبلًا غليظًا من الدخان، وسطحًا مزبدًا من المياه.

رفع رجل عقيرته منادياً المعلم محمد فرد عليه العجوز بصيحة طويلة ممطوطة، ثم تبادلوا تحية الصباح، وقال كل منهما للآخر: «ترزق»، واستدار العجوز نحو شبكته، وأخذ يمتحن مكان قطع الرصاص المنتثرة على حافتها كحبات عقد رخيص، وعبث بخيوطها، وتلاعبت أصابعه بقطع الفلين... ثم حمل «الهلب» فتقوس ظهره تحت ثقله، وتصلبت أعصاب ذراعيه، وخطت قدماه في بطء خطوتين، فتمايل القارب تحتهما، وما لبث أن طوح بالثقل إلى المياه... وتنفس ملء صدره!

وما لبث المعلم محمد أن غاص في دوامة الفكر التي اجتذبتة إليها رتابة العمل وروتينيته، أفكار تروح وأفكار تجيء، مد يطغى على رأسه فيغرقه، وجزر تنحسر بعده كل الأسئلة تاركة وراءها سؤالاً واحداً يعربد في ذهنه... هل يستطيع أن يجذب الشبكة؟!... هل تقوى ذراعاه على الحمل إن كان كبيراً، أم تخونانه فيسقط منه ويسلم بالهزيمة؟!... وانتابه خوف غامض... هل ولت أيامه حقاً؟... سؤال قاس انقبض له قلبه، فhez رأسه وهمس لنفسه: «زي ما تكون عيل صغير!»... ثم تذكر ليلة الأمس، ولم يستطع أن يمنع الابتسامة من السيطرة على ملامحه... كلمات أم محمود ما زالت تطن في أذنيه... الولية شعرها شاب وما زالت بحيوية ابنة العشرين... قالت له بالأمس - وكان أمس هو الخميس! - إن دماء الشباب تعربد في عروقه وكان السنوات لم تمر... كانت ليلة!!... والله ليلة لا يقدر عليها شباب هذه الأيام... كيف يخاف؟!، وكيف يتردد؟!، سبعون عاماً لكنها تساوي ثلاثين فقط، لعنة الله على الخوف ومن يخاف، خدر غريب يسري في أوصاله... أشعل سيجارة ونفث دخانها في تلذذ، وراح يفكر: أربعون عاماً عاشتها معه أم محمود، يوم أن تزوجها كانت طفلة في الثانية عشرة، لم تنجب إلا بعد سنوات طويلة، جاءته بمحمود... وتذكر ولده.

تقلصت الابتسامة فوق وجهه، وحلت محلها تكشيرة خفيفة... لماذا لا يهتدي الولد بالله؟... ماذا يصنع بأمه لو مات؟... يدفع الغضب إلى لسانه شتائم وسباباً كالسيل ويحجب القلب كل سوء عن ولده، قلبه لا يطاوعه، لكن حال الولد لا يسر عدواً ولا حبيباً... ترى، أيهتدي محمود بالله لو تزوج؟!.

برقت الفكرة في ذهنه كومضة، واختفت لحظات ظل رأس العجوز خلالها خاوياً، بلا أفكار، ثم ارتدت إلى ذهنه مرة أخرى كمصباح متوهج الضوء حقاً... لماذا لا يزوج محمود؟... لماذا لا يبحث له عن عروس؟... سيهتدي الولد بعدها بالله ولا شك، ويستقر عندما يجد له مأوى يأوي إليه، وحضناً يقيه برد الشتاء... كيف غابت تلك الفكرة عن ذهنه طوال هذه المدة؟!

زحفت الابتسامة مرة أخرى فاحتلت الشفتين، ثم انطلقت لتشمل كل تقاطيع الوجه...

من تصلح للزواج من محمود؟... إنها عائشة!

لكن الولد لن يرضى، طول عمره وهو لا يطيق لها حديثاً أو كلاماً... لكنها ابنة عمه، ابنة السيد البلطي، إذن لا بد أن يتزوجها محمود، فليس لديه أبناء يقولون لا، يجب أن يستر عائشة قبل أن يموت، هذا هو الكلام... محمود يتزوج عائشة... و... ولكن الولد سيرفض، إنه يعرفه جيداً، وسيغضب هو عليه... و... ثم إن عائشة لن تسعد معه. سيكون شجارهما مثار خلاف دائم!!

مضى الوقت وهو سارح.

ألقي بالسيجارة إلى المياه وحمل الشبكة على يسراه، وقبضت يمينه على الجبال، ووقف مستعداً للطرح... ومال بجسده إلى اليسار، وطوح بالشبكة فانتشرت في الهواء كطائر خرافي ما لبث أن راح يهوي نحو المياه وصاح المعلم محمد: «يا متولي»... وغاصت الشبكة في جوف المياه، وسبحت على السطح قطع الفلين محددة اتساعها، وسرعان

ما نشط العجوز، راح فوق القارب وجاء، جذب الجبال ثم أرخاها، أمسك بطرف شبكة قديمة وراح يضرب به سطح المياه حتى يفر السمك إلى الشراك التي نصبت له... وعاد إلى المجذافين وأخذ يضرب بهما المياه في نشوة، وتحرك القارب ساحبًا وراءه شبكة لا يبين منها سوى علامات تناثر فوق السطح في دائرة... وصاح العجوز مرة أخرى: «يا بو العباس!»، وجاءه صوت رجل يلقي بشبكته:

«صباح الخير يا بابا محمد».

«صباح النور يا حوده».

«وحد الله».

«ترزق!».

«ربك كريم!».

وتصاعدت الأصوات في سماء الميناء كعادة الرجال كلما ألقى أحدهم بشبكة، ورد المعلم محمد التحية مرات، وقال ترزق وفي قلبه خفقة... من قال عنه إنه عجوز، إن الشبكة تنسحب وراءه كأنها لعبة صغيرة، اللهم صل على كامل النور، غمرته سعادة فائقة، لا بد أن يزوج محمود، لو كان حنفي معه لاستشاره، لماذا تأخر حنفي اليوم؟!... أيكون قد حدث شيء؟!!

توقفت يده فجأة عن التجديف، وطاف ببصره في كل اتجاه بحثًا عن قارب أخضر اللون، لكنه لم يعثر للقارب على أثر... أيكون قد خرج إلى عرض البحر، كلا كلا كلا، إنه لم يفعلها من قبل، إنه لا يستطيع ذلك وبصدره ما به من أمراض... نهض العجوز واقفًا وضم كفيه أمام فمه ثم صاح:

«يا حودة... حودااا».

«أيوه يابا محمد... خير يا بوي».

«ماشفتش حمودة؟... حمودة ما طلعتش؟!».

مال حودة على زميله وتهامسا برهة صاح بعدها:

«لا والله يابا محمد ما شفتنا هوش، استنى لما نسألوا برعي،

يا بورعي... بورااا عي!».

«أيوه يا حودة، أي خدمة؟!».

أخذ الرئيس محمد ينصت إلى الأصوات وهي تتقافز من قارب إلى قارب، هذا يسأل ذاك، وذاك يسأل الذي يليه، والآخر يسأل من بعده... وأصداء الأصوات تصل إليه واضحة، ثم خافتة، ثم أشد خفوتاً حتى أصبحت كالهمس الصارخ... وطافت الصيحات والنداءات بالميناء، ثم عادت تقترب وتعلو حتى وصلت إليه من جديد.

ترى ما الذي أصاب حمودة؟!، لا بد أن هذا هو سبب تأخير حنفي... سيتزوج محمود من زوبة... كيف غابت زوبة عن ذهنه؟!

استقرت الفكرة في رأسه ولم تبرحه، وطمأن نفسه على حمودة فلو حدث شيء ذو بال لجاءوا إليه... كان الله في عون، خمسة أطفال وزوجة وصدر مريض، قارب خال بجوار الرصيف وشبكة لا تجد من يطرحها... لا بد أن حنفي ذهب للسيد أفندي الباشتمرجي، رجل طيب وابن حلال، ليس هناك ما يعيبه سوى عزوبته هو الآخر... ماذا جرى لرجال هذه الأيام؟!، رجل كهذا، طول بعرض وصنعة برع فيها يعيش وحيداً بلا زوجة ولا ولد؟!... سيتزوج محمود من زوبة، فكرة لا تقبل

اعتراضاً... «يا متولي»، جذب الحبل، وتصيب العرق على جبينه...
النهار أصبح نهاراً، السفن رائحة غادية واللنشات تكرر وتملاً
الميناء بالضجيج، والرزق في الشبكة، والزوجة في البيت، والابن
في الحانة...!



مضى النهار، وعاد الصيادون بقواربهم، ومالت الشمس نحو الغرب
وكادت تختفي، وأقمرت الميناء وهذأت فيها الحركة... ليس سوى
قارب شراعي هنا، وقارب هناك... وصيحة تنطلق: «يا متولي»... فيها
استجداء، وفيها عناد متعب.

وسبحت الشبكة في الفضاء ثم هوت إلى سطح المياه ووراءها عينا
المعلم محمد البلطي... وكان قد طرح الشبكة وجذبها عشرات
المرات، ولكنها خيبت أمه، لم ترزقه إلا بسمكات صغيرة ألقاها في
قاع قاربه... وطول يومه وهو يقاوم رغبته في العودة... يقول لنفسه:
«يا واد ارجع وسبيك من العناد»، ويفور دمه، ويغلي في عروقه الغضب،
ويطرح الشبكة من جديد، وفي كل مرة يخفق قلبه، وتخرج الشبكة
خالية... حتى دب التعب في جسده، وتهدجت أنفاسه، وأصبحت
الشبكة وهي فارغة حملاً ثقيلاً تنوء به ذراعه.

جلس يرقب حباله وشبكته وفي رأسه ألف خاطر... ترى ماذا
يقولون عنه لو عاد بلا رزق وقد ظل اليوم بأكمله باحثاً؟! وماذا يحدث
للرجال لو تحقق ما يقولونه عن عبد الموجود حمدان وسفينته التي
توسق مائة طن من الأسماك، وشباكه الحديدية، وشركته الجديدة التي
دخل فيها مع الإنجليز... كيف ينافسون بقواربهم الهزيلة سفينة كالتى

يتحدث الرجال عنها على الرصيف وفي المقهى؟... ما الذي يخبئه لهم المستقبل من أحداث؟... الرياح تشتد، والسحب تتجمع، والليل يزحف، والشمس تختفي، والقارب خال إلا من بضع سمكات، والشبكة في المياه... وقالوا أيضًا إن سفينة الصيد الجديدة ستغرق البلاد بالأسماك، فماذا سيصنعون؟... ومن أين يأكلون؟... لا بد أن القلق قد انتابهم في الزقاق لغيابه، وسيأتي الرجال عما قريب، سيجدونه بلا صيد ولا رزق، سيسخرون منه في أعماقهم... يا متولي... الشبكة ليست ثقيلة... الغيظ يملكه، الضيق يسيطر عليه، إنها... فارغة، حتى المياه تتسرب منها... ماذا دهاه؟... خير له أن يعود، من من الصيادين يقيم حياته على رزق يوم، كم من سنوات كان الرزق فيها شحيحًا، لكنه لن يعود خالي الوفاض، سيعود كما يجب أن يعود... عناد صبياني ولا شك، يفكر كما يفكر طفل... ليكن!!، سوف يزحف بالقارب قرب باب الميناء، ويلقي بالشبكة عند امتداد مياه البحر إلى ما وراء الأفق، هناك ينتهي حاجز الأمواج، ويصطخب سطح البحر في مد وجزر خطرين، وربما هبت ريح قوية، وبشائرها تلفح وجهه... الزمن يتحدها، والقدر يتحدها، والأسماك تعانده، لكنه سيتحدى الجميع... ليجدف في سرعة فعمما قريب يحل الظلام... سطح المياه يربد ويزداد ثورة كلما اقترب من باب البوغاز... لكنه وصل، فهل يتراجع؟!... لماذا لا يوحد الله ويصلي على النبي ويخزي الشيطان ويعود إلى الرصيف وفي العمر متسع؟... حديث جناء، وجبن لا يليق به... فليتكلم على الله ويطرح الشبكة ويتنظر رزقه في صبر... ألقى بالهلب فغاص جاذبًا حبله الطويل في سرعة، والشبكة مهدلة بين ذراعيه، لكنها ستخرج إليه ملأى متفخة...

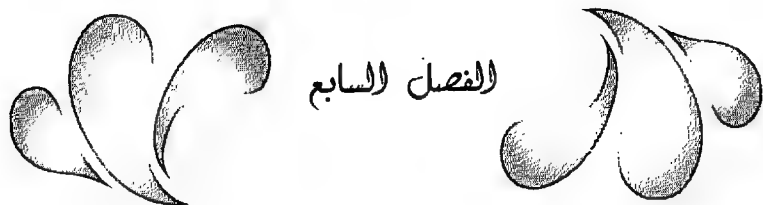
«يا عدوي... يا بو العباس... يا متولي!».

راقب الشبكة السابحة في الهواء برضاء، ثم همس: «طرحه معلم صحيح يا واد!»... وسرعان ما دب النشاط في جسده، وراح وجاء، جذب حبلاً، وعقد آخر، وجدف في قوة... وقرأ آية، ثم ابتهل إلى الله متوسلاً بالأنبياء والأولياء، وواجه القارب امتداد البحر بعيداً عن حاجز الأمواج، وتلاعبت الأمواج به فأخذ يتأرجح يمنة ويسرة، وران على الدنيا هدوء عميق، وجاءته الأصوات من بعيد هامسة، تودع اليوم وتستكين في قلب الدنيا وتهجع بعد طول ضجيج... بدا له السكون مقبضاً تقطعه همسات الأمواج وهمهماتا وقد أخذت تعلو لحظة بعد أخرى مختلطة بصفير الرياح التي أخذت تشتد... وجلس العجوز على حافة القارب، ظهره إلى الشمال، ووجهه إلى حيث يرقد الشاطئ عن بعد وقد تناثرت فوقه الأنوار... وغرق في السكون تماماً، لكنه انتفض فجأة على صوت حاد ثاقب طعنه من الخلف، وثقب أذنيه في قسوة واندفع نحو القلب تماماً، فارتجف، وارتجفت كل خلية في جسده وهو يستدير فزعاً نحو باب البوغاز ليرى سفينة هائلة - كأنها جبل - تتهدى في شحوب الغروب تشق مقدمتها مياه البحر في بطء وثقة... قاس المسافة بعينه، وأيقن من وقوع الكارثة، انتصب كالملدوغ وصفارة السفينة الثاقبة تخرق أذنيه من جديد، ظل جامداً حائرًا لا يتحرك... أين ذهب حذره ويقظته؟... كيف باغته تلك السفينة؟... مقدمتها تتجه نحو الداخل بلا توقف، والشبكة في الطريق، الكارثة!... ستمزق الشبكة... لم يره أحد من رجال السفينة وإلا لهدأت سرعتها، تشق المياه في قوة، ويقترب جدارها الصلد من قاربه،

حنفي والرجال؟... ليتهم جاءوا ليعودوا به... القارب مقلوب، والهلب في القاع، والرياح تشتد، والمياه كالثلج، وحاجز الأمواج يبدو بعيداً، ولا ملجأ له غيره، ذراعاه وهتتا، وصوت الآلات يقترب، منتصف السفينة، وبعدها الرفاص القاطع ودواماته الرهيبة، ستمتصه الدوامة إلى جوفها ويمزق الرفاص أشلاءه فتطير في كل مكان، لكنه لن يموت، إنه يتعد، يسبح، الحاجز يقترب، والسفينة تمضي، يدفع رفاصها أمواج المياه بغزارة، فتصنع دوامة قمتهابيضاء تضيء الظلام، تجذب جسده في خفة ونعومة، لكنه لن يستسلم لها، سيقاوم ويضرب المياه بذراعيه بقوة، بقوة... بقوة أكثر... أكثر وأكثر... أقل من دقيقة، ثوان خاطفة ويزول الخطر... وقد زال، ابتعد الرفاص، فهذا قليلاً، ضاعت الشبكة، والرزق... أخذ يسبح ببطء، الحاجز غير بعيد، إنه يقترب، ويصبح أقرب، ها هو أخيراً، صخور صلبة، ملساء، يده تنزلق على سطحها، صخرة عالية... لا، لا يستطيع الوصول إلى قمتهاب، جسده ثقيل، أنفاسه تضيق، محمود... محمود... لماذا؟... لما... ذا؟!... نتوء في الصخرة، تشبث به، أين أنت يا محمود؟... أبوك يغرق في المياه وأنت غارق في ملذاتك؟... ضاعت الشبكة، سطح الصخر ناعم أملس زلق كالصابون... حنفي... أين أنت؟، الدنيا ظلام، سكون، النجدة، يا محمود... يا... حنفي... يا رجال... المياه تلتطم رأسه، ورأسه يرتطم بالصخر، فيصيه الدوار لكنه لن يغيب عن الوعي... كيف حدث هذا؟... ولماذا بقي!!... لماذا لم يرحل؟!... نتوء آخر، وبروز بجواره... نجدة من السماء... قشة تعلق بها وماتت عليها أصابعه، وصخرة تحت قدميه، كيف سها عنها؟، وأين كانت؟ الحمد...

لله... مكان آمن، نصفه في المياه ونصفه في الهواء، لكنه بين جدارين
يحميانه من الرياح والأمواج...

لماذا يمر بنا الزمان؟... لماذا لا يقف العمر عند الثلاثين؟... كانت
أحلى أيامه... سيتنظر حتى الصباح... لا... سوف يجيئون عما قريب،
البرد قارس، وصدره يضيق، وكأنه في حلم بغيض... ليكن، ليفعل بنا
الله ما شاء!



الفصل السابع



اندفع السيد أفندي الباشتمرجي من حارة أبو السعود بجلبابه الفضفاض، وجاكتته الحائلة اللون، وقد أرخى طربوشه إلى الوراء في سعادة، ودار إلى اليمين دورة سريعة، وخطا في الزقاق خطوة، ثم توقف مبهورًا... أخذ يجول بعينه في المكان وقد انتابته حيرة ودهشة... كان الزقاق - على غير العادة - قفرًا يسوده الظلام، لا ضوء ولا بصيص من الضوء، لا أطفال يلعبون ولا نسوة يثرثرن... أخرج ساعته من جيب جلبابه الصغير، وراح يحملق فيها وعلامات الدهشة تتزايد على تقاطيعه لحظة بعد أخرى... وما لبث أن دس ساعته في جيبه، واستدار مسرعًا نحو الأسطى عبد المولى الحلاق في دكانه الذي يواجه الزقاق... رفع له يده بالتحية دون أن ينبس بكلمة، وتلاعب لسانه في فمه دون أن ينطق بحرف... ونظر إليه الأسطى عبد المولى بعينين ساهمتين، ثم هز رأسه وقال في صوت حزين:

«أبوك محمد البلطي يا سي السيد!».

وصاح السيد أفندي في جزع:

«ماله.. حصل إيه؟!».

«يقولوا الريح...».

واختنق صوت الرجل، واحتبست الكلمات في حلقه، وعاد السيد أفندي إلى الصياح:

«خبر اسود... قول حصل إيه يا جدع؟».

أشاح الأسطى عبد المولى بيده، وأوماً نحو الطريق إلى الميناء... وكأنما كانت حركته تلك إشارة بدء انطلاق السيد أفندي بعدها يعدو مهرولاً، فقطع الحارة في خطوات، ثم انثنى إلى اليسار مخترقاً زقاقاً ضيقاً انتهى به إلى شارع وكالة الليمون، ودار إلى اليمين، وراح يجري بكل ما في ساقيه من سرعة.



أمام باب الرصيف، كانت النساء - من البلطية وغير البلطية - قد احتشدن مولولات نائحات... زوبة اعتصرها الحزن فانكفأت على الحائط وهي تبكي في حرقة، وعائشة تجلس على الأرض وقد أخذت أمها بين ذراعيها، بينما أم حنفي تصرخ بين الحين والحين بصوت مبحوح: «يا راجلي»، على الجانب الآخر تكومت أم محمود - زوجة المعلم محمد - بجوار الباب ذاهلة عن كل ما حولها، وقد أسندت رأسها إلى كفها وغرقت في صمت ذاهل، وبين الفينة والفينة، كانت تطلق صرخة ملتاعة تنتزع الصوت من حلق النسوة، والدموع من عيونهن... وبدأت مقهى سلومة - على ما اشتهرت به من زحام - خالية من الرجال تقريباً، وقد تناثر من بقي على الرصيف منهم في كل مكان... البعض يتكهن بغرق المعلم محمد، والبعض مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يموت، فهو ريس البلطية، والبلطية لا يقهرهم بحر... وبدأ الرصيف - فيما وراء الباب - خالياً إلا من جندي استند إلى أحد

الأعمدة يحملق في الظلام وقد تناثرت فيه أضواء الكلوبات والقوارب التي راحت تبحث عن المعلم محمد.

والأفكار تدور في كل الرؤوس كأنها نسخ مكررة للحيرة والخوف والقلق التي سيطرت على النفوس والعقول جميعًا.

لم يعد المعلم محمد البلطي منذ خرج في الصباح وحده!

ظنته زوجته في المقهى كعادته كل ليلة، وظنه حنفي في البيت وكان قد غادر الزقاق قبل العصر ليزور حمودة، وظن الرجال أن العجوز قد عاد قبلهم وسبقهم إلى الحلقة وباع رزقه... ومضت بعد الغروب ساعة، وساعتان، وأذنت العشاء في زاوية جميع، وفي جامع المرسي أبو العباس، وازداد هبوب الريح، وشعر حنفي بالملل والضيق يتسربان إلى نفسه ويسدان عليه كل منفذ للسلوى، فغادر المقهى وهو حائر بين طريقين... إما أن يذهب إلى الصحاب، أو يذهب إلى الزقاق... جلسة الصحاب في البوطة تفرج الهم وتجعل للألم نخسًا لذيذًا، قرعة أو قرعتان في بوطة شلوفة، وخدر يحمله على جناحيه إلى أرض أحلام بعيدة المنال... لكن أحلامه - على شدة تعلقه بها - بدت له في تلك الليلة شاحبة لزجة تبعث في نفسه النفور والتقرز!... فاستسلم لضيقه واتجه إلى الزقاق.

ما كاد يخطو في الزقاق، حتى طالعه صوت أم محمود تسأله عن عمه، فتوقف وقد فاجأه الأمر... سنوات طويلة مضت، إذا أراد فيها أحد المعلم محمد البلطي بعد الغروب، فهو في أحد مكانين، المقهى أو الزقاق... وكان حنفي في المقهى منذ دقائق، وليس المعلم محمد في الزقاق!

«هو ما رجعتش يا خالتي؟!».

«لا والنبي يا ابني من صباحة ربنا».

اندفعت الرياح من أعلى الزقاق في طوفان لف حنفي وأسلمه
لقشعريرة ارتجف لها ارتجافاً شديداً، لكنه سرعان ما استدار عائداً وقد
استبد به القلق.

وعصف القلق بالبقية الباقية من هدوئه، وراح يتمتم محدثاً نفسه
وهو يسب الحياة ويلعنها... كان مرض حمودة، وما سمعه من السيد
أفندي، قد أمداه بحصيلة من التشاؤم تكفيه عاماً بطوله، عندما عاد إلى
الرصيف في الضحى وقالوا له: إن عمه قد خرج وحده، انقبض قلبه
وعزف عن اللحاق به، وراح طول يومه يتسكع ملولاً بين المقهى
والرصيف، حتى ارتفعت الشمس إلى منتصف السماء فذهب إلى
البيت وتناول غداءه، ثم عاد إلى حمودة ليجده غائبا عن الوعي، تجمع
حوله الأطباء والممرضات ومنعوه من الاقتراب منه... ولم يجد
السيد أفندي.

إلى متى تظل الكآبة هي سحابة حياته؟... أين ذهب عمه الآن؟...
أ يكون قد حدث له شيء؟!

ولاحت لحنفي أنوار المقهى.

دقائق قليلة هي التي مضت حتى تجمع الرجال فوق الرصيف، وراحوا
يحلون قواربهم، ويقفزون فيها، ويتسلقون صواربها العالية... وغمر
المكان بعد لحظات ضوء عشرات الكلوبات والمصابيح التي حملوها من
الخارج... فما كاد حنفي يسأل الرجال عن عمه، حتى قال رجل:

«أنى شفته في المغربية عند باب البوغاز!!».

«باب البوغاز يا جدع؟!».

«باب البوغاز وحياة النبي، حتى آنى سلمت عليه ماردش السلام!».

ويحثوا عن القارب ولم يجدوه!

وكان في هذا الكفاية... كلمات قليلة تبودلت، تحرك بعدها كل شيء في سرعة ونظام!

ووصل الخبر إلى زقاق السيد البلطي... وقبل أن يصل إلى الزقاق تسرب مع الهواء إلى كل بيت في الحي!

كان المعلم محمد قد استكان في مكانه منذ أن وجد له مأماً بين الصخور... استطالت ذراعاه حتى استطاع التشبث بقمة صخرة، ويحث فوجد لقدمه مكاناً عالياً صعد إليه مبتعداً عن سطح المياه المتلاعب، ثم قبع منكماً على نفسه...

ومرت به الدقائق الأولى كأنها أعوام طويلة، وهبط الظلام على الدنيا فكساها بردائه الأسود... ودار الفئار بضوئه الوهاج ماداً شريطه الفضى إلى عشرات الأميال كذراع مضيئة تمزق ستر الظلام التي دفنت البحر في أغوارها المخيفة، وعن بعد، كانت أنوار المدينة تتلألأ متناثرة كحبات من لؤلؤ وضاء... والأمواج ترتفع حيناً وتضرب الصخر بقممها فيصل رذاذها إلى قدمي العجوز، فتسري في جسده رعدة، وتنطلق من صدره سعلة، بينما انعقدت ذراعاه فوق صدره، وجمد... وظلت عيناه ترقبان كل شيء.

ومرت ساعة، أحس بعدها كأنه بلا ساقين، ثم تسرب إليه خدر مؤلم جمد كل أعضائه، حتى شفثيه، خيل إليه أنهما تضخمتا وأصبحتا في حجم لا يسمح لهما بالانطباق... وكست عيناه طبقة ندية من الضباب، وضعفت خفقات قلبه وتباعدت، وارتعد فكّه... وران من حوله الصمت، ومع الصمت تسربت إلى نفسه وحشة ويأس.. زحزحة قدم فوق أحجار زلقة قد تؤدي به إلى الأعماق، ركود يصيب نفسه، وهمود يحط على أحاسيسه، فلا خوف ولا جزع، لا برودة ولا دفء... أحس كأنه معلق في الفضاء، لا حول ولا طول، نسي القارب، ونسي محمود، ونسي حنفي والرجال... الطبيعة من حوله في موات، الحياة بعيدة بعيدة، وراء ضباب كأنها حلم، فليمت إذن في هدوء!



وسواء طال به الزمن أم قصر، فقد مضى... ودبت الحياة في الدنيا من جديد، وغمرت أضواء الكلوبات سطح المياه. وترامت إليه أصوات الرجال ونداءاتهم، فظل ساكنًا كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يعيش... واقتربت القوارب أكثر، وتالت الأصوات منادية، وتساءل العجوز عن سبب سكونه وسكيتته... أيكون قد مات حقًا؟!... القوارب تسبح في كل مكان، بعضها يشرّق، والبعض يغرب، وأخرى تطير إليه، والصيحات تعلو وتعلو فلا تهز في جسده شعرة... وانبعث من قلب الظلام المضيء صوت ارتجف له قلبه، ووقف له شعر رأسه...

«يا بابا... يا بابا».

محمود!

نشط عقله كأنما نخسته عصا سحرية، فانطلق يفكر في سرعة... هل
يستطيع أن يجيب؟!

«يااااا...».

هل سيجد صوته؟!

«يا بوياء.. يا بابا».

«محمو... د... محمود... هوووه... محموووود!».

أهو الذي ينادي أم إنسان آخر سواه؟... تحركت ذراعاها دون أن
يدري، وحملته ساقاه المتجمدتان رغم ارتجافهما، ورعدة تمس قلبه
فتندفع منه الدماء راكضة كاللهب في عروقه...

«يا بابا... يا بابا محمد!».

«أيوه... أنا هنا... هوووه يا ولاد!».

«يا معلم محمد... يا بلطي!».

«أيوه يا برعي... يا حاج... أنا هناااا».

وتجمعت الأنوار، وبدت له أشباح القلاع وهي تصفق في الهواء
كأنها طيور نورس خرافية... وطفح الدمع من عينيه، وراح يتساءل وهو
يرتجف... هل قدرت له الحياة مرة أخرى؟... أي يوم هذا الذي
مضى؟!... الرزق جافاه، والقارب مقلوب، والشبكة ممزقة، والموت
كان قريباً، والفرح يغمره بالرغم من كل هذا؛ فالحياة حلوة، الصخور
ليست ملساء كما ظن، هناك أماكن خشنة اعتمد عليها كفاه الآن، ساقاه
تخشبتا، الأنوار تتجمع وتتلاصق لتصنع كتلة من الضياء فكأن الدنيا في
فرح، صوته ينطلق راعداً، وصوت يصرخ:

«أبويا آهه... جاي لك يابا... جاي لك!».

إنه محمود!

ما أحلى صوت ولده، جسده يهوي إلى المياه، وجسد آخر، لا بد أنه
حنفي... لا بد!

«خليك مكانك يابا، جايين لك يا بويا!!».

«بوجي يا بنداري».

«حاسب يا احمد وولع النار».

«شد البارومة يا سيدهم، لم القلع يا جدع».

«حضرت البطاطين يا رومة؟... جهز نفسك أول ما يطلع!».

أذرع قوية تضرب المياه في مقدره، عشرات الرجال خرجوا من
أجله، ومصابيح كثيرة، عشرة، عشرون، ثلاثون... أكثر، أكثر بكثير...
وضباب يحجب عنه الرؤية، دموع تسح من عينيه... وصوت محمود
يناديه فيرد عليه مرتجفاً:

«أنا هنا يا ابني... أنا بخير!».

ورجل يصيح من بعيد... وجدوا القارب!

وصل حنفي إلى الصخور... وجهه يطل عليه من أسفل، وكأنه
السيد البلطي يخرج إليه من أعماق المياه لينقذه، ومحمود
بجواره، أذرعهما مفتولة تحمله في قوة ويسر، والليل أصبح
نهاراً.

«سلامتك يابا.. سلامتك!».

«أنا بخير يا واد، جمد قلبك... القارب انقلب بيه، الشبكة راحت،
كان فيها كثير، كانت واسقة طن يا واد، خدتني المركب غدر!».
«فداك يا بابا... فداك».

قالاها - حنفي ومحمود - في نفس واحد، قلبه يضطرب في صدره
كحمامة مذبوحة... برعي يمد له ذراعه من القارب، عشرات الأصوات
تسلّم وتنادي وتساله عن حاله...

«آني بخير يا ولاد... الله يسلمكم... بتقول إيه يا سيدهم؟... البرد
جامد؟... لا أبدا... آني كنت مولع نار يا بن القرموط وبنشوي سمك!».
ضحكات؟... ما أحلى الضحكات، يخلعون عنه ملابسه، ويدلكون
له ساقيه وقدميه وجسده، يدثرونه بالبطاطين ويقربونه من النار، محمود
يقترّب منه وينحني أمامه، تقطر المياه من وجهه وشعره وجسده،
ويبيكي!!

«بتعيط ليه يا واد... إنت صغير؟!».

«إنت بخير يا بابا؟».

«نحمدوه على كل حاجة، بخير... بخير والحمد لله!».

ما أحلى الدموع عندما تدفع عينا طال الصقيع من حولها، شفتا
ولده على ظهر كفه تدفعان الحياة دفعا إلى قلبه... شاي؟... سيجارة؟..
وفرحة طاغية، تصفيق وغناء، وطبل في كل قارب، وأشرعة ممتلئة
بالريح، وغناء الرجال يتصاعد إلى عنان السماء... «سألما يا سألما»..
كيف حال حمودة؟... في المستشفى؟، وامك يا محمود؟ وامك يا
حنفي؟... وعائشة؟... والعيال كلهم؟...

وكأنه غاب مئات السنين، لم يكن سفرًا طويلًا، كانت ساعات مرت
كالدهور، احك عما كان في الشبكة من رزق آخر مرة، ولكن... قبل أن
تحكي مل برأسك قليلًا، وأرشف من الشاي الساخن، واجذب من
السيجارة نفسًا، وتمدد، واسعل... فلا بد أنك مريض... اسعل يا عجوز
إنها سبعون عامًا...

الفصل الثامن

قبع محمود في منتصف القارب بعد أن ارتدى ملابسه، وحمل بين كفيه كوب الشاي الذي قدموه له، وأخذ يرشف منه على مهل، وعيناه لا تفارقان وجه أبيه.

من كان يصدق هذا؟... كيف كان يعيش أيامه الماضية؟... هل يحب أباه كل هذا الحب؟... بدت له الحياة في لحظة بوجه جديد وغريب أخذ يحمل في كالمذهول... كان يرتعد وهو يرشف الشاي غارقاً في الضجة التي أقامها الرجال من حوله، في الصياح والنكات والأغاني التي أخذت تسبح في سماء الميناء في ذلك الليل البهيم... الأضواء المتناثرة وأشباح القوارب والرجال، كان هذا يهزه هزاً عنيفاً ويبعث في جسده قشعريرة ارتعدت لها أوصاله... لكنه حزين، وحزنه عميق يكاد يسحق روحه.

في لحظة، خيل إليه أن أباه قد مات، كانت لحظة تساوي العمر كله، صرخ فيه أحدهم وهو جالس وسط الزقاق غارق فيما يغرق فيه كل ليلة: «أبوك يا محمود!»... عالم غريب مبهج يجذب به إليه فينساق دون وعي وراء ليل يقوده من أعماقه... ماذا يريد؟... لا يدري. يروح ويجيء ويقول الشعر ويغني المواويل ويطرب الصحاب ويعيش الحياة بكل قلبه. يقولون عنه في الزقاق إنه عرييد وهو قول لا يهمه، فهو ليس

في واقع الأمر عربيدًا ولا حشاشًا، كل ما هنالك أنه حزين... حزنه غريب لا يدري كنهه ولا مبعثه ولا سببه، شيء كالضيء الباهر يلوح له في ظلام الحياة فينجذب إليه مقهورًا مغلوبًا على أمره، الصيد مهنة شريفة والصيداؤون أعظم الناس وأكرمهم وأحبهم لقلبه، لكنه ليس مثلهم. وأسفاه الشعر الذي يقوله لا يدري متى تعلمه ولا كيف نطق به. وتغلي مراجل في أعماقه. شجار والده يحز في نفسه كما تحز السكين رقبة شاة تذبح، يشعر دائمًا أن أباه وراءه، حائط قوي يستند إليه إذا أصابه الدوار، وجهه العريض وأنفه الكبير وصوته الأجلج أحلى ما رأى وما سمع في حياته، حبه لأبيه لم يكن يومًا موضع نقاش بينه وبين نفسه... لكنه الليلة يحسه بشكل آخر، أعمق وأشد وأعنف وكأنه غرام!!... أيموت هذا الرجل؟... أيفنى ذلك الوجه الهائل الذي يملأ حياته؟... أتهدم تلك الحيوية التي لم تؤثر فيها سبعون عامًا؟... أيزهد كل هذا ويبقى وحيدًا، بلا أب، وسط هذه الدنيا الغريبة عليه؟...

عندما أخبره زكريا أبو دراع بما حدث ظن أنه يهون الأمر عليه حتى لا تأخذه الصدمة، كان في بوظة شلوفة عندما اندفع زكريا من الباب صارخًا:

«أبوك يا محمود!».

«خير... ما له؟!».

قالها في جزع وكل جسده يتقلص ويضطرب.

«خرج من الصبح ومش لاقينه!».

جمد كما جمد الصباح وران السكون للحظات، واعتصرت نفسه
آلام رهيبية، ثم خرج صوته مبوحًا:

«قول يا زكريا قول... أبويا جرى له حاجة؟!».

«أبدًا والله، بس لسه ما رجعتش!».

«الريح جامد والليل متأخر، قول...».

«يا جدع انت صغير، والله ما نعرف».

كان مخدرًا من هول الخوف عندما همس مذهولًا:

«أبويا مات؟!».

وعلت الصيحات من حوله:

«يا شيخ وحد الله، فال الله ولا فالك، عيب يا جدع كده!».

واندفع إلى الخارج كأنه يهرب من سياط تلهب كيانه، دموع تصعد
إلى عينيه فيكتمها في صدره لتفور وتغلي وتعذبه أشد العذاب... ما
أقصى أن يموت الأب ويتركنا وحدنا ولو كنا رجالًا بالغين... اندفع
كالمجنون وعبر الشوارع والحواري ولحق بالرجال وقفز إلى قارب
وانطلق يبحث بعينين لا تريان!... الرياح تلذع وجهه الملهب بالدماء،
والظلام كثيف، والدنيا فارغة، عدم، ليس بها أحد... أكان والده كل
أحد بالنسبة إليه؟... لماذا نموت؟!... لماذا؟...

لحظات مرت عليه كان يقاوم فيها دمه الغزير، حتى خيل إليه أن
رقبته تتفخ وتوشك على الانفجار... وتوسط القارب الميناء،
ونادى رجل:

«يا با محمد...».

فتبعه محمود صائحًا بكل ما في حلقه من قوة:

«ياااا...».

وفوجئ بنفسه يصرخ باسم أبيه، كان النداء أبعد عما نطق به، كان نواحا اندفع بعده الدمع فغطى وجنتيه وغمرهما، واقترب منه حنفي ووضع يده على كتفه وهمس بصوت ثاقب هادئ:

«جری إيه يا محمود، إحنا عيال؟!».

حنفي لا يتحدث إلا باسم الجميع، لم يسمعه مرة يقول فيها «أنا»... طالما تساءل عن سبب الاختلاف بينهما، لقد أحب حنفي وأحب بكل قلبه الجلوس معه والتحدث إليه... لكنه كان كالآخرين لا يفهمه... وشيخ الآخرين أبوه!!...

شيخهم وكبيرهم وزعيمهم!... ليكن، فيكفيه من الدنيا أنه عاد إلى الحياة... عدت يا أبي إلى الحياة وسأخضع لإرادتك، سأخرج إلى الصيد في الصباح وأعود به إلى الحلقة وأبيع وأشتري وأهجر الشعر والمواخير والغرز... لم أذهب إليها يا أبي لأنني حشاش أو سكير، بل لأن الحشاشين والسكراري هم الذين يفهموني ويقبلون على بضاعتي، والله كنت صادقًا كلما عدت إليك تائبًا... لم أخدعك أبدًا، نفسي ممزقة وروحي تائهة، أبحث عن نفسي كالضال في أعماق محيط بلا قاع... من أنا يا أبي؟!... لو أدخلتني المدرسة لتعلمت وبحث وعرفت من أنا؟!... فكري يخيفني يا أبي، أحب اللذة، ولذتي القصوى أن أقول الشعر، لكنني سأطلقه من أجل عينيك... سأطلق الشعر وأتزوج الصيد، سأقر بنفسي عينيك، وسأكون طوع بنانك... حزني شديد شديد يعتصر

قلبي، تقولون عني إني طفل كبير، فلماذا لم أكن رجلاً مثل حنفي؟... لماذا؟... أنا لا أغار منه ولكنني أحسده... حنفي يتصرف كرجل في السبعين، وأنا أعبت كطفل في العاشرة... عندما حملتك وعدت بك إلى القارب وجلست أمامك، سألتني عن سبب بكائي، ونهرتني يا أبي... لكنني أستعذب البكاء الآن... خيل إليّ أنني أذيتك، لن أعصي لك أمراً، صدقني فهذه آخر مرة، لن أذهب هنا أو هناك، لن أغادر الزقاق إلا للرصيف ولن أترك الرصيف إلا للحلقة!... تفرحني ضحكك وتهز قلبي بالسعادة... تماماً كما أهتز يوم رأيت كايداهم.



أنت لا تعرف كايداهم يا أبي، لكنها تعيش في دمي... يحق لي أن أفكر فيها فأبي حي ونحن في فرح... مومس هي، أعلم ذلك، لكنها قطعة من قلبي المحترق بحبها... لا طاقة لي بمقاومة ما أحسه نحوها... تحسدوني يا رجال على حبها وأنا أكثرهم تعاسة، ذقت أحضانكم الواحد بعد الآخر، وتعرت أمامكم فرداً فرداً، ورقصت لكم رقصة الحياة عشرات المرات، لماذا تسمونها رقصة الفراش يا رجال؟!... والله إنكم لغافلون عما في الدنيا من حقائق، إنها مثلي يا رجال، قالت لي ذلك في تلك الليلة... عندما أغلق علينا الباب كنت سكران، نظرت في عينيها وانزلت نظراتي على جيدها وملست على صدرها فارتجف قلبي، ضحكت مني ليلتها وسألتني إن كنت رجلاً!!... لم أرد عليها فلساني كان مشلولاً، جلست بجواري أنا الذي كنت أذوب للمس عيني لجسدها، واحتضنتني وسألتني لماذا أقول الشعر، وكيف أقوله، فسألتها: لماذا ترقصين في المواخير والحانات؟ فضحكت مني وهي

تبتعد ملقية بجسدها على الفراش بجواري، قالت لي ما لا تعرفونه
يا رجال:

«أنا كده، اتخلقت كده، أحب الرقص والرجالة!».

صعقتني كلماتها فارتبكت، لكنها عادت فنهضت قائمة على
كوعها ووضعت رأسها بين كفيها وسلطت عليّ عينيها، كانت
الحجرة دافئة، والفراش ساخناً، وثوبها منحسراً عن فخذه، وقالت
بصوت مبحوح:

«البت اللي تقول لك إنها عاوزة تاكل عيش كدابة، واللي تقول لك
إنها بتجري على عيال كدابة... اللي تقول لك ايش بالذي كدابة!».

ثم اعتدلت في الفراش وتهدل شعرها، وارتفع صدرها في انفعال
وهبط، وانحسر الثوب عن كتفيها، وصوبت إليّ نظراتها وقالت:

«إحنا كده يا محمود، صنف مدعى عليه، هربت من أبويا ومراته
واشتغلت خدامة وغسالة وعرفت رجالة عدد شعر راسك، فيهم
الوحش وفيهم الأوحش، فيهم الوسخ وفيهم الأكثر منه، وكلهم
أصناف تدوخ الرأس».

«وأنا... من أي صنف؟!».

«انت غلبان يا محمود زي حالاتي، حنفي ابن عمك بيعجي يشرب
له قرعتين ويضحك ضحكة ويقول عن إذنكم، هويته شوية أيام،
ولو طلب مني الفرق كنت بقيت خدامته، لكن حنفي مش زيك وانت
مش زيه!».

«مين أحسن؟!».

قلتها يا رجال بلا وعي ودون قصد، نظرت إليّ كأيدهم وكأنها تريد
أن تعريني وتعبث بما في أعماقي، ثم ضحكت وهي تتمرغ في الفراش
في دلال وقالت:

«انت بتغير منه؟!».

ولم أرد عليها، أحسست كأنها تصفعني، لكنها عادت فقالت في
صوت حنون... كم كان جميلًا صوتها يا رجال:

«اللي زيك ما يعرفش الغيرة، قلبك زي اللبن الحليب، لكن
غصب عنك، أنا عارفة انك معذور، عارفة كده كويس، أنا لي
أخت متجوزة واحد موظف، موظف في البلدية يا محمود، جوزها
كان حايطلقها بعد أنا ما طفشت، كانت زي حنفي تمام، الدنيا في
عينها بيت وراجل ولقمة عيش، والدنيا في عيني رقص وغنا وألف
راجل وكاس!».

ليتها بكت على كتفي، ساحت دموعها فوق خدها ولم أقبلها،
خفت على وجتها من شفتي الباردتين، ارتجفت يومها كأني مصاب
بالحمى، ونامت في حضني حتى الصباح، وحكم عليّ وعليها ألا نذوق
طعم الحب.

«انت زي اخويا يا محمود، عمرك ما خليتني أحس انك راجل زي
بقية الرجالة، كنت دائمًا حنين وقريب مني، زي أخويا، أبويا!».

ولم تكن تدري أن قلبي يحترق!

وفي الصباح كنت أبتسم لها، وكان قلبي يقطر دمًا تصرخ قطراته في
عروقي: «أحبك يا كأيدهم... أحبك»... لكنني لم أقبلها يا رجال،

فلست في نظرها رجلاً كالرجال ... مضيت عنها وكأنني كنت في حلم،
وبكيت... بكيت وحدي كثيراً...

وفي المساء جلست وسطكم وأنتم تترنحون وتضحكون، وتلاعبت
أصابع زين على ثقب مزماره، وتلوى جسد كايداهم في رقصة
أذهلتكم، لكنني كنت أراها كما لا ترونها، رأيته ترقص من ألم دفين
يبعث في النفس والجسد أعظم لذة، نفس الألم رقص له لساني فأطلق
شعراً غنيته لكم:

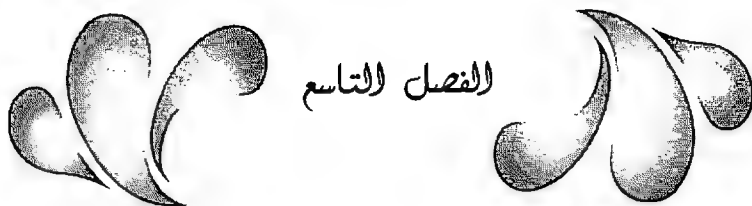
يا عيني دمعك ضناني من البكا والنوح

ما انت اللي كنت السبب، ليه نظرتك بتروح

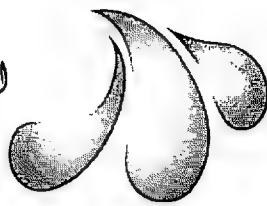
للي عشقته وخلي القلب بات مجروح

على مهلك يا أبي، هذا هو الرصيف، الحمد لله على سلامتك، أمي
تزغرد والنساء يا أبي، يدك لأقبلها مرة أخرى، سأطيع بعد اليوم كل
رغباتك، سأطلق حياتي رغماً عني فلا أملك سوى الأسف...

تري... هل ستذكرني كايداهم؟!



الفصل التاسع



كان المعلم محمد يقطن آخر منزل على اليسار عند طرف الزقاق المسدود، وكان بيته - كبقية بيوت الزقاق - قديمًا، ذا فناء واسع يمتد في رحابة وراء المدخل مباشرة، تقوم على جانبيه حجرات ضيقة، تفصل بينها أبواب هي أقرب للمستائر الرقيقة، لا تكاد تخفي شيئًا أو تحجب صوتًا لكثرة ما بها من ثقب وشقوق، أو تفصل بينها حيطان خربة متآكلة سرت رطوبة الأرض في أسفلها، ونقعت على سطحها في بقع كثيفة تصدم العين وتصنع إطارًا مناسبًا للحجرة ذات الأرض العارية من البلاط أو الخشب... وإذا وجدت حصيرة تغطي سواد الأرض ولزوجتها، فهي ممزقة متآكلة الأطراف مليئة بالثقوب... وفي ركن الفناء الأيمن تقوم دورة المياه والحمام، أما المطبخ فليس له وجود في الزقاق كله، ذلك أن من عادة نساء البلطية أن يطهين الطعام أمام أبواب الحجرات... وفي أوقات الغروب، تخرج كل امرأة إلى عتبة حجرتها، أمامها وعاء فوق موقد تختلط ضجته بضجيج المواقد الأخرى، بأصوات النسوة في ثرثرتهن... بصراخ الأطفال اللاعبين في الزقاق، أو بكاء آخرين يحبون فوق الأرض ويتمرغون في التراب... وتنتشر - في ذلك الوقت من اليوم - رائحة الطعام المطبوخ، وتمتلئ الأفنية بالبخار الدافئ.

وفي الصدر - أمام المدخل مباشرة - يقوم سلم ضيق مظلم حالك الظلام في أشد أوقات النهار نورًا، يخیل إلى الصاعد علیه - إن كان غریبًا - أنه سرداب يؤدي إلى مقبرة معتمة، ویتعرج السلم یسارًا في دورتین، ویصل إلى الطابق الأول الذي يبدو دائمًا - في كل البیوت - أكثر اتساعًا من سابقه، یلبس ثوب القدم رغم المحاولات العديدة التي تبذل في تجديده كدهان حوائطه أو رصف أرضيته بالبلاط.

وقد مرت سبع لیال لم یسارح فیها المعلم محمد فراش المرض، كان قد أصیب بنزلة شعبية حادة، لم یستطع فن السید أفندی الباشترجي ولا مرانه أن یقفا أمامها، فاستدعى طیبًا من المستشفى زاعمًا له أن المعلم محمد زوج خالته... وقد کابر السید أفندی في البداية أمام نفسه، وبذل أقصى ما استطاع من جهد، ظنًا منه أن حضور الطیب إلى الزقاق أمر سیکلفه من کرامته ما لا یطیق، لكنه أمام تداعي صحة العجز وتدهورها، لم یجد مفرًا من استدعاء الطیب... وعلى عکس ما كان یتظر، رفع هذا من قدره أمام أهل الزقاق، خاصة النساء اللواتي أخذن یتهاوسن - على مسمع منه - عن مرکزہ في المستشفى، وکلمته التي لا یستطیع طیب أن یردها... وكان لا بد أن یثلج هذا الثناء صدره، ویزید من زهوه وتقديره لنفسه، فکثرت على لسانه أسماء الأدوية الغامضة، وقصص بطولاته وعبقريته وإنقاذه لأرواح الکثیرین... وإن كان هذا کلفه - يوم أن جاء الطیب - جنیهاً کاملاً اشترى به بعض الأدوية، مما ترك في نفسه ضیقًا شديداً، إلا أن ضيقه هذا سرعان ما تبخر وزال مع ما جد من أحداث قلبت حياته الساكنة رأسًا على عقب! كان حمودة قد غادر المستشفى بعد أن مکث فیها یومین... وقد

أضافت عودة حمودة للزقاق لمسئوليات السيد أفندي مسئوليات جديدة... فنشط نشاطاً ملحوظاً، ولم يتوان عن زيارة الزقاق كلما وجد لديه وقتاً يسمح له بالذهاب، وكانت زيارته المسائية تمتد إلى ما بعد منتصف الليل، حيث يلتف الرجال حول فراش المعلم محمد، تتوسطهم مجمرة تتصاعد منها ألسنة حامية من لهب يبعث الدفء في الأجساد... وتحلو الأحاديث وتكثر الحكايات وتدور أكواب الشاي مرات ومرات، ويعبئ جو الحجرة دخان الجوزة التي لا تكف عن الكركرة، يلف الجميع في غلالة يرون الحياة من خلالها ذات لون بهيج، وطعم ألد مذاقاً.

وبقدر حب السيد أفندي لهذه السهرات وفرحته بها، لما كان يوليه إياه الرجال من عناية خاصة فرضتها شهامته وتفانيه، إلا أن غبطته كانت أشد لما أصاب أم حنفي في تلك الأيام من ضعف شديد ألزمها الفراش، وما كان يتيح له مرضها من محادثة عائشة حديثاً ملتويًا تحمل كلماته معاني كثيرة، بذل جهداً كبيراً حتى استطاع أن يفهمها منه المعنى الذي يقصده.

والغريب... الغريب الذي جعل قلبه يرقص فرحاً، أن عائشة استجابت لغزله!... وكانت استجابتها ملتفة ملتوية تحمل - هي الأخرى - أكثر من معنى، مما دفعه لأن يأخذ دائماً جانب الحذر الشديد حتى لا يحدث ما يمكن أن يعكر صفو سعادته.



كان السيد أفندي أشد الناس سعادة وهو يدلف - في الليلة السابعة - إلى بيت المعلم محمد... فقطع الفناء في خطوتين - وكان الفناء

خاليًا - ووصلت أصوات الرجال من الدور الأعلى إلى أذنيه عندما امتدت قدمه إلى السلم المظلم يتحسس درجاته، وصعد درجة، ودرجتين، ودار مع استدارة السلم عندما اخترقت أذنيه هفهة ثوب، فتنبهت حواسه كلها فجأة، ثم توترت عندما تلمست خياشيمه تلك الرائحة التي لا يخطئها وسط آلاف الناس، فهمس بصوت مضطرب: «مين؟!».

«مساء الخير يا سي السيد أفندي».

«عيشة؟!».

صعد درجة أخرى بجسارة تعودها في مثل هذه المواقف، وإن كان الوضع هنا يختلف، وامتدت يسراه فوق سياج السلم زاحفة، فاصطدمت بيدها التي فرت مولية واختفت عن حواسه في الظلام، فعالج الأمر بسرعة قائلاً وقد تصلبت كل أعضائه: «إزاي الحال دلوقت يا عيشة؟!».

«نحمدوه... أحسن كثير».

وساد صمت عميق، تخللته أصوات أنفاسهما المتلاحقة، وأصوات الرجال الآتية من الداخل، لكن صوت عائشة تصاعد فجأة وعلى غير انتظار خفيصًا هامسًا:

«بس انت غبت عنا كثير يا سي السيد أفندي!».

رقص قلبه رقصًا طروبًا، فلم يكن قد غاب عن الزقاق، سوى صباح ذلك اليوم، وأحس بغريزته أن وراء قولها ما وراءه، فقال مضيقًا عليها الخناق بحذق الخبير:

«مانا كنت هنا امبارح بالليل يا بت الناس!!».

«والنهاردة الصبح؟!».

لم يعد أمامه شك... على أن الشك وإن كان في حد ذاته مبعث لذة خفية، إلا أن ذروة اللذة تأتي في لحظة اليقين الباهرة... لذلك، سرعان ما انقض علىها بالسؤال متعجلاً لتلك اللحظة، وكأنه يتتزع منها قلبها:

«يعني وحشتك؟!».

«وحشت الزقاق كله!».

عادت تروغ منه وتفر... ولكن، أيقنع بهذا القدر ويترك للظروف أمر اليقين؟!... طالما حاورهن في المستشفى وطاردهن... يرغن في سراديب خجل يلهب المشاعر، ويشعل في الحواس ناراً هادئة تبين في ظلمة السراديب كضوء ألف شمعة... وفي مثل هذا الظلام المتأجج يحلو الكلام والنجوى... ترى هل هي ملتصقة بالحائط أو تقف وسط السلم?... يا له من مجنون عرييد!!

«يعني انت زي غيرك يا عيوشة؟!».

«يا سلام عليك يا سي السيد أفندي... عن إذنك بقى!».

ولا يدري كيف أفلتت من جواره دون أن تمسه في ذلك المكان الضيق... النساء كالقطط، يرين - حتى في الظلام - الرغبات والنفوس، عوده إحساسهن على حدته، وإن لم يستطع مجاراته أو اللحاق به... وكانت عيناه تتبعان شبحها الهارب وهي تغادر البيت، واستطاع أن يلمح على وجهها - عندما انفلتت إلى الزقاق - شبح ابتسامة، فحقق قلبه.

لو أن أحداً قال للسيد أفندي أن ذلك ممكن أن يحدث، لما صدق... ولأقسم بأغلظ ما يؤمن من أيمان - على ندرتها - أن هذا أمر لا يمكن أن يحدث... ولكن، ما إن تنقض علينا تلك اللحظة الخارقة النادرة الوجود، حتى نفقد فيها قدرتنا على تكييف حياتنا حسب منطق التقاليد، فنشعر وقتها وكأننا كنا سجناء غلالة رقيقة لا تكاد تحجب من نفوسنا شيئاً، يخيل إلى المرء في لحظة كهذه أنه أعمى وأصم وأبكم... تركيز النظر في إنسان للحظة كهذه، كاف لأن يعريه من ثيابه!!

صعد السيد أفندي الدرجات الباقية في خطى ثقيلة ووجه ملتهب، وفي رأسه دوامة فائرة، وإن كان إحساسه بلذة اللحظات التي ولت ما زال يسيطر عليه... إلا أن ثمة إحساساً آخر بالمسؤولية قد وضعته فيه وحدته على السلم من ناحية، وأصوات الرجال التي كانت تقترب كلما صعد درجة من ناحية أخرى.

هب أن أحداً رآهما؟... حقاً أنه لم يصنع شيئاً منافياً للأدب أو التقاليد، ولم يقل شيئاً غير مألوف سوى كلمة التدليل «عيوشة!»... ولكن، هب أن إحدى نساء الزقاق - وما أكثرهن - كانت جالسة في أحد الأركان المظلمة، وهب أنها سمعت؟!

كيف تجرأ، وكيف أقدم، وكيف فقد وعيه؟... وكيف وكيف وكيف؟!



كان عليه أن يعود في تلك الليلة إلى المستشفى ليبيت فيها حتى الصباح... فأمدّه هذا بحجة لعدم البقاء طويلاً - وقد كان يستطيع - فما إن حقن المعلم محمد وانتهى من عمله، حتى أحس برغبة شديدة في

مغادرة المكان، بل في الفرار... أحس كأن عيون الجميع تلهبه وتحيطه بسياج من الشك، كان مؤمناً في أعماقه أنه أخطأ، فالتقاليد عند آل البلطي أمر له قداسته... الحب شيء محرم، علاقة الرجل بالمرأة لا تذكرها الألسن... أحس بثورة طاغية لم يعهد لها في نفسه، ما الذي يربطه بهؤلاء القوم، هل يرفضون طلبه لو تقدم للزواج منها؟... سيحيرهم الأمر، فهم لا يزوجون بناتهم من أغراب حتى ولو كانوا صيادين، وهو صديق حقاً، لكنه غريب، وليس صياداً!... هل ما يقال عنهم صحيح؟... أهنأك سر يتوارثونه عن السيد البلطي؟... لشد ما يرتعب من نظراتهم.

«عن إذنكم يا رجاله!».

ولم تصل إلى أذنيه كلماتهم وإلحاحهم، كان غائباً في لجة من الوجل والضيق والنشوة والخوف والرعدة... جسده يصطلي بنار طالما أحرقتة، لكن لسعها هذه المرة أقوى آلاف المرات... هل تحبه عائشة؟... الزقاق خال والأبواب مغلقة وأصوات الرجال تصل إليه من أعلى... فماذا لو عرج ليسأل عن أم حنفي ويلقي على عائشة نظرة؟... ماذا دهاه؟... هل أصيب بالجنون؟... يده تطرق الباب، وصوتها يصل إليه سائلاً عن الطارق، وقلبه يدق بعنف... ووجنتاه التهبتا بدماء تكاد تغلي.

«أهلاً وسهلاً سي السيد أفندي!».

ما كاد ينطق حرفاً حتى جاءه صوت أم حنفي من الداخل يسأل عن القادم... وردت عليها عائشة وهي تفسح له الطريق مرحبة، وانتصب في ضوء المصباح جسد زوبة وهي تتطلع إليه بعينيها الجسورتين... تحيته لزوبة سريعة مقتضبة، قبل يد أم حنفي بشفتين مرتجفتين.

«قلت نفوت نسأل عنك!». «

«سألت عليك العافية يا ضنايا... آه ياني».

ابتسمت العجوز في رضاء شديد، واعتدلت في جلستها وهي تأمر عائشة بإعداد الشاي.

«لا والله ما في لزوم أبداً، أصل أنا عندي وردية ليل، إنتي بتاخدي الدوا يا خالتي؟!». «

ليتحدث في اختصار وليمض في طريقه فلن يستطيع شيئاً حيال زوبة التي دخلت الحجرة وجلست محملقة في وجهه... شعر بعيني عائشة فوق صدغه، ولكنه لم يستطع أن يرفع إليها بصره... كلماته فاترة غائبة، وكلماتهم حارة، ورغم هذا يشعر بضيق يكاد يخنقه، فليمض إذن فلن تتاح له فرصة.

«فوتكم بعافية يا خالتي، حاندي بكرة الصبح إن أذن الله نجيب لك الدوا الثاني».

صافح العجوز وصافح زوبة، ثم استدار نحو عائشة وانقض عليها بعينين ملتهبتيين برغبة عريضة، ومد لها كفّاً جسوراً ثم أطبق على كفها فتركت له يدها وهي ترخي أهدابها حتى لتكاد تغمض عينيها، قطع الفناء في خطوتين، واستدار نحو الباب ثم توقف وفرد لها كفه مرة أخرى فسلمته يدها بلا تردد، وانصب على صدرها بصيص ضوء، ورأى الصدر منفعلاً مضطرباً، ورقص قلبه... ولا يدري كيف ترك يدها... ولا كيف مضى عنها!

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق عندما تسلم السيد أفندي مائة وأربعين سريراً، يرقد عليها مائة وأربعون مريضاً... وانتحى بعدها في ركن العنبر وراء المنضدة الكالحة البياض... ورفع عينيه ودار بهما في العنبر بملل عندما اصطدمتا بسعدية وهي منحنية في أحد الأركان تنظف الأرض، فأخذ يرقب ردفها المحشورين في ردائها الأبيض، وقد بانئت استدارتهما محددة التقاطيع فالتهبت في جسده نيران رغبة لم تخمد بعد.

طالما تمنى أن ينال سعدية ولو مرة بعد تلك الليلة التي قضياها معاً في همس حتى مطلع النهار... تزوجت من رجل أذاقها المر ثم طلقها بعد أن ترك لها ابنة أصبحت في الثالثة... تأوه مريض في نهاية العنبر فنهض إليه في كسل وتراخ وعيناه لا تفارقان سعدية، وكف المريض عن التأوه فتوقف وعاد من حيث جاء... ما الذي دهاه الليلة؟!... وما الذي حدث حتى سقط في تلك الدوامة المخدرة... التقت عيناه بعيني سعدية، فألقت عليه التحية باسمه:

«مسا الخير يا بو السيد!».

رد عليها في هدوء، إنه يعلم أنها تحوم حوله وتنصب له شباكه... خرجت من العنبر فارتمى في مقعده مفكراً لاهثاً... على أن صراخ معدته سرعان ما أيقظه من غفوته، فتذكر أنه لم يتناول عشاءه بعد، وكان ذكر الطعام سحر بعث في نفسه الحيوية فجأة، فنهض نشطاً وهو يأخذ طريقه إلى المطبخ.

ألقي بالتحية على زكي الطباخ، واختطف قطعة لحم ازدردتها بسرعة وتلاها بقطعة أخرى... لو كان متزوجاً لأغرق أولاده باللحم... كانت

هناك أفكار سخيفة تراود ذهنه بين الحين والحين... فهو يعلم عن يقين أنه يأكل غذاء المرضى وقد احتاج الأمر منه إلى قليل من التفكير... الأدوية التي يعالج بها آل البلطي اقتطعها من علاج مرضاه الراقيدين في العنبر... ليس في الأمر حرام أو حلال، الدنيا في نظره منفعة بعد طول حرمان، في صغره عزَّ عليه اللحم حتى بكى ذات مرة وأبكى أمه معه، لم يعلم ذلك أحد ولم تعلمه عائشة بالذات، يقول للجميع إنه نزع من القاهرة بعد أن توفي أبوه وأمّه وورث عنهما بعض المال، والحقيقة أن أمه ذاقَت من أجله المر بعد موت أبيه، ثم ماتت ذات ليلة وتركته وحيداً... عمل خادماً عند طبيب، واستطاع أن يشرب الصنعة ثم يقفز في حذق درجة درجة حتى وافته الفرصة فعمل في المستشفى... يصلي الفرض في وقته دون نسيان، ويرتكب الحرام بين الحين والحين، أي نعم، ولكن فرض الله واجب!

سرح بفكره ذات مرة فزاره ضميره على استحياء... أليس حراماً أن تأكل لحم المرضى يا سيد أفندي يا باشتمرجي؟!... وصمت أمام ضميره في عجب، كان السؤال غريباً أشد ما تكون الغرابة. فمنذ أن عرف الطريق إلى الحياة والجميع من حوله يفعلون ذلك، المرضى غلابة، هذا صحيح، ولكنه أشد منهم غلباً. والله يرزقكم فلماذا تفكرون؟!... الحقن التي عالج بها أم حنفي وأنسباء المستقبل لم يصب أصحابها ضرر. كانوا دائماً يضحكون ويشفون ويغادرون المستشفى في أتم صحة وأتم عافية، الأطباء مبذرون، والمداوي حقاً هو الله... ولم يزره ضميره بعد ذلك، عاد إلى مكمنه وراح في نوم عميق وقد اقتنع تماماً!... أراح واستراح.

ومضت الحياة بعدها هنية حارة - نحمدوه - لا مصاعب فيها، لو اعتمد على مرتبه لمات من الجوع. جنيهان وثمانية وعشرون قرشًا وستة مليمات فقط لا غير. يدفع منها عشرين قرشًا أجر الغرفة التي يسكنها. وجبة طعامه لا تتكلف أقل من خمسة قروش، حقًا إنه يسترزق من هنا بقرشين ومن هنا بقرشين... والله سبحانه وتعالى يرزقكم، فهل تتبطرون؟!

التهم طبق الأرز بالخضار، والتهم قطعتين أخريين من اللحم، إن لم يأكلهما هو فسيأكلهما غيره... تجشأ بعد ذلك بالصحة والعافية، وأحس بدمائه تعربد في عروقه فغادر المطبخ بعد أن أخذ كوب الشاي في يده، وانطلق لا يدري إلى أين.

خرج إلى فناء المستشفى، ووقف وسط الخلاء والسكون وحيدًا متلذذًا بأنفاس السيجارة التي أشعلها ورشقات الشاي الساخن... مرت بذهنه الخواطر والأفكار، فاستعذبها وهز رأسه في رضا... وهبت نسمة باردة اصطكت لها أسنانه، دس السيجارة بين شفتيه وجذب منها نفسًا عميقًا سحبه إلى رئتيه، ثم عاد ونفثه. لكنه سرعان ما استدار عائدًا وقد دب النشاط في أوصاله... صعد درجات واخترق ممرات وألقى بكوب الشاي الفارغ عند حافة شباك، وتوجه إلى العنبر... عند باب العنبر وقف وهو يرقب المرضى منهمكين في تناول عشايتهم، وما كاد جسده يظهر حتى صاح أحدهم:

«مفيش لحمة يا باشتمر جي؟!».

أحس وقتها أن يدًا جذبته من أحلى نومة لتوقظه في عنف، فصاح في غيظ:

«اطفح وانت ساكت يا مصران يا أعور، عاوز تموت!».

«مصرف لي لحمه، الدكتور قال كده!!».

ولم يعن السيد أفندي بالرد عليه، ذلك أنه لمح سعدية تخترق ممراً جانبياً يؤدي إلى سلم يفضي إلى حجرة الشغالات... لم يفكر، ولم يهتم بالتفكير، قادته غريزته فانساق لها كالأعمى، اندفع وراء سعدية في خطوات نشطة وأنفاس تتردد بسرعة، انثنت المرأة وهبطت سلماً، فتمهل عند قمته، وما كادت تهبط السلم وتستدير إلى الممر المظلم حتى اندفع يقفز السلم قفزاً.

«سعدية!».

في صوته بحة لا تخطئها أذن امرأة مثل سعدية، فاستدارت نحوه وألصقت ظهرها بالحائط:

«خير يا سيد يا خويا؟».

«على فين؟».

سؤال لا معنى له، فالممر لا يؤدي إلا لحجرة الشغالات في نهايته، في عينيها قلق وفيهما شيء آخر، ارتبكت وفهمت فأربكته.

«خير... عاوز حاجة؟!».

دماؤه الساخنة لا تدع له فرصة للتريث، صدره يعلو ويهبط في انفعال وحشي... غابت الدنيا والأحداث وتوقف كل شيء عند لحظته.

«كنت باقول نقعد نتكلم شوية!».

حديث لا يفوت على سعدية التي تعرف من فنون الرجال ما لا يعرفه السيد، ثمة ضوء شاحب يمتد من حجرة الشغالات، يظهر فيه شبحها الممتلئ الملتصق بالحائط في فورة ونداء... إنه يعرف ما يدور بذهنها، وهي تعرف ما يدور بذهنه!

«وبعدين معاك يا سيد؟!».

«مش قادر يا سعدية... مش قادر يا ولية!».

ترى من ينتصر؟!... لقد انتصر هو على أم سالم وفوقية وفردوس والولية أم عبده أيضًا، في ليال كهذه الليلة، وأماكن من المستشفى كهذا المكان، عندما يتتابه الجنون، لا يدري أين رأسه من قدميه، ولا يفرق بين جميل وقبيح.

«وبعدين معاك يا سيد؟!».

خطا نحوها في جسارة حتى لامست قمة كرشه ذراعها، ومال عليها في بطاء مستندًا إلى الحائط، ولم تتحرك من مكانها، فهل تسلم دون مقاومة؟... رقصت في أعماقه شياطين حمراء، فارتجف وتنهد وقال:

«وبعدين معاكي انتي يا مدوخاني؟!».

«سيد... حد يشوفنا، اعقل!».

وانفلتت فجأة وعلى غير انتظار تاركة إياه في حيرة ونار، كلهن كذلك، وابتسامة عريضة تعبت بشفتيه، لكنه سينتصر، شبحها يسرع في ظلال الضوء الشاحب، لن يتحرك من مكانه، تنثني إلى الحجرة وتختفي داخلها بعد أن تلقي عليه نظرة.

ظل متسمرًا في مكانه، جمدته مشاعر ملكت عليه حواسه وأفكاره
وأشعلت النيران في كل ذرة من جسده، امتدت يده السمينة فمسحت
قطرات من العرق تصببت على جبينه، حاول أن يفكر دون جدوى، كان
قد أصبح أسير شهوة عارمة، هو لا يستطيع الاقتراب من حجرتها
وإلا حدث ما لا قبل له به، حجرة الشغالات عالم محرم على الرجال...
الحائط بارد، وجسده يغلي، والساعة جاوزت التاسعة... وما زال في
الليل متسع.

ما الذي تفعله عائشة الآن؟!

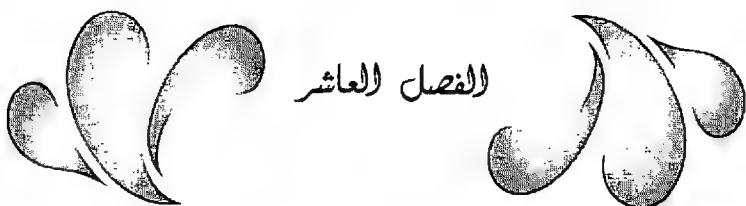
ذكرها يكاد يشعل الشيب في رأسه، لو كانت بين ذراعيه لاعتصرها
عصرًا، لمزق شفتيها وحطم ضلوعها... هل يحبها حقًا؟!... نعم، نعم
نعم، وإلا فما هذا الذي يحسه كلما ذكرها أو رآها؟!
غادرت سعدية الحجرة فجأة، خطت خطوة واحدة ثم توقفت
بعيدًا عنه.

«انت لسه واقف يا سيد، اعقل!».

جمود يشل كل تفكيره فلا يتحرك، حلقه جاف وكأنه لم يذق قطرة
من المياه منذ سنوات، تقدم منها مسلوب الإرادة، لكنها لم تتراجع،
تقدم خطوة أخرى ثم امتدت يده فجأة فجذبها بعيدًا عن الضوء،
وارتمت المرأة، بقوة جذبته، فوق صدره السمين... فاومت في وهن،
ولكن شفتيه سرعان ما انهالتا فوق وجهها وهو يخور كالثور!!

عندما عاد بعد ذلك إلى العنبر، كان المرضى قد غرقوا في سبات
عميق، وارتفع شخير بعضهم، وترددت أنفاس البعض في هدوء..

وساد المكان سكون أنيس... فجلس السيد أفندي في استرخاء فوق
مقعده وراء المنضدة الكالحة البياض، وأخذت أصابعه تبحث فيما فوقها
من أدوية وأوراق.. كانت علامات الرضا والارتياح بادية على وجهه
بوضوح، وابتسامة رائقة احتلت ملامحه السمينة، وفي لحظة، كان قد
قرر أن يتقدم، فلم يعد يطيق البعد عن عائشة أكثر من ذلك!
ولكن... هل يفعل حقاً؟!



الفصل العاشر

ساد الظلام بيوت الزقاق إلا من ضوء شاحب هنا، وذباله مصباح تتراقص في وهن هناك... وغرق المكان في صمت تخلله صفير الرياح التي كانت تندفع من أعلى الزقاق في قوة عاصفة، فتنفذ من شقوق الأبواب والنوافذ.

وكان حمودة ممدداً - في نصف جلسة - فوق الفراش وقد تناثر بالأغطية... على رأسه طاقية من الصوف ابتلعت جبهته وأذنيه وصدغيه، وظهر شاربه الكث وكأنه كل شيء في وجهه، وساد الحجرة صمت تخللته أنفاس العيال وقد راحوا في سبات عميق، بينما كانت عطيات تعد كوب الينسون الساخن لزوجها الذي أخذ يرقبها بعينين قلقتين.

لم يذق حمودة - منذ أن غادر المستشفى - للراحة طعمًا... كلمات الطبيب وتحذيراته تطن في أذنيه بلا انقطاع، حماس السيد أفندي وثورته لا يفارقان خياله، وأولاده الخمسة في حاجة إليه، وزوجته تعمل من الصباح للمساء ولا تكف... وصدرة يضيق حيناً، ويتسع للهواء حيناً، ولكن بحساب، الضعف يتسرب إلى جسده حتى ليكاد يفقده رشده. بالأمس أحس بالشبكة الفارغة على ذراعه كأنها طن من الحديد، وانتابه بعد طرحها دوار، فظل ساكناً في مكانه متشبثاً

بالجبال، ثم ترنح، ولولا الستر لسقط من طوله... كل شيء يبدو له
كثيلاً مرّاً.

تناول كوب الينسون من يد زوجته، وأخذ يراقبها وهي تدثر الأولاد
وتسد شقوق الباب بخرق تمنع الهواء المتسرب في اندفاع... ثم
استقامت واتجهت نحو الفراش وصعدت إليه... كانت هي ملاذه
الوحيد وموضع سره، لكنه يخاف أن يصرح - حتى لعطيات -
بما يعتمل في نفسه من قلق، وما يدور في ذهنه من أفكار... أفكار غريبة
- جد غريبة - تعربد في ذهنه، ومهما حاول وجاهد ليضيق عليها
الخناق ويكتمها في صدره، فإنّ بوادر منها أخذ لسانه يفلتها - على
الرغم منه - بين الحين والحين، ولولا سرعة تداركه الأمر، لانفضح
للأهل ما يفكر فيه... وكأنه كفر!

ليس الأمر أمر هجرة، إنه فراق أهل وأصحاب وزقاق عاش فيه منذ
طفولته، مرضه يلح عليه أن يقدم، فلا مفر، وراءه بطون تريد أن تمتلئ،
ولا يعرف في الدنيا غير صناعة الصيد وطرح الشباك واختيار المكان
المليء بالرزق... دماؤه التي تجري في عروقه مألحة كمياء البحر،
صدره العليل يأنس لهواء الشاطئ ويحبه ولو كان فيه نهايته...
والمستقبل؟... المستقبل مجهول يبين له بلا ملامح... فماذا...
ماذا يفعل؟!

مددت عطيات ساقها تحت الغطاء فلامست قدمها الباردتان
قدميه الدافئتين... فارتجف. عادت فلمت ساقها ودثرتهما بطرف
جلبائها وجلست إلى جواره متربعة صامته... في عينيها حنان جارف
وحب طاغ، لم يسمع منها في حياته كلمة تعكره، ولم تفعل في حياتها

غير ما أمرها أن تفعله. طالما حسد نفسه على عطيات، كانت - من دون نساء الزقاق - حلوة اللسان منكسرة الطبع لا تؤذي أحدًا ولا ترد لأحد أذاها، من الفجر حتى منتصف الليل لا يشغلها سوى رجلها وأولادها وبיתהا، تحدث الناس بالحسنى، وتنساق لكلمات زوجها في طاعة عمياء، وحب مقرون باحترام شديد!

رشف حمودة من كوب الينسون بتلذذ، وضمه بين كفيه وأخذ يرقب البخار المتصاعد منه وقد غرق عقله في لجة محيرة... ما الذي ستقوله عطيات؟... يعرف أنها ستوافقه وتطيعه بلا كلمة اعتراض، ولكن، هل تستطيع حقًا مغادرة الزقاق والشاطئ والسعي معه إلى المجهول دون خوف أو وجل؟

مالت بكتفها نحوه فالتصقت بكتفه، وأحس حمودة بذلك الشعور الفياض المتدفق الذي يطغى فيغرق مشاعره كلما جلس إليها في ليلة شاتية.

«إزاي صدرك دلوقت يا سي حمودة؟».

«نحمدوه يا عطا!!».

قالها في اقتضاب وكأنه يفر!... ولكن أين المفر؟... وراء البحر وفيه ما فيه من مرض وعذاب وألم... وأمامه المجهول بضياعه وشحوب صوره ومعالمه... وبجواره رفيقة العمر فلماذا لا يجس النبض ويتلمس وعورة الطريق مستندًا إليها؟!

«عطيات... عاوز نقول لك على حاجة».

«خير يا سي حمودة؟!».

لكنه لم يتكلم، عاد إلى الصمت من جديد... وأخذت عطيات تتساءل في حيرة... ترى ما الذي يشغل باله... هل قال له الطبيب غير ما علمت؟... مع الأيام أصبحت تشعر وكأنه ابنها لا زوجها!... كان دائماً في حاجة إلى رعايتها وحمايتها.

«بالك مشغول بيايه يا سي حمودة؟!».

تمنت على الله أن يطلب سيجارة، فما كان أحب منظره إليها وهو يدخن.
«عاوز سيجارة يا عطيات!».

«وصدرك يا سي حمودة؟!».

رغم الزغردة التي انطلقت في صدرها، إلا أن حكمتها كانت دائماً أسبق إلى لسانها من أمانيتها... لمحت علامات الضيق على وجهه، فامتدت يدها تحت الوسادة وأخرجت صندوقاً قدمت له منه سيجارة... ومال حمودة على عود الثقاب الذي أشعلته... وتساءلت هي، لماذا تحب أن تراه مدخناً يا ترى؟

«كنت عاوز نقول يا عطيات...».

وعاد الصمت من جديد، فقالت عطيات بصوت خافت:

«بتخبي على عطيات يا سي حمودة؟».

«أني نخبي عليك...؟!».

قالها في استنكار، ورفع الكوب إلى شفثيه فأفرغ ما فيه دفعة واحدة، ثم مال به إلى الأرض بجوار الفراش، وعاد إلى جلسته وقد احتقنت الدماء في وجهه...

«كنت عاوز نقول... إيه رأيك لو رحنا مصر؟!».

«مصر؟!».

«أيوه مصر... صحتي يا عطيات، العيال محتاجين لي، نعمل إيه بس؟ نفضل كده كل يوم والثاني في المستشفى؟ واللا نفضل كل يوم والثاني بالشكل ده؟... قولي لي يا بت الناس نعمل إيه، نعمل إيه بس؟... هيه؟!».

اختنق صوته، فكف عن الحديث فجأة، وجاشت نفس عطيات بالحنان، فتسللت يدها إلى كفه على استحياء وقد باغتها الأمر فنكست رأسها ولاذت بالصمت، بينما عاد حمودة إلى الحديث من جديد:

«شوفي يا بت الناس، قالوا عد غنمك يا جحا، قال لهم واحدة واقفة وواحدة نائمة... آني فكرت في الموضوع كويس، وربنا ما ينساش عبده، لو بعنا الشبكة بكذا، والقارب بكذا، نقدروا نفتحوا دكانة في أيتها حتة في مصر، في أيها حي!».

«اللي تشوفه يا سي حمودة، اللي تشوفه!».

«كأنها تقول له «كف عن الحديث!»... فراق الزقاق عند أهله كفراق الحياة سواء بسواء، لكنه مريض، صدره عليل، وحياته على الشاطئ لا بد قصيرة، وما باليد حيلة...».

«افرضي جرى لي حاجة يا عطيات... افرضي يعني... أسيبكم لمين؟!».

«اللي تشوفه يا سي حمودة... اللي تشوفه!».

«مش اللي تشوفه... لأ، إنتي إيش قولك في الموضوع؟ هيه... إيش قولك يا عطيات؟!».

«القول قولك، أنا وياك منين ما تروح؟».

«آني كنت عارف إنك حاتز علي... كنت عارف...».

«أبدًا وحياة نور عينيك... أبدًا يا سي حمودة».

اختنق صوتها، وسبحت عيناها في الدموع، وزفر حمودة وهو يقول:

«نفتح دكانة، نبيع لب، نعمل أيها حاجة، هو آني مش راجل يا عطيات، والعيال دول مش عيالي... حكم ربنا وده مقدر ومكتوب!». «يا ترى حايقلوا إيه يا سي حمودة... حايقلوا إيه؟!».

استدار إليها بغتة وحملق في وجهها بغضب وحيرة... ليقولوا ما يحلو لهم، لن يترك نفسه فريسة للمرض، ولن يترك أولاده ليربيهم غيره...

«ما يقولوا اللي يقولوه، حد حاينفعني لما نروح فيها... لو كتي سمعتي كلام الدكتور كتي عرفتني».

«قال إيه... قال إيه وحياة النبي قال إيه؟!».

لهفتها عليه تبرد نار صدره، جزعها الصادق يملأ حياته بالسعادة:

«قال لي حاتموت لو قعدت هنا شهرين كمان...».

«يا مصيبيتي، ومستني إيه يا سي حمودة... مستني إيه يا خويا؟».

سره الرهيب وجد له متنفسًا في النهاية، علامات الذعر واللهفة والجزع تظهر على وجهها كشمس في ظهيرة يوم صيف، الراحة تغمره فيقول في هدوء:

«يعني موافقة يا عطيات؟».

«إلا موافقة يا خويا... إلا كده، من بكرة نسيب الزقاق... من بكرة. إحنا لينا مين غيرك... أنا والعيال ما نسواش بصلة من غير نفسك!».

انهمرت دموعها فغطت وجهها بكفيها وغرقت في نشيج صامت، وانسحبت يده فربتت على كتفيها، ثم جذبها إليه فاستسلمت، وألقت برأسها فوق صدره، وتسمعت بأذنها دقات قلبه الرتيبة، وملاّت خياشيمها رائحة أنفاسه المعطرة بالدخان...

«آني... آني خدامتك يا سي حمودة... اتوكل على الله!».

ألقي ببقايا السيجارة على الأرض، ولف حولها ذراعه الآخر وضمها إلى صدره بحنان، وسوى الغطاء وراء ظهرها فانكمشت على نفسها ملتصقة به كقطعة دافئة، رفع وجهها إليه فغمرته نظراتها... ابتسم وابتسمت، جفف دموعها ومال على خدها فطبع عليه قبلة حانية... تسرب الدفء إليهما فازداد التصاقهما، وهمست عطيات وهي تقبل رقبته ثم تدفن رأسها في صدره من جديد:

«إخص عليك يا سي حمودة، وكنت مخبي عني سبع أيام؟».

قال حمودة بصوت حالم متحشرج النبرات:

«إيش قولك يا عطيات... إيش قولك لو تاجرنا في السمك؟!».



الفصل الحادي عشر



همس المعلم محمد محدثاً زوجته وهو يحملق في الظلام:

«إيش قولك يا أم محمود؟!».

«خير يا خويا؟!».

«عاوز نجوز الواد!».

شهقت المرأة في فرح، ونهضت في مكانها وانحنت عليه قائلة بصوت مضطرب:

«ده يبقى يوم المنى يا بو محمود... يوم الهنا!».

«بس آني خايف... خايف نجوزه من هنا، ويرجع لعوايده من هنا!».

ردت عليه زوجته في سرعة ودون تفكير، وقد استخفها الفرح:

«جرى لك إيه يا خويا، والنبى أنت ظالمه، هو يعني أقل من مين؟!».

«يا ولية آني مش في كده، آني بنقول يعني أن الجواز يمكن يصلح حاله ويخليه يهتدي بالله ويتبته لشغله، لكن نرجع ونقول نستنى شوية لحد ما نشوف هو حايرسى على آني بر... وبعدها نتوكل!».

«والنبى أنت حر، حاكم أنت لك أحكام».

وعادت المرأة إلى استلقائها، وظلت مفتحة العينين، لكنها لم تستطيع الصبر فعادت إلى الحديث مرة أخرى:

«بقى يعني لو مشي كويس، تقول نستنى عليه لما نشوف حاله، وإذا راح كده واللا كده، تقعد تشتم فيه وتبسود عيشته، يا بو محمود حرام عليك!».

وانتظرت أم محمود من زوجها أن يادلها الحديث، لكنه كان غارقاً في التفكير يقلب الأمر على كل وجوهه، ومنذ سبعة أيام وهو لا يكف عن التفكير في الموضوع، وكأذات مساء يقدم عندما انفرد بالريس صادق لدقائق، لكن لسانه تعثر قبل أن ينطق بكلمة وانتابه الخوف... حقاً لقد انقطع محمود عن زيارة البوطة أو السهر فيها، يخرج في الصباح مزاملاً حنفي في القارب، ويحمل الرزق مع ابن عمه كل مساء إلى الحلقة، ثم يعود إليه بالمال... ويبقى بجواره لا يبرح البيت... لكن، من يديره ألا يعود محمود إلى سيرته الأولى؟!

عادت أم محمود إلى الحديث من جديد وفي صوتها رنة غضب: «بس يا خويا ما هو محمود بقى عال، اللهم صلي على النبي، هو يعيبه إيه؟».

فقال المعلم محمد في خجل:

«يا ولية افهميني، يعني نجوزوه بت الناس من هنا، ويروح يرافق عليها من هنا؟... ده يبقى اسمه كلام برضه؟».

«أستغفر الله العظيم، يا راجل تف من بلك».

«أنف من بقي ازاي؟... هو اللي يسهر في البوطة لوش الصبح تكثر عليه المعصية؟!».

ضحكت المرأة في سخرية وقالت هامسة:

«اسم الله... الله يرحم!».

«قصداك إيه؟!».

«يوه... ولا حاجة... بس يعني...».

تنحى الرئيس محمد في غلظة، فكفت زوجته عن الحديث، ولمعت عيناه في الظلام، وقفزت إلى ذهنه ذكريات أيام خلت... فقد بعد وفاة السيد البلطي، صوابه وكأنه كان سجيناً طيلة حياته، فانطلق إلى البوطة لا يلوي على شيء، وعرف فيمن عرف في تلك الأيام امرأة كادت تلهيه عن حياته، لكنه تنبه فجأة عندما فاحت رائحة السيرة وعرفها أهل الزقاق، فاستغفر ربه وتاب... ونسي تلك الأيام ولم يعد يذكرها وكأنه لم يعشها، وحتى لو ذكرها عرضاً أو ذكره بها لسان زوجته الذي يعرف كيف يطعن في الوقت المناسب، فسرعان ما يحول الحديث بعيداً عنها فينسأها، وتغوص أحداثها إلى أعماق مظلمة ترقد فيها ولا يظهر لها أثر... لذلك قال محوّل الحديث في لباقة، وقد رق صوته ولان:

«إيه رأيك في زوبة؟!».

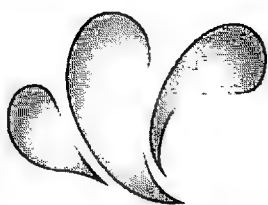
قفزت زوجته جالسة مرة أخرى، وانتفضت كلماتها بالفرح:

«ست البنات... والنبي يا بو محمود فضك من اللي في دماغك ده واتوكل على الله خلينا نفرح بالواد!».

لم يكن المعلم محمد أقل تلهفًا على الأمر من زوجته بطبيعة الحال، فمئذ تلك الليلة وفي قلبه نار تضطرم وإحساس رهيب بالفناء... زواج محمود يلح على قلبه إلحاحًا متصلًا، كم من مرة نادى فيها على ولده وأجلسه بجانبه وهم أن يفاتحه في الأمر، أو يسأله لماذا لم يطلب الزواج حتى الآن، ولولا إرادة قوية، وعزيمة وصبر وقلة ثقة في ولده لانتهى الأمر منذ أيام... يسعده أشد السعادة أن يرى أحفادًا تجري دماؤه في عروقهم، ويشقيه أشد الشقاء ذلك الشك المقيم في نفسه نحو ولده... لم يخدعه عزوف محمود عن سهراته وحياته إياها، فهو مريض على أي حال وليس محمود بابن حرام ليتركه ويسهر، لكنه لن يظل العمر كله في الفراش، سوف يسعى إلى الرزق غدًا أو بعد غد، ويومها سيبين له الخطأ من الصواب، والحق من الباطل.

قال لزوجته وهو يستدير موليًا ظهره إياها، وفي صوته نبرة أمرة: «لمي لسانك ومش عاوز حد يسمع بالسيرة دي... الأيام جاية، والمية تكذب الغطاس!».

وكان واثقًا أنها ستطيع، وأن أحدًا لن يعلم بما دار بينهما، فأولاها ظهره، وأغمض عينيه... وراح في النوم!



الفصل الثاني عشر



غادر محمود وحفني حلقة السمك قبل الغروب بلحظات وسارا متجاورين بحذاء الشاطئ المهجور... ذلك الشاطئ الذي لم يسبح فيه قارب، ولا ألقيت فيه شبكة منذ ابتلعت مياهه جسد السيد البلطي... ولاحت لهما على امتداد البصر صخرة رأس التين رابضة تحت أقدام القصر الكبير، تنطحها أمواج البحر بقممها الزبدية في زمجرة غضبي، وما تلبث أن تتكسر عند أقدامها العتيدة في أنين مكتوم... وقد ظللها الصمت وقتاً غير قصير وهما يسيران، حتى إذا اقتربا من نهاية الطريق، كان عليهما أن يميلا يساراً، ويعبرا الشارع، ثم يذلعا إلى حارة السعداوي، ويخترقا بعدها حي السيالة من الناحية المواجهة للميناء، ويتركا على يسارهما مسجد المرسي أبو العباس بعد مسيرة دقائق، ليغوصا في أزقة وحوارٍ تشابك وتلاقى وتتفرع في غير نظام، حتى إذا توسطا تلك الكتلة الضخمة المكدسة بالمنازل القديمة المتهالكة، انشيا يمنة ويسرة في تعرج مستمر... ليصلا - بعد دقيقة أو دقيقتين - إلى زقاق السيد البلطي.

لم يكن ذلك الطريق الذي سلكاه هو أقصر الطرق إلى الزقاق، لكنه كان الطريق الذي تعود حفني السير فيه في هذا الوقت من كل يوم، يدفعه إلى رؤية الشاطئ المهجور حين جارف، ويظل طوال سيره

بجوار الشاطئ، يعاني من شيء يعبث بنفسه وأمنه عبثاً متصلاً، يحسه قوياً كبيراً يملأ كيانه ويضغط على أفكاره، باهر الضوء... لفرط وضوحه وجلائه، لا يكاد يعرفه أو يميزه وكأنه يغشى البصر!

هنا غرق أبوه - وهو لا يصدق بأنه خاوى أو غاص مع جنية إلى قاع البحر في تلك البقعة الرملية شرقاً، الصخرية غرباً... في مكان ما من هذا الشاطئ المهجور، كان السيد يقف وسط قاربه، يطرح الشباك ويجذبها، ويحمل الرزق إلى بيته وآله!

هنا مات أبوه - ولا بد أنه مات - واختفى، حتى جثته لم تلفظها الأمواج ولم تلق بها إلى الشاطئ، بل ابتلعته وطوتها وأذبتها في أعماقها فلم يعد منه أثر.

هل يستطيع أن يعيد السيرة مرة أخرى؟!... أن يقسم الشاطئ ويختار لعائلته تلك البقعة المهجورة... قلبه يفيض بالحماس والحب لتلك الأفكار، أما عقله؟... عقله الغريب يتمرد ويرفض ويقول: لماذا؟!... حينه إلى الشاطئ أمره غريب، ينمو في نفسه يوماً بعد يوم، وكلما لامست عيناه رماله ومياهه تدفق الحنين إلى نفسه تدفقاً هادراً وكأنه ينبع من منبع فياض... ما إن يرى الصخرة حتى يتوقف - بالرغم منه - ويلقي ببصره إلى الأفق البعيد متمنياً - في ألم - أن يطل عليه وجه أبيه من جوف المياه... في ذلك الوقت من كل يوم، عندما يلامس قرص الشمس حافة الأفق البعيد، يحلو لحنفي أن يجتر ماضياً لم يعيشه، ماضياً مجيداً مليئاً بالعز والقوة والسلطان، ويتملى حاضراً مهلهلاً مهدداً، ويستشف خلال أحداث الأيام ما سيكون عليه المستقبل... ويعود دائماً منكسر الخاطر... ويظل الشاطئ مهجوراً!

ما الذي يريده بالتحديد؟!

سؤال محير لا يعرف له جوابًا، ببساطة يريد العز والقوة والسلطان، يريد أن يزوج عائشة، وأن يتزوج زوبة، وأن يشفي حمودة، وأن يجد كل رجل في الزقاق رزقًا يقيم أوده ويملا بطون أولاده!... وماذا بيده أن يفعل؟!... هل كتب عليه هذا التيه إلى ما لا نهاية؟!

«جرى إليه يا حنفي؟!... سرحان في إليه؟».

«هيه؟».

عندها فقط تنبه لوجود محمود... ماذا لو حدثه بأمر حيرته تلك، حقًا إنه يختلف عنه في كل شيء، لكنه ابن عمه قبل هذا وبعده، هو الآخر يعيش في عالم لا يمت إلى عالمه بصلة... ما الذي حدث للعائلة؟... هل أصابتها عين؟!... الفقير فيهم يزداد فقرًا، والغني يزداد بعدًا، واللقمة في فم هذا ليس لغيره نصيب فيها!... واقع لا جدال فيه، حديث الناس عنهم أحلام غير متحققة، يجمعهم زقاق ضيق، ويلجأ كل منهم إلى الآخر ويحمي كل منهم الآخر، هذا حق، ولكن، أهذا كل ما يجب؟!... فيهم من لا يكاد أحديراة إلا في الملمات وكأنه غريب، ومنهم من اشترى بدل القارب قاربين، وبدل الشبكة شباكًا كثيرة... وبعد أيام أو شهور لن يصبح للقارب أو الشبكة قيمة عندما تأتي سفينة عبد الموجود حمدان وقد كثر الحديث عنها. أين الرجال في العائلة؟!... وأين الرجال على الشاطئ... رفع بصره إلى محمود واختطف من وجهه نظرة ثم تساءل: هل كتب عليهما أن يحملتا العبء كله؟... محمود ليس صيادًا، وهنا المصيبة، ولن يكون صيادًا... يوم أو يومان وتعود ريمة إلى عاداتها القديمة، ويعود محمود إلى البوطة وكايداهم.

لا... لن تعود سيرة أبيه، فليس الزمن كالزمن، وليس الناس كالناس،
والشاطئ أصبح مهجورًا!



ذات ليلة ثقلت عليه الحيرة فخلع ملابسه وألقى بجسده إلى المياه
- أكان مجنونًا وقتها؟ - وظل يسبح ويتوغل غير عابئ، كان القمر بدرًا
ونوره يفرش سطح المياه في وداعة، لكنه لا يغوص إلى أعماقها، بل
يبقى مستلقيًا على السطح لا يتعداه، أراد أن يستشف ما في أعماق
البحر من أسرار، كلت ذراعاه ولم يكف عن السباحة، ألقى بنظره
إلى الوراء فوجد الشاطئ بعيدًا، جال يبصره حوله فبدت له الدنيا خلاء
إلا منه، الصخرة مخيفة هائلة ضخمة... جاشت نفسه وتذكر أباه وتمنى
لو أنه لم يمت حقًا كما يقولون... فصرخ بكل قواه:

«يا بابا... يا سيد يا بلطي!».

ردت إليه الصخرة صدى صوته من جديد، فعاد إلى النداء واجف
القلب مستنجدًا ببقية أمل... الموتى يستدلون على أجسادهم بالقبور،
وأبوه لا قبر له ولا جسد... ترى أين هو الآن؟!... أكان في جوف
سمكة اصطادها وباعها في الحلقة وأكل لحمه الناس؟!

«يا بابا... يا سيد يا بلطي... يا بابا... يا بابا...».

وخرج يومها من المياه والحزن يعتصر قلبه، لكنه كان مرتاحًا وكأنه
أدى واجبًا... وعاد إلى الشاطئ ليالي أخرى، ونادى على أبيه فيها...
وهو موقن أنه مات... مات... مات... فماذا يريد؟!... ولماذا يعود
دائمًا، ويسبح ويتوغل في المياه وينادي؟!

لاحت لهما مثذنة المرسى أبو العباس وقد هبط الظلام وأضيئت المصابيح، فخطر له خاطر... لماذا لا يذهب إلى بوظة حسين شلوفة؟!... اجتاحتته على الفور رغبة في مجالسة الصحاب، ضحكة من هذا وبوظة ودخان وموال ويغرق القلب والعقل معاً في خدر لذيد، لكنه لا يفقده وعيه ولا وقاره... قال في سرعة وكأنه يخاف التعثر:

«رايح فين يا محمود؟!».

«البيت يا حنفي... يعني حانروح فين؟».

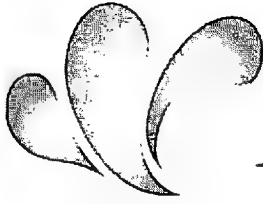
«ماتيجي نروحوا عند شلوفة!».

«لا!!».

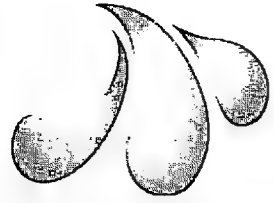
قالها محمود في اقتضاب وسرعة وكأنه يبعد عن نفسه شيئاً مخيفاً، فلاذ حنفي بالصمت.

لم يحدث أن اجتماعاً على شيء إلا فيما ندر، ولم يكن اختلافهما مثار شجار أو كراهية، على العكس، كان كل منهما يكن لصاحبه حباً عميقاً ووداً يصدر عن إحساسهما بأخوة لا تنفصم. على أنهما قد أحسا ذلك الاختلاف بين طبائعهما، فترك كل منهما صاحبه لحياته دون اعتراض أو تذمر... طالما سهر في البوظة معاً، لهذا صحابه ولذلك أصدقاؤه، فإذا صادف وغادراها في وقت واحد، اتجه كل منهما ناحية، وسلك طريقاً مختلفاً...

عند التقاء شارع وكالة الليمون بحارة نور الصباح افترقا... انثنى حنفي إلى اليمين متجهاً نحو شارع البحرية فباب الكراسته، وغاص محمود في ظلام الجارة غارقاً في صمت حزين...



الفصل الثالث عشر



عندما دلف حنفي إلى بوظة حسين شلوفة، كان كل شيء فيها يقارب الوصول إلى ذروته... سحب الدخان انعقدت في سماء المكان، والموائد صفت متجاورة بالقرب من الجدران في استدارة، حولها مقاعد مستطيلة تلاصق الرجال فوقها وتزاحموا... والمعلم جمعة تصدر المجلس يحيط به الشعراء والمعجبون... لكن مقعد كايداهم كان لا يزال شاغراً، يجلس حوله الطبال والزمار في انتظار واستكانة...

ألقى حنفي بالتحية على الرجال... فهللوا صائحين:

«ألف مسا... آمال فين محمود يا معلم حنفي؟!».

نفس السؤال الذي ألقوه عليه بالأمس وأول أمس وكل يوم منذ غاب محمود عن البوظة... ولم يجد حنفي جواباً سوى هزة من كتفيه، وكلمات قالها وهو يبحث لنفسه عن مكان:

«قلت له يبجي، مرضيش!».

صاح المعلم جمعة في أسي:

«دول سبع ليال النهاردة يا جدعان، سبع ليال ومحمود غايب عنا،

حد منكم زعله؟... البت عملت له حاجة ضايقته؟!».

وراح يجول بعينه في الوجوه متسائلاً، غير أنه لم يظفر بغير الصمت
جواباً فhez رأسه في أسى وهو يرفع كوز البوظة إلى شفثيه في نهم.

وسرعان ما عاد كل شيء إلى حاله، انتحى حنفي ركنًا مزوياً وراح
يرقب الجالسين في صمت، وارتفع صوت حكشه بائع لحمة الرأس
منادياً: «يا مسهل!...» وخاضت نفيسة بائعة الترمس بين الرجال وهي
تلقي عليهم النكات وتحضهم على الشراء بكلمات مفضوحة، ثم
صرخت ضاحكة من قرصة لدغها بها رجل لعبت البوظة برأسه...
والكيزان تفرغ لتمتلى من جديد... وكايداهم تدلف من باب المكان
ملتفة في ملاءتها، فتعلو الصيحات مرحبة عابثة... ونهض إليها الشاطر
الطبال وزين الزمار، وتسابقا في حمل الملاءة التي ألقتها عن جسدها
في دلال، ليظهر ثوبها الفاقع اللون وقد انعكست على سطحه أضواء
الكلوبات الباهرة، وتموجت مع استدارة رديها ونهديها وبطنها...
ناداها رجل فردت عليه بابتسامة، زعق آخر بصوت ثمل:

«يا ريتني ملاية لف!».

فرنت ضحككتها وجلجلت، ثم ردت عليه عابثة:

«بس يا دايب!».

ضج المكان بالضحك والتهليل، واتجهت كايداهم إلى مقعدها
وهي تجول ببصرها في الوجوه، وما إن استقرت فوق المقعد حتى
مالت إلى الوراء، فمال نحوها الشاطر وزين في عبودية وتبتل، وسألتهما
كايداهم في همس:

«برضه مجاش؟!».

«لا والله يا ست كايدهم!».

لمحت حنفي فألقت عليه التحية، ورد حنفي تحيتها في اقتضاب وهو يدفن نظراته في كوزه، وعادت تميل إلى الخلف وتسال:

«حنفي ما قالش حاجة؟!».

فقالا في وقت واحد:

«بيقول انه ما رضيش بيعجي!».

ظلمت وجهها سحابة من كآبة، لكن تقاطيعها سرعان ما ابتلعت تلك الكآبة عندما صاح أحد الرجال طالباً إحدى رقصاتها... فابتسمت في دلال وهي تتناول السيجارة التي امتدت بها يد حسين شلوفة، ونقر الشاطر فوق طبلته، وصفق المعلم جمعة بكفين هائلتين وهو يصيح:

«والله لازم أيل معاكي يا كايدهم!».

وصاحت كايدهم بمرح لتحية المعلم جمعة، قائلة:

«تعيش يا سيد الكل...».

وصفق البعض في انبساط وهم يستديرون في أماكنهم نحو جمعة، وصفق آخرون طالبين كيزاً أخرى، وراح الجميع يتصايحون في انتظار الغناء.

وقد مضت سنوات طويلة لم تعرف فيها بوظة حسين شلوفة الشعر ولا قائله، ثمة مواويل تطلقها حناجر الرجال بعد أن تثقل رءوسهم وتتمايل من الانسجام حيناً، ومن عدم السيطرة عليها في غالب

الأحيان... وبصرف النظر عن حلاوة الصوت أو قبحه، كانت المواويل هي الأذما يمارسه الرجال حول كيزان البوطة.

حتى جاء جمعة ذات ليلة.

جاء وحيداً وألقى التحية على الرجال فردوها، كان غريباً فلم يعيروه اهتماماً، جلس في أحد الأركان وأخذ يشرب في سكون، ظل يجرع كوزاً وراء الآخر، ويلتهم حبات الترمس وعيدان الجرجير في نهم، ويشترك في الحديث من بعيد بكلمة أو كلمتين، حتى إذا انتصف الليل كان الحديث قد جمع بينه وبينهم، فانتقل من مكانه وجلس معهم... وكان لا بد للانسجام من بلوغ ذروته، وذروة الانسجام هي الغناء!

وعلى غير انتظار لعلع صوت جمعة... انطلقت حنجرتة بموال صممت له كل الحناجر، وأرهفت لسماعه كل الأذان... وبهت الرجال وذهلوا لحلاوة صوته، كان صوتاً رخيماً عذباً ينسأل في سهولة بجرس يجلبجل في سعادة حزينة... وكان يقول الشعر!!

وسرعان ما ذاع الخبر في الحي، وانتشر بعد أيام ووصل إلى الأحياء الأخرى، فتوافد الشعراء من كرموز والأنفوشي وكوم الدكة، وعرف الكثيرون الطريق إلى بوطة شلوفة... وحول الكيزان سالت دموع، وجلجلت ضحكات... وحول جمعة التف الشباب في انبهار، وراحوا يلتقطون الأبيات من بين شفتيه ليرددوها في كل مكان... وكان محمود البلطي أحد أولئك الذين سحرهم شعر جمعة ومواويله... بهرته الدنيا الجديدة واجتذبتة إليها بقوة لا تقهر... وأصبحت كلمات جمعة هي البلسم الذي يبرد نار قلقه وحيرته وعذابه، فحفظها عن ظهر قلب، ورددها مرات ومرات... وغنى ذات ليلة لعبت فيها البوطة برأسه،

فهلل له الرجال في حماس، ورأى كأيدهم فسلبته لبه، وأطلق الشعر دون أن يعي، فاحتضنه جمعة وقربه إليه... فغنى وأشعر وأطلق من قلبه آهات كانت تتلوى على لسانه راقصة دامعة... وقربه جمعة من مجلسه... وانضم في ليلة إلى الشعراء وحاجاهم بأبيات، وأصبحت البوطة هي ملجأه الوحيد... وطبع الحزن أشعاره فتعلق الرجال به، واستعذب هو الحزن فرافقه في غير تدمير!

وقد ظهر محمود في تلك الليلة عند باب البوطة فجأة...

كان زائف العينين، منبهر الأنفاس، شاحب الوجه، متسمراً في مكانه متطلعاً إلى الداخل بنظرات شرهة غير مستقرة، كأنه يمتص بعينه كل ما تضيح به البوطة من حياة، ولمحه جمعة فصرخ بكل صوته وهو يفرد ذراعيه في الهواء ويقفز من مكانه:

«مين؟!... محمود البلطي؟! يا ألف مرحب!».

تحولت الرؤوس كلها نحو الباب، وتوقف كل شيء للحظة، وصاح جمعة مرة أخرى وهو يضم صديقه إلى صدره، ونهض الرجال مرحبين، ورفع حنفي عينيه إلى محمود وعلى وجهه ابتسامة حنون... ولم تتحرك كأيدهم من مكانها!

بدا محمود مرهقاً مكدوداً، ارتسمت على تقاطيعه علامات حيرة وألم دفين، صافح الرجال في ود، والتقت عيناه بعيني كأيدهم فارتعد... تقدم منها في خطوات بطيئة ومن حوله الرجال... حتى إذا أصبح على بعد خطوة نهضت إليه، فتوقف عن السير، وجاءه صوتها عبر الضجيج والصخب:

«سلامتك يا سي محمود!».

«تسلمي يا كايداهم، الله يسلمك!».

«ليه غبت عنا المدة دي؟».

«الغايب حجته معاه!».

«واللي له حبيب ينساه؟!».

ضحج الرجال بالضحك، وصاح جمعة في مرح:

«كايداهم بتقول شعر يا جدعان... عليه العوض!».

فرد عليه رجل وهو يرفع كوزه الممتلئ إلى شفتيه:

«اللي يدوق لدعة القلب يصبح نبي... عقبالنا يا رب!».

جرع حنفي كوزه دفعة واحدة، والتقط من فوق المائدة حبات من الترمس أخذ يلقي بها إلى فمه في سرعة، والتقت عيناه بعيني محمود مرة أخرى، فصاح في عصبية وكأنه يخمد بصياحه بركائنا في أعماقه:

«ألف مرحب يا محمود يا بن عمي... أني مش قلت لك تعالى، قلت لي لأ يا بن الناس؟!...».

كان شيئًا غريبًا أن يتحدث حنفي، وكان الأغرب منه أن يصيح... لذلك، فقد حملق محمود في وجه ابن عمه غير مصدق ثم ابتسم عندما صاحت كايداهم:

«حنفي البلطي اتكلم يا جدعان... ميت فل!».

فصاح حنفي مدافعًا عن نفسه:

«نعملوا إيه يا كايداهم، ما انتي تنطقي الحجر!».

وصرخ رجل في مرح وكأنه ضبط حنفي متلبسًا بجريمة:

«حاسب يا جدع، دي رفيقة أخوك!».

وجذب جمعة محمود إلى جواره قائلاً:

«ليلتنا أنس يا رجالة... والنبى ليلتنا أنس!».

ثم ربت على كتف محمود في ود وحب وهو يقول:

«سبع ليالي يا جدع، سبع ليالي تغيب فيهم عن أحبابك؟... سبع

ليالي يا محمود؟!».

وجلس محمود بجوار جمعة، وعاد الرجال إلى أماكنهم، وشحن الجو بشحنة هائلة من النشاط، كل شيء كان يبدو بهيجًا في تلك اللحظة، حتى حنفي انتابته نوبة عريضة من سعادة كأنها ضياع، فحمل مقعده بيمينه وكوزه بيسراه واقترب من جمعة وجلس أمامه وهو يصيح:

«ملعون أبو الدنيا، محدش واخذ منها حاجة!».

وتعالت الأنغام فجأة في موجات هادرة صاخبة... وغنى جمعة، وانداح صوته ساريًا كالمخدر، وألقت كايداهم بسيجارتها إلى الأرض وسحقتها، وتعالت نقرات الطبلية متموجة راقصة، فتراقص معها نغم المزمار في نشوة، وصفق الرجال وعلت وجوههم سعادة كأنها الغضب في وحشيتها، واهتز جمعة في مجلسه، وجذبت كايداهم الشال من فوق كتف زين وهي تنهض متقصعة، ثم لفته حول وسطها وانزلت على أرض المكان بقدمين طائرتين وجسدها يهتز ويترجرج ويتراقص في سرعة وحذق، وتلاقت الأكف في تصفيق منتظم، وغنى جمعة: «يا ليل»،

واندفعت كأيدهم تميل على الرجال وتجذب شواربهم في عبث وتثر عليهم بسماتها ومداعباتها في سخاء... وحمي وطيس الرقصة، وحميت الأكف في تصفيقها، كما حميت الطلبة في نقراتها والمزمار في أنغامه وجمعة في لياليه... وسكر الرجال بخمر السعادة، تمايلوا وشربوا وتصايحوا وصرخوا وكأنهم تحولوا إلى مجانين... ودارت كأيدهم حول نفسها، وهزت صدرها ووسطها، وراحت وجاءت، وشرب محمود، وشرب... ثم شرب كأنه يسابق الزمن، ويدت البوطة وكأنها جمرة ملتهبة، وكلما انتهى نغم طلبت كأيدهم نغماً آخر... انثنت في تمايلها واختطفت كوز البوطة من أمام محمود، وضعته فوق جبينها وهي تميل إلى الخلف، وراحت تتمايل وتراقص، وجسدها ينثني، ويتثنى... شعرها تهدل حتى لامس الأرض، وما لبثت أن رفعت الكوز من مكانه وقربته إلى شفتيها، وأخذت ترشف - كالمعجزة - من البوطة على مهل، بينما وسطها يترجرج ويهتز، وعيناها لا تتركان عيني محمود وكأنهما شدتا إليهما بخيوط لا تنقطع... وتصب منها العرق، وسال على وجهها وجيدها وانزلت قطراته فوق صدرها... ومضت الدقائق، وبرقت في عينيها نظرات نشوانة عريضة... ثم توقفت.

وتوقف الجميع وراحوا يلهثون في انفعال!

وجلس كأيدهم بجوار محمود... وتصاعدت رائحتها إلى أنفه فغيبته عن وعيه... راح يجول ببصره في المكان غير مصدق، واضطرب قلبه وتراقص... ضياء ووجوه وناس ودخان... طعم البوطة اللاذع يرد إليه الروح، فيتسم، وتغيض ابتسامته عندما يتذكر ما قاله رجل لحنفي: «حاسب يا جدع، دي رفيقة أخوك!»... لا يدري الرجل ما قالت له: «انت

زي أخويا يا محمود، عمرك ما خليتني أحس إنك راجل زي بقية الرجال، كنت دايماً حنين وقريب مني، زي أخويا، أبويا...؟!... وعبتاً يحاول أن يعيد إلى شفثيه ابتسامتهما... راح يفكر في صراخ محموم لم يسمعه سواه: «حرمت عليّ من دون الرجال جميعاً، لأنني أحبها؟!... عجب!... رضختُ للحرمان دون مجادلة أو تدمير... لأنني أعشقها؟!... ما أشد العجب!... لو طلبت منها روحها لما ضنت بها عليّ، في عينيها نداء صارخ فكيف ألييه؟!... كيف؟!... في قلبي حب لم يحمله قلب رجل من قبل... وحنانها؟!... أليس برهاناً؟!... لمسات يدها ليدي؟!... نظراتها؟!... كل هذا يغرقني في فيض من اللذة والألم معاً، لكن حبي يعذبني ويكويني ولا أعرف له دواء... هل من حل؟!... هل من دواء؟!... فلنسأل جمعة:

وطبيب أريد أسألك عندكش دواء ينطال

للمغرم اللي عامل كفوفه للدموع منطال؟!!

بدأت المحاجة بيني وبين صديقي وأستاذي، توتر الرجال واران السكون العميق على المكان، تحملىق فينا العيون كجمرات ملتهبة، المرجل السحري يغلي في أعماقي ويتصاعد منه البخار إلى ذهني شعراً... الأنفاس تفتح في قلق وكأنها تنفث في الهواء لهباً، المعلم جمعة يرفع القرعة إلى شفثيه استعداداً، وحنفي... حنفي يشب برأسه في لهفة وعلى وجهه علامات ألم طافح... حتى أنت يا حنفي؟!... ما الذي يؤلمك يا زين الصيادين؟!... وانداح صوت جمعة:

يا محمود اصبر، يا شيخ دا الصبر للأبطال

منين أجيب لك دوا ينشف عليك دمعك

من كتر نعيك على أحبابك تقل سمعك
قوم اسأل المولى قادر على جمعك
من غير حبيبك جميع الطب لك بطل!

أعرف هذا يا جمعة وأدريه وأعياه وأتعذب، لوعتي يا رجال تكفي
عشرات منكم لتكونوا أعظم المحبين، رأسي يدور بنشوة غابت عني
أيامًا بطول سنين، قاومت كثيرًا كي لا أعود إليكم، لكنني لم أستطع،
كدت ألحق بحنفي بعد أن تركني بثوان، جلست مع الرجال في الزقاق
فكدت أختنق، حديثهم جاف ثقيل، ووجوههم صارمة جامدة
مهمومة... انطلقت فجأة كالمجنون وكأني أحطم قيودي... كنت أعدو
في الطريق كالعطشان يبغي نبع ماء عذب... لاحت لي البوطة من بعيد
كشاطئ يسعى إليه غريق... ضجيجكم وصراخكم حبيبان إلى قلبي،
جسد كايداهم ملتصق بجسدي... ورائحتها تملأ صدري... حبي مرض
لا أدري كيف ولماذا أصبت به؟... اصرخوا وصيحوا وصفقوا وافغروا
أفواهكم وعبوا من البوطة واحملوني على سحابات اللذة لأرتع
لحظات فبعدها حرمان... أبي وأمي وأهلي في حاجة إليّ، وأنا أحبهم،
وأحبكم، وأتمزق بينهم، وبينكم...!

كايداهم تنهض من جواربي لامرأة تقف عند الباب، تخطف الملاءة
من زين وتختفي في الظلام قائلة إنها ستعود... كلكم تعرفون هذه
المرأة كما أعرفها، جميعكم تعلمون أنها ذاهبة لتقدم جسدها لرجل
غيري، زبون لا بد وأن يكون له شأن وإلا لما تركتنا!... هل أنا رجل
كالرجال؟!... من منكم يحس ما أحس به؟... كلكم تنظرون إليّ في
ترقب منتظرين إنشادي وأبياتي وشعري، دموعي قريية تكاد تطفّر من

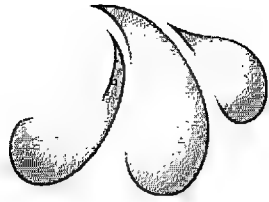
فرط اللذة والألم والخزي جميعاً... اسقوني أولاً، هكذا، ثم خذوا
إنشادي لعلكم تشعرون:

ما تلو مونيش يا ناس، أنا لي حبيب غائب
قاعد معاكم لكن عقلي الذكي غائب
إن مت يا إخوان واللا صابني صايب
ابكم بحرقة، وشيلوا جسمي برتاب

حنفي ينهض كأن ثعباناً لدغه، وجهه وهو يمضي ينطق بما
لا أعرف!... أني لك يا حنفي أن تفهم الحي؟... كيف تعرفه وقد
شبيت في زقاق السيد البلطي؟... والدك أسطورة يا ابن عمي يتغنى بها
الناس على الشاطئ، وأبي عجوز كادت المياه تبتلعه لولا رحمة
الله!.... ولو مات لما قالوا إنه تزوج جنية، فهو لا يصلح!... وراءك
ماض هائل تستند إليه وتفاخر به... شاطئ مهجور تقف أمامه كل
غروب وتتأمل مياهه في عشق، أتحسبني غافلاً عما تفكر فيه؟!... إنك
تريد أن تعيد السيرة وتبدأ القصة من جديد، تسير الآن في ظلام الطريق
جامد الملامح سريع الخطوات، ستصحو في الصباح كعادتك وتسبقني
إلى الشاطئ... سيخرج أبي معنا غداً أو بعد غد فلن يطول رقاذه، لن
أسلم من لومه وتقريعه... أحس كأني طائر في الهواء معلق لا أرض
لي... خذوني يا رجال في أفواهكم، اغمروني بصيحاتكم، أنسوني
حبية القلب التي تتمرغ الآن في أحضان غيري... أنشد يا جمعة أحياناً
تشفي غليلي أو تزيد من النار المشتعلة في ضلوعي... اصرخوا
واضحكوا وضحوا واذناني فما عدت أحتمل!..



الفصل الرابع عشر



أهو مجنون؟!

ليكن... أصبحت لا تطيق، صدرها يجيش بما لا يستطيع أن يتحمله إنسان، مضى عليها اليوم تعساً قلقاً، ونهشت التعاسة والقلق أعصابها بلا رحمة... أكثر ما تخافه أن يجرها... أن يهملها أو يحتقرها، وحتى لو فعل، فالتضحية رخيصة مهما دفعت... غير أنها لم تعد تستطيع الصبر.

نام أبوها، ونامت أم حنفي وعائشة، وسكنت الحركة في الزقاق كله، وعم الظلام وكثف حتى لم تعد ترى كفها التي بسطتها أمام وجهها. غادر حنفي والرجال زقاقهم في الصباح، وذهبت لتجلس مع خالتها وابنة خالتها وبين كفيها كوب الشاي، جلست معهما وتحدثت إليهما، وراح الحديث بينهن وجاء، وثرثرن فيما يقوله الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان، والمستقبل المخيف الذي ينتظر رجال الشاطئ... وقالت من وراء ذهنها ما سمعته من أبيها: «ده كلام فارغ، دول الرجاله اللي غاويين لت وعجن، ومنين عبد الموجود يجيب تمن مركب زي دي؟ ... أبويا قال كده يا خالتي!».

غير أن سفينة عبد الموجود حمدان لم تكن هي التي تشغل بال خالتها في ذلك الصباح، كان هناك شيء آخر راحت العجوز تلوكة في

ذهنها وتعبر عنه بكلمات غامضة، كانت كمن يكتنم في صدره أمراً رهيباً لا يريد البوح به، على أنها سرعان ما انفجرت بلا تحفظ تبكي وتنوح وتبوح بما يخيفها، وهي مؤمنة أشد الإيمان أن حنفي خاوى جنية مثلما فعل أبوه... انقبض قلب زوبة رغم قدم الحديث، وبهتت عائشة لبكاء أمها، ورعبها البادي على وجهها، وراح الحديث ينزلق بين ثلاثتهن، وكل منهن تحفر له مجرى يلائم هواها.. قالت أم حنفي إن زوجها جاءها في المنام وقال: «ابعدي ابنك عن الجنية!»، وكل شيء يؤكد مخاوفها وقلقها: «أمال مش عاوز يتجوز ليه؟! ... المهر جاهز، والعرايس على قفا من يشيل!».

وتساءلت زوبة بينها وبين نفسها: «حقاً، لماذا لا يتزوجها؟ ... هل عائشة هي السبب الوحيد؟ ... هناك علامات! نظراته، صمته العميق، رأيه الصائب، قوته ... ثم، من أين يتأتى هذا الرجل إن لم يكن قد خاوى حقاً؟!».

وكان شيئاً رفعها إلى السماء، ثم ألقي بها إلى الأرض فتصدعت، أحست كأن روحها قد فارقتها، وانتابها الرعب، وأمه تقول في ولولة: «عملها، عملها زي ما عملها أبوه، واحدة من إياهم رابطاه، يا حسرتي!».

تشاغلّت أصابع زوبة بأطراف شالها وهي ترجف، وقالت عائشة في لهجتها القاسية المريرة:

«مش بعيد والنبي يعملها، ما هي عيلة البلطي مبلية!».

وصاحت زوبة بلا وعي:

«فألله ولا فالك يا عيشة، نفى من بقك يا ختي!». .

فردت عليها عائشة في جبروت:

«أمال مش عاوز يتجوز ليه، هو مش راجل زي الرجالة؟».

وأرخت زوبة عينيها أمام نظرات عائشة الغامضة القاسية ... هل كشفت سرها؟! ... هل عرفت أنها تحب حنفي؟! ... رفعت إليها عينين مبللتين بالدموع، لكنها وجدت عيني عائشة في انتظارها، ولم تعد تحتمل، فنهضت متعثرة لا تلوي على شيء.

ومضى النهار ولم يأت، وجزء كبير من الليل ولم تدب قدماء على أرض الزقاق ... وكانت قد قررت في نفسها أمراً، ليكن ما يكون، ليحدث ما يحدث، لتطبق السماء على الأرض، لكنها ستأله إن كان قد حاوى حقاً؟

عند الضحى كانت جالسة في وجوم عندما وجدت عائشة تقف فوق رأسها كالسيف وهي تقول في دهاء:

«اللي واخذ عقلك يتهنى به، بانادي عليكى بقالى مدة!».

انكشف المستور وتعرى، حقيقة مشاعرها تصرخ في كل من يراها، وحقيقة مشاعره هو لم تعد مجالاً لشكها، ولكن ...

لم يرها في الصباح وهو يغادر الحجرة، وعندما خرجت إلى الفناء وجدته واقفاً عند باب البيت في انتظارها ... شبكتة على كتفه، ولاسته فوق رأسه، وعيناه تحمقان فيها بجسارة، خفضت عينيها وقلبها يرقص في طرب:

«صباح الخير يا سي حنفي!».

لم يرد التحية، وتحركت شفتاه في قلق، وأحست - ولا تدري كيف - أنه يريد أن يقول شيئاً... تقدم منها خطوة، واقترب منها وهو يرد تحيتها بعد طول صمت، ثم اعتدل في وقفته وهم بالحديث، لولا أن هوى صوت عائشة فوق رأسيهما كمطرقة شيطان:

«الله، انت لسه ماتو كلتش على الله يا خويا؟!».

وأفلحت اللئيمة فيما أرادت، جعلته يفر من البيت كمن تلاحقه النار، استدارت إليها فلمحت على وجهها ابتسامتها الصفراء الساخرة، فابتسمت دونما رغبة في الابتسام، وقالت كأنها تستجلب رضاها:

«ربنا يحميه لك يا عيشة!».

مصمصت عائشة وهي تقول:

«يحميه لي أنا لوحدي؟!».

«يحميه للزقاق كله!!».

وغادرتها وفي قلبها ثورة ظلت تزداد اضطراراً لحظة بعد أخرى، ما الذي كان يريد أن يقوله لها؟ ... خمنت، وقلبت الأمر على كل وجهه دون أن تستقر أو تهدأ، خيل إليها أنه سيقول لها: «باحبك يا زوبة»... وأحياناً أخرى تخيلت أنه سيقول لها: «أنا رايح لابويا صادق بعد الطرح طوالي»... ثم قالت خالتها ما قالت، وقالت عائشة ما أرادت، وأحست أنها تهوي إلى قرار مظلم.

ومضى النهار كأثقل ما يمر نهار، غسلت وطبخت وثرثرت وزارات وعادت، وكانت تنتظره في كل دقيقة لتسأله، وتستأله!

الليل ساكن بارد، وشخير والدها يملأ الحجرة، والباب مفتوح نصف فتحة، وعيناها محمقتان في الظلام، وأذناها تتسمعان حديث الريح وتنتظران بلهفة دبات قدميه، وما إن تسمعها حتى تنهض إليه وتلتقي به في الفناء...و... وليحدث بعدها ما يحدث!

هل نامت عائشة؟!...

أهذه خطواته؟! ... ن... ن... نعم! ... نعم هي!

عنفت دقات قلبها حتى أوجعت صدرها، ونهضت كالملسوعة وقد توترت كل أعصابها، لكنها تسمرت في مكانها كأن قوة تشدها إلى الأرض، واقتربت الخطوات واقتربت، ثم خفت سرعتها، وصر باب الطريق، واندفعت كالمجنونة!



حدث كل شيء دون أن تدري وكأن هناك من حملها وألقى بها في أحضانها!!... مرة واحدة وجدت ذراعيه تضمانها إلى صدره في قوة... فجأة تحققت كل أحلام يقظتها ومنامها، اللحظات التي سبقت ذلك سقطت من عمرها، ولا تدري أهو الذي همس:

«زوبة!».

«سي حنفي!».

وساد الصمت إلا من أنفاسها وأنفاسه، أرادت أن تتراجع مبتعدة عنه فاقتربت حتى التصقت به أكثر... كان جسده ملتهباً، وكانت ترتجف في عنف، وخافت، غير أن شفثيه بددتا كل خوف.

جذبها إلى الحجرة الخالية في طرف الفناء، فانقادت له بلا تفكير...
ليصنع بها ما شاء... قبلها بجنون أفقدها الوعي فتعلقت بعنقه في
الظلام وراحت تغمره بقبلاتها، سقطت شفتاه فوق أنفها وعينيها
وجيئنها وشعرها وشفتيها.

«سي حنفي!».

أهذا صوتها أم صوت قلبها!... أصابعه مغروسة في لحمها، ليتها
يغرسهما أكثر... ما أعذب أن تتألم من فرط قوته، خارت قواها ولم
تعد تستطيع الوقوف فترنحت، ارتجفت ساقاها وتهاوى جسدها بين
ذراعيه... ما، ما الذي حدث؟!

«سي حنفي... اخصص عليك!».

الغريب أنها تتدلل، بل وتبتسم!

سقط الحجاب واخترق وتبخر وكأنه لم يكن، ماذا سيقول عنها بعد
ذلك؟!... ليقبل ما يحلو له، ليظن فيها الظنون، ليهجرها إن أراد، فهي
تجبه، وستجبه، وتقبله كلما استطاعت الوصول إليه، ما ألد العيب
لو كان العيب والفجور هما حنفي وشاربه وشفتيه.

جذبها، لا لا، حملها فجلسا على الأرض اللزجة متجاورين،
لا... ملتصقين، لا لا... ممتزجين!

وتلاشى من الدنيا كل شيء، حتى هو لم يعد له وجود... لا أهل
ولا خير ولا شر.

دفنت رأسها في صدره، وانهمرت أنفاسه لتدثر وجهها بغلالة دافئة،
وأخذت تهدأ رويداً رويداً... لكنها كانت تشعر برغبة عريضة لا تقاوم،

وانقشع على غير توقع ستار الخجل فانطلقت ... ماذا سيفعل بعد ذلك،
و... هل يفعل؟! ... هل تدعوه؟! ... أي فجور هذا يا بنت البلطية؟! ...
لكنها - للعجب - ضحكت لحلاوة ذلك الفجور، وهزت رأسها
وكانها تطرد عنها أشباحاً من نار... هل يقاوم هو الآخر ما تقاومه؟
وهل تراوده نفسه؟ همست لنفسها باسمه أنها عريضة فاجرة معجونة
بماء النار! ... فليكن الدنيا برد! ... حنفي يتعد عنها قليلاً، فابتسمت في
دهاء.. إنه يقاوم!! وأحست بالسعادة كما لم تحس بها من قبل،
ولكن... لماذا لا تلقي إليه بالطعم لعله يتلقفه ولتر ما يقول:

«ليه عملت كده يا سي حنفي؟!».

كاذبة... لكن كذبها له حلاوة العسل...

كانها رأيته في الظلام يتسم، فارتجفت في انفعال وتداخلت في
نفسها، ثم اقتربت منه - كالقطة - وأوت إلى صدره وراحت تزوم!
«بردانة يا زوبة؟!».

«ليه عملت كده يا سي حنفي؟!».

ليست كاذبة هذه المرة تمامًا، شيء كان ينبعث من أعماقها فتجيش
به نفسها... فجأة، أحست إحساساً غامضاً بالسعادة والألم معاً... كيف
فعلت ما فعلت؟! كيف أقدمت؟! ... ما الذي دفعها إلى هذا الجنون؟!
«وبعدها معاكي يا زوبة؟!».

دموعها تنهمر من عينيها... دموع ندم أم دموع فرح؟ ... لم تكن
تدري. ثمة رغبة حارقة في البكاء... فقط أرادت أن تبكي، صفت الدنيا
في عينيها كصفاء السماء في ليلة صيف ندية، صدرها هادئ ساكن،

كسطح البحر بعد عاصفة هوجاء.

«بتبكي يا زوبة؟».

هزت رأسها دون حديث. لذة لا تعادلها لذة. تعمل اليوم بطوله دون توقف، وتقضي الليل بطوله دون نوم، وتنتظره في النهار والليل...
ما الذي يدريه هو عن دمعها؟!

«لإمتى حايطول الانتظار يا سي حنفي»

«حانكلم أبويا صادق، نكلمه وخلاص ... نتوكل على الله واللي
يحصل يحصل!»

«والجنية؟!»

«جنية إيه يا بت؟!»

«اللي انت مخاويها!»

انفلتت ضحكته رغماً عنه، فزم شفثيه في قوة، وأخذ جسده يهتز،
وتسللت أصابعها إلى شعيرات صدره كما تسللت الراحة إلى قلبها،
وعادت تقول في دلال:

«بتضحك على إيه يا سي حنفي؟»

«مين اللي قاللك الكلام ده؟»

«خالتي...»

«يا بت اعقلي، أنت بتصدقي؟!»

«طب وعيشة؟!»

قالتها دون وعي، ويا ليتها ما فعلت ... لو كانت دموعها في البداية ماء، فجفاف عينيها بعد ذلك لهب ... صمت دون جواب، وطال صمته، وزفر في ضيق ... وتعلقت أنفاسها في انتظار كلماته ...

«والله ما آني عارف يا زوبة، إيش قولك إنتي؟».

«اللي تشوفه يا سي حنفي».

«عيشة منكسرة يا زوبة، وملهاش غيري».

«وآني لي مين».

أحست بابتسامته في تلاعب أصابعه بيدها، فابتسمت وعاد إليها هدوؤها، لكنها ما لبثت أن انقضت عليه بدعاء تتزع منه ما حلمت بسماعه طيلة أيامها ولياليها:

«بتحبني يا سي حنفي؟!».

«بنجبك؟! ... ربنا اللي يعلم، ياما ليالي مابنشوفش فيها النوم يا زوبة! حاسس من غيرك إني مش عايش ... وإنتي يا بت؟!».

كلماته تبتسم، فابتسمت هي الأخرى وقالت بسرعة خاطفة:

«أيوه!».

«أيوه إيه يا بت؟»

«الله ... وبعدين معاك؟!».

«عارفة يازوبة، آني نفسي في ثلاث حاجات».

رفعت شفيتها إلى شفتيه وطبعت عليهما قبلة ... وأحست أنها تزد عطشاً...

« نفسي في قارب ... ونفسي في شبكة جديدة! »

« والحاجة الثالثة؟! »

ونخسها باصبعه في جنبها فقفزت ضاحكة، وامتدت كفه إلى فمها يحجب الضحكة المرححة عن أسماع النائمين ... واستسلمت لكفه، ومالت معه حتى لامست رأسها صدره، وأغمضت عينيها!

وعاد الصمت من جديد، ومال حنفي على وجهها فلثمه في هدوء وقد تطايرت من رأسه آثار البوطة تمامًا ... أحس براحة شديدة وهو يضمها إلى صدره، بدا كل شيء له بهيجًا، وتذكر غناء محمود وشعره فابتسم في حب. لولا هذه الأبيات لما اكتوى بنار الوجد ففر من البوطة هاربًا ... وأخذت أفكاره تترتب في ذهنه فكرة وراءها فكرة، وصفا تفكيره وهدأ فراح يقول كأنه يحلم:

« بقي عندي ثلاثة وستين جنيه يا زوبة، ندفع منهم مهرك ويفضل

تمن قارب وشبكة! »

« وحانسكن فين؟ »

« هنا، في الأوضة دي »

وأخذوا يحملقان في الظلام، ويتحسسان بنظراتهما جذران الحجرة الخالية وأرضها، وجذبتهما الأحلام فراحا يؤثثانها ... وضعت زوبة دولابًا في الركن الأيسر، والفراش بجوار الباب - في مكان جلوسهما - وفرشت على الأرض كليماً أسيوطيًا، وأنجبت له ولدين وبنتين، وزوجت عائشة من ابن الحلال ... و ... وضحكت من قلبها، وضحك من قلبه، وسرقتهما السعادة فلم يشعرأبزمن،

ولعل صوت المؤذن فلم يسمعه، وسعلت أم حنفي فانتفضا
مذعورين.

تسلل حنفي إلى حجرته عندما كانت أمه تتقلب على جنبها لتنهض
وألقى بنفسه فوق الحشية وتوسد ذراعه وأخذ يحملق في السقف
سعيداً... وحاول أن يفكر، أن يستعيد ما حدث، حاول... حاول...
ولم يفلح!

ذابت الأفكار والأمانى والأحلام في رجفة الرضا التي اجتاحتها،
وبقي عقله خالياً من كل شيء، وظلت أحاسيسه على مستواها من
السعادة وكأنه توقف تماماً عن الحياة. ثم حاول أن يمسك بطرف
الخيوط، تذكر أشعار محمود في البوطة، ثم نساها... وهبطت زوبة
على ذهنه، وذابت... وحل محلها حمودة، وتميع.. وفزت كأيدهم
برقصاتها، واختفت... وسعلت أمه مرة أخرى، ثم غاب عنه صوت
سعالها... واستشعر أحضان زوبة، وفر من ذكراها... ونادت عليه أمه،
فرد عليها بلا وعي:

«أيوه يامه صاحي!».

شهقت العجوز وهي تتحسس مكانه ببصرها الكليل:

«كفى الله الشر يا بني، إيه اللي مصحيك؟».

وانشق صوت عائشة في الظلام كعواء مقبض:

«وهو نام علشان يصحى!».

وهب حنفي في مكانه كالملدوغ، حملق أمامه في غضب، أتكون
عائشة قد أحست بالأمر؟

«قصدك إيه يا بت؟!».

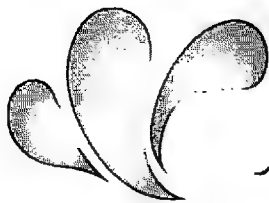
«ولاحاجة يا خويا ... دانت لسه داخل أهو!».

«وانتي مالك يا مقصوفة الرقبة؟!».

وصاحت أمه:

«مالها إزاي ... صحتك يا ضنايا!».

وبدأ موال كل صباح.



الفصل الخامس عشر



بدأ موال كل صباح، لكن عائشة لم تكن ككل صباح، كان الشك قد تحول إلى يقين، والخوف من المقدر أصبح حقيقة هوت فوق رأسها بعنف وقسوة... فذعرت، وحنقت، لا... ثارت، بل أصبحت وكأنها إنسان وقع بين برائن وحش خرافي ولم يعد أمامه سوى الدفاع المستميت.

كيف تحتل الأمر؟... كيف يتزوج حنفي قبل أن يزوجها؟

لا... لم يحدث هذا، لن يحدث...

ليس أمامها سوى طريق واحد، ليس هناك غيره... هبطت من الفراش وهي تتدثر بشالها وتثاءب، وتنظر إلى شقيقها بنصف عين، قوة غريبة تتوالد في أعماقها، عقلها يتحرك بسرعة، وبجنون، لسانها يتلاعب في فمها غير قادر على الصمت، اختلست نظرة أخيرة من حنفي ووجدته مطرقاً... فيم يفكر؟ هل عقد النية على أن يفعلها؟!...

«يا بني اسمع كلامي، ما هو لو كنت متجاوز ماكتش سهرت الليالي، كنت لقيت واحدة تلمك، يا واد اعقل!».

ولم يرد حنفي، لم يفه بكلمة، كل ما فعله أنه زفر من أعماقه... إذن، فلم يعد هناك مجال للتردد... ليس هناك وقت، ووجدت لسانها يتحرك، وصوتها يخرج وكأنها في حلم:

«والله يا امه ما عرفت أناام الليلة ولا دقيقة، زي ما اكون سمعت رغي وكلام وحديث في الحوش، قلت بسم الله الرحمن الرحيم، وعطشت، مديت إيدي للقلة لقيتها فاضية، خفت اطلع برة، عطشت زيادة، قلت يعني يا بت حيكون مين، إلا يعني حايعون مين، خرجت أشرب من الزير... و...».

وصمتت، والتقت عيناها بعيني حنفي، فيهما ألم، و... وتوسل، ارتجفت، وازدردت لعبها، ثم استدارت نحو المصباح، وسألتها العجوز:

«وليه يا بت؟...».

ولم تستطع أن تمنع نفسها من الحديث... لم تستطع، ولم تستطع أن تخوض فيما كانت تريد الخوض فيه، هل فهم حنفي؟... هل يتراجع؟... عيناها معلقتان بوجهها، وشفثاه مطبقتان في عزم... «أنا عارفة بقي يا امه، آهو تخاريف نوم، فين الكبريت؟».

وأضاءت المصباح ثم انفلتت مسرعة إلى الفناء لتعد الشاي... ورأت زوبة...

«صباح الخير».

وكانت زوبة تبسم... وجهها مضىء بنور سعادة لم تستطع إخفاءها...

«صباح الخير يا عيشة».

كأنها لم تفعل شيئاً، كأنها لم ترتكب إثماً... واندلع في صدرها شعور بالكرامية، والبغضاء، وتمنت أن تصفعها، أن تكشف للناس

سرّها، أن تذللها، وفي قسوة، أن تمزق تلك الابتسامة المترسمة على الوجه الجميل وتسحقها بقدمها... ووصل إليها صوت أمها من الداخل:

«يا واد اسمع كلامي وريح قلبي حرام عليك!».

المعركة تبدأ وهي بعيدة عن الميدان، يجب أن تنتقل إليها وإلا انطبقت السماء على الأرض، ووافق حنفي... واندفعت بلا وعي إلى الحجرة...

«فين الشاي يا بت».

«على النار... ا... ا... آديني باولع البابور!».

كان واجماً مطرقاً، جسده مكوم ورأسه مدفونة بين ركبتيه، وكالمنومة وجدت نفسها تقول:

«زي ما اكون سمعت يا امة...».

ونهض حنفي مندفعاً، وأزاحها عن طريقه وهو يغادر الحجرة دون أن ينتظر الشاي، ودون أن يشعل سيجارة، ودون أن يلقي عليهما النحية، وزغردت الفرحة في صدرها... انتصرت، ولكن... لماذا أذت أخاها؟ لماذا أذته؟!... أطلت وراءه وراحت تناديه، لكنه لم يرد عليها، ولم يلتفت لزوبة التي استقبلته بابتسامة انتشرت على صفحة وجهها فملأته، كأنه لم يكن في أحضانها منذ دقائق... رفعت إليها عينيها، وفاضت نفسها برغبة عنيفة في الإيذاء... كيف تبتسم له الفاجرة كل هذه الابتسامة، ألم تندم؟... ألا تخجل؟... ماذا حدث للنديا؟...

الغريب الغريب، والعجيب العجيب، أن يحدث هذا في عائلة البلطي، في زقاق السيد البلطي، وفي بيت حنفي البلطي، بل حنفي

البطل هو الفاعل دون غيره... ماذا بقي لها بعد ذلك، لن تلوم بعد اليوم أحدًا لو تعرض في الطريق وسار أمام الناس يعرض عليهم عورته... اهتزت الدنيا وارتجت من حولها، ولم تصدق، بل هي لا تستطيع أن تصدق.

مرتاحة؟... نعم، راضية؟... لا!!

أيقنت في ذلك الصباح أن حنفي لم يخاو كما فعل أبوها، بل خاوى زوبة... وقد كانت تتمنى - في أعماقها - أن يزوجه السيد البطل من إحدى أميرات البحر لترتاح من رعبها وقلقها وترقبها... كتمت هذا الإحساس ودفتته في أعماقها دون أن تجرؤ على جذبه إلى ضياء التفكير الواضح...

وكاد رأسها ينفجر... وجه زوبة تغير فما عادت زوبة التي ألفتها ولا عرفتها... وجه العالم تغير وتبدل، أصبح ذا لون شاحب وملامح مطموسة. بمن تستجير؟!

ترى هل كانت تفعل مثلما فعلت زوبة لو واتها الفرصة مع السيد أفندي؟!

فعلتها التي أقضت مضجعها وأطارت النوم من عينها، وأسلمتها لرعبة ورعب شديدين، باتت الآن ماسخة لا طعم لها... عذابها أبله، وخوفها سخي، وأرقها طفلي لا يعني شيئًا. كل ما فعلته هو أنها أسلمت كفها لكفه مرة، هذه فعلتها المشينة... وباتت ليلتها تبعد كفها عن جسدها وكأنها لامست الشيطان نفسه. لو استجابت لمناجاة الرجل لما خسرت شيئًا، بل لربما كسبته زوجًا. أحست باشمئزاز ونفور أشد

عندما ذكرته... كلماتها معه على السلم خطيئة ظنت أنها لن تمحى من تاريخ البلطية إلى الأبد... ضعفها أمام نظراته، وانهارها أمام توسلاته أسلمها فريسة للهم والقلق حتى جافته وصدته وزجرته، فارتاحت نفسها بعد طول عذاب واستقرت بعد طول أرق وقلق... ورغم هذا لم يكف السيد أفندي عن زيارة أمها، ولم يكف عن التهامها بنظراته، ولم يكف عن إلقاء الكلام بألف معنى، وكانت تفهم ما يقصد... توسل وحایل ولو أرادت لركع أمامها، لكنها رفضت، ثم هددته بالأمس أن تخبر أخاها بمحاولاته، فارتعب، وارتعبت هي الأخرى لقولها الذي لم تتركه في ذهنها، بل وجدته ينطلق من فمها وكأنها كانت تكفر به عما اقترفت من ذنوب!...

قال لها الرجل في صوت مرتجف وهو يغادر البيت:

«أنا قصدي شريف يا عيشة!».

فقالت بجبروت وقسوة:

«اللي قصده شريف يا سيد أفندي ما يكلمش حريم!».

فر الرجل مذعورًا... وربما لن يعود. ومضت ساعات قليلة، ثم شاهدت أخاها في أحضان ابنة خالتها، كان يقبلها، سمعت صوت القبلات بأذنيها، ضمها إلى صدره، سمعت تنهات الفاجرة وزفراتها وهمسها... وتقلص جسدها من الانفعال، ووقف شعر رأسها ألما ورعبًا، ولم تدر ماذا تفعل.

كان الظلام حالكًا حقًا، لكن خيالها أضاء الظلام وألقى فيه بكتلة من ضياء لا يخطئ في نورها الأعمى. سمعت النجوى والهمس

وصوت القبل . ليتها ما أرقّت، وليتها ما عطشت وما غادرت الفراش،
ليتها ترددت وصبرت حتى يطلع النهار... ولكن ما حدث قد حدث،
وما كان قد كان... انهار كل شيء، وتحطم الإله، وتمرغ ابن السيد
البطني في طين الحجرة الخالية.

«بت يا عيشة... إنتي حاتنعمسي، فزي هاتي لي كباية شاي!».

أمها مطرقة تفكر... كل ما يشغل بالها هو حنفي وزواج حنفي
وكأنها لم تنجب غيره... أمها تفكر في حنفي، وحنفي يفكر في زوبة،
وهي وحيدة تكاد تموت من البرد!

هل أخطأت أم أصابت؟!

لم تأت زوبة كعادتها كل صباح... فلتنادها لترى ما تصنعه
الفاجرات حين يتحدثن... طوفان رهيب من الكراهية والحقد يجتاح
نفسها ويطنغي ويفيض فترتجف لهول إحساسها به... هل تكره
زوبة حقاً؟!

«يا زوبة... زووووية!».

جاءت بلا كلمة، ذليلة، شاحبة الوجه، منكسرة العينين، لعل خروجه
دون تحيتها قد أثار في نفسها الخوف... لتعذب تلك التي كانت سعيدة
وهي في أحضان حنفي، ولتعذبها هي أكثر، وتتلذذ...

«ما تيجي يا ختي، إنتي نعستي واللا إيه؟!».

صعدت إلى الفراش، وجلست متربعة يداعبها النوم، ويتراقص
رأسها فوق رقبتها، رأس مليء بالخبث والمكر، ووجه جميل يخفي
وراءه إثماً فاجراً!

أعدت الشاي وصبته في الأكواب، وجلست تتأملها وتنتظر الفرصة
للانقضاء، كوب الشاي يهتز في يد أمها، ستعود إلى النوم من
جديد كعادتها، وتركهما وحدهما لتبادلا الحديث، وسيكون اليوم
حديثاً شيقاً...

«باين عليكى مانمتيش الليلة يا زوبة».

شيئاً فشيئاً حتى تكون اللذة أقوى، الرعب يطل في عينيك يا فاجرة،
ليت أخي يرى وجهك كما أراه الآن، لكنني أعلم أنه سيحبه... أنت
كالشيطان، بل أنت شيطان زين لأفضل الشباب والرجال طعم الخطيئة
فوقع... ترى لو طال بكما الوقت، أكنت تسلمينه نفسك؟!... وما
يدريني ما حدث قبل أن أنهض؟... لعله عبث بنهديك، وجاس بأصابعه
خلال صدرك... وتحسس بكفيه بطنك... و... ومن يدري؟!

نار قلبي تزداد اشتعالاً، ولن تبرد ناري قبل أن أهوي بالحقيقة فوق
رأسك لأهشم كبرياءك... ولكن لا، قطرة قطرة لأتشفى على مهل.
جميلة حقاً، وممتلئة حقاً، لكنك فاجرة... ومن الفاجرات من يفقن
في جمالهن ملكات يعشن في القصور. لو كان أبي على قيد الحياة
لعرف كيف يربي هذه العائلة... ولكن حسرتي شديدة، لقد ذهب دون
أن يترك وراءه رجلاً يخافه الناس، ولا حتى تخافه حريمه.

«ما لك ياختي، زي ما تكوني بايتة بعيد عن فرشتك!».

«أبدًا يا عيشة، بس الدنيا برد قوي يا بت خالتي!».

يا ناعمة اللسان، الضوء يتسرب من النافذة، والنهار يطلع ليكشف
عن خبايا الليل والظلام.

«طب اظفي اللمة النهار طلع!!».

أطيعي كالخادمة، لا شك عندي أنك خممت ما يدور في رأسي،
لا عمل لك إلا التنصت علينا وسماع ما يدور بيننا، لولا جنون أُمي
وتخريفها لما طاف بذهن أخي أن يفكر في الزواج من عاهرة مثلك...
يليق بابن السيد البلطي أن يتزوج أميرة من الأميرات، ترفعين رأسك
وتنظرين إليّ بلا خجل... والله لأكسرن هذا الرأس...

«إلا قول لي يا زوبة... أنا شايقة ياختي فرشتك زي ما هي، انتي
مانمتيش عليها الليلة وإلا إيه؟!».

«وبعدين معاكي يا عيشة، مالكيش دعوة بيه يا بت خالتي!».

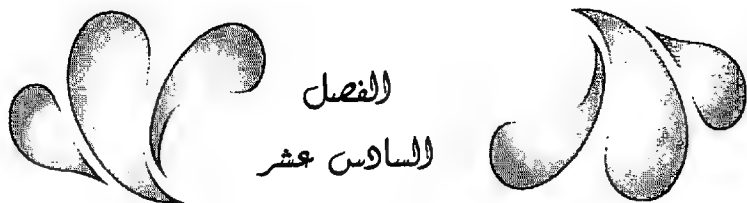
«يوه... هو أنا قلت حاجة لسه!!».

«فتك بعافية!!».

تردين عليّ وكأنك طاهرة الذيل؟... وتغادرين الحجرة غاضبة؟...
ولكن إلى أين؟... في النهار متسع، بل في العمر ما يكفي لأسقيك المر
على مهل!

فلأدثر عظامي الناتئة، ولأغفو قليلاً فقد تعبت... لماذا يطلع
النهار؟! لماذا لا تظل الدنيا في ظلام أبدي؟... ترى، متى يعود السيد
أفندي؟... لو عتي عليك يا كفي، متى تذوق لمساته مرة أخرى؟!
هل يعود إلى الزقاق؟...

يا لي من مجنونة!!... كيف فعلت معه ما فعلت؟!



الفصل السادس عشر

أشرق الشمس، ولم يطل قرصها الدافئ على الناس... وأيقن حنفي وهو يغادر الزقاق أن اليوم لن يكون فيه صيد، كانت السحب الكثيفة السوداء تحجب السماء عن النظر، وسطح المياه مربدًا، والريح عاصفة... وقد سار في الشوارع والأزقة شارد الذهن، وكلمات عائشة لا تزال تطن في أذنيه، وكان أكثر ما يعذبه أنه لم يستطع أن يرد عليها، أو يوقف حديثها... بل هو لم يستطع أن يرفع عينيه!

مر به رجل وألقى عليه التحية، فلم يسمعه، ولم يرد تحيته، اقترب من باب الرصيف تقوده قدماه دون وعي منه، واجتاز الباب في سرعة كأنه يهرب من شيطان يطارده... رأى الرجال وقد تجمعوا أمام قواربهم الخالية منكمشين من البرد، تتلاعب الرياح بسر ويلهم الفضفاضة، وتدفع القوارب المتراسة بجوار بعضها فتحتك جوانبها مرسلّة أزيزًا يثير الأعصاب... ولمح محمود يقف مستندًا إلى جوار المقهى شاحب الوجه، محمر العينين، سارحًا ببصره إلى الأفق البعيد، فأيقن أنه لم ينم ليلته هو الآخر... اقترب منه وألقى عليه التحية، ثم وقف بجواره يرقب الحياة من حوله يبصر زائغ وعقل غائب.

هل سمعت عائشة شيئًا؟... هل رأتهما؟... صوبت حديثها إلى صدره كأنها تطلق سهامًا تعرف أين تصيب!... كيف أقدم على ما أقدم

عليه؟... وكيف سمحت له زوبة بذلك؟... ولماذا انتظرت؟... هل هو نادم؟

بحث في أعماقه فلم يجد سوى الرضا، وبجانب الرضا عشر على شيء كالقلق، كالاضطراب، كالضيق الذي يتتاب المرء عندما يصنع شيئاً غير مألوف، والناس من حوله في دهشة!

أيقظه محمود من أفكاره عندما قال:

«أبويا نزل يا حنفي، أبويا وصل!».

بوغت حنفي بحضور المعلم محمد البلطي، ارتجف لسماع اسمه، واعترت جسده قشعريرة باردة عندما رأى عمه يخطو فوق حجارة الرصيف وسط الريح بقدمين ثابتتين... ترى ما الذي يحدث لو علم أهل الزقاق بما حدث؟... كيف يواجههم إذا زلّ لسان عائشة وفقدت صوابها وقالت شيئاً؟!

تدافع الرجال نحو المعلم محمد مهنيين، وتقدم حنفي نحو عمه وانحنى على يده ليقبلها... وكان واضحاً أن المعلم محمد سعيد بعودته إلى الشاطئ، سعيد بشبكته الجديدة الملقاة على كتفه... وقد رفع العجوز عينيه ناظراً إلى الأفق المظلم، وقال في مرج:

«يظهر أن البحر يبعاندني يا رجاله، يوم ما ننزل يعمل الموج عمايله... يالله بينا على القهوة، مفيش فايدة!».

وأطلق ضحكته مجلجلة وهو يتجه إلى المقهى الزجاجي القائم على الرصيف، يتبعه الرجال منسحبين واحداً وراء الآخر، تاركين وراءهم قوارب خالية تتأرجح فوق سطح مضطرب.

كان من عادة الرجال في الأيام العاصفة التي يتعذر فيها خروجهم إلى الصيد، أن يتجمعوا في المقهى، يرقبون مياه البحر المتلاطمة، ويدخنون ويثرثرون ويشربون الشاي في إسراف، وكأنهم في يوم عيد... كانوا في تلك الأيام النادرة يمضون أوقاتاً هي في غالب الأمر أجمل أوقاتهم، لولا ما كان يشوب ذلك الجمال من قطع رزق، أو احتياج إلى المال.

على أن شعورهم في ذلك الصباح، كان - على غير العادة - مضطرباً بالتوتر والقلق، كانوا مسرورين لمواتة الفرصة أخيراً لتجمعهم، بعد أن أضناهم ذلك الخوف الذي يسيطر عليهم كلما مر يوم وتناثرت الأقوال حول أسطول الصيد المزمع إنشاؤه.

كانوا يلتقون كل يوم بعد الغروب في المقاهي التي اعتادوا التجمع فيها، غير أن إحساساً غريباً كان يبعد كلاً منهم عن الآخر، إحساساً بالخوف أن تتجسد الكلمات التي يلوكونها حول هذا الموضوع فتصبح حقيقة، وأن يواجه كل منهم الآخر بما يعتمل في نفسه... ورغم أن أحاديثهم حول هذا الموضوع قد كثرت في الأيام الأخيرة، خاصة بعد أن ثرثر بعض رجال عبد الموجود حمدان في المجالس مؤكدين حقيقة الأمر، إلا أن عيونهم كانت تتلاقى في حيرة، يطل منها سؤال واحد: «ماذا نحن فاعلون؟!».

لكن السؤال - أبداً - لم يجد له جواباً سوى الصمت الحزين!

قال قائل: إن عبد الموجود حمدان شارك بعض أغنياء الإنجليز بمال وفير، وأنه يبحث الآن عن مشترٍ لقواربه الاثني عشر!... وقال آخر: إن السفينة الواحدة من هذه السفن، تستطيع وسق ثلاثين طنّاً من الأسماك،

وأن الرجال على سفن كهذه يستعملون شباكًا غير الشباك، شباكًا من حديد مجدول، تلقى إلى البحر بواسطة أوناش ضخمة، فتغوص في المياه إلى الأعماق، وتجذب من الأسماك ما يفوق حجمه حجم الحيتان!

وصل الأمر إلى المعلم محمد البلطي وهو لا يزال راقدًا في فراشه، وسمعت أذناه أكثر من قول، وحمل الرجال إليه أكثر من رأي... فسأل عن عبد الموجود حمدان، وعلم أنه لم يعد يزور الشاطئ في الأيام الأخيرة... فصمت واضطرب، فإن عبد الموجود لم يزره في مرضه، بل هو لم يكلف نفسه سؤال رجل من عائلة البلطي!... فكيف يعمل هذا الأمر؟... وبماذا يعلله؟...

وكلما صمت الرجال من حوله في انتظار رأيه، ازداد اضطرابه وقلقه، لكنه راح يهون عليهم الأمر، ويتسم في وجوههم متظاهراً باللامبالاة، ويرسل المراسيل للتفاوض مع الخواجة ستاكس لشراء شبكة جديدة غير التي ضاعت منه في الحادث...

لكن الحقيقة أنه كان أشدهم حيرة، كان ضياع الشبكة بالنسبة إليه كارثة تقصم الظهر، فلم يكن عنده من المال ما يكفي لشراء شبكة جديدة... ثلاثون جنيهًا مبلغ ليس باليسير، والخواجة ستاكس لا يعرف الرحمة أو العدل، وقد طالت المفاوضات بينهما، مفاوضات قام بها المعلم صادق حينًا، والريس جابر حينًا آخر... لكنها نجحت أخيرًا، وأفلح الرجال في شراء الشبكة على أن يسدد ثمنها على أقساط. ومنذ ذلك اليوم والمعلم محمد يضع فرحته بالشبكة الجديدة تحت نار هادئة لتتمدد وتشغل الحيز الأكبر من تفكيره.

وقد حاول العجوز كثيرًا أن يؤجل الحديث عن عبد الموجود حمدان إلى أن يتضح له الصواب من الخطأ... فرغم ثراء عبد الموجود، فإنه كان يحبه، فمنذ خمسة عشر عامًا كان الرجل تابعًا من أتباع البلطية، يخرج للصيد لقاء ربع الرزق، لكنه تغير مع الأيام، ونمت ثروته - ولا يدري أحد كيف! - حتى اشترى اثني عشر قاربًا، وأصبح لديه جيش من الرجال يعملون تحت إمرته... ورغم أن المعلم محمد كان يعلم ما يمكنه له عبد الموجود من احترام عميق، فإنه وضع في اعتباره أنه رجل صلب لا يستهان به، لذلك... فما إن خرج من البيت لأول مرة في ذلك الصباح، يحمل شبكته الجديدة فوق كتفه، ويذهب إلى الشاطئ، ويرى ما كان من ثورة الطبيعة وعلو الأمواج واشتداد الرياح، حتى أيقن - في قرارة نفسه - أن الرجال سيضعون المسئولية كلها فوق كتفه، فلم يجد ما يعالج به أفكاره ومخاوفه وحيرته سوى الابتسام.



ما كاد يدلف إلى المقهى حتى اختار لنفسه مقعدًا في صدر المكان، وجذب الرئيس جابر مقعدًا وجلس على يمينه، وأحكم حمودة شاله الصوفي حول رأسه، ثم فرك كفيه وصفق مناديًا عليوة الجرسون، وقبع حنفي بجوار محمود وسط الحلقة التي اكتملت حول المعلم محمد... وأخذ الرجال يتصايحون في مرح مصطنع، وصيحات عليوة تتمطى وتنغم وهو يطلب للرجال مشاربهم.. وسرعان ما انعقدت سحب الدخان في سماء المكان، وكركرت الجوزة، وعلا صوت الرشقات، وامتلاء الجو بدفء لذيق بعث في نفوس الرجال بالثقة.

وعلى غير انتظار، دوت في المكان صيحة رجل وقف عند الباب بجسده الفارع الطويل، ووجهه الأسمر المستطيل، وشاربه الغليظ الذي يمتد طرفاه فوق صدغين غائرين، ورفع يده بالتحية إلى رأسه قائلاً بصوت جهوري:

«صباح الخير يا رجاله!».

ثم التفت إلى المعلم محمد وصاح مرة أخرى:

«أنا سمعت يا معلمي أنك قمت بالسلامة، وحياة مقام المرسي أبو العباس ما كنت هنا لما حصل اللي حصل، ألف الحمد لله على السلامة!!».

نهض المعلم محمد لاستقبال الوافد الجديد، ووقف الرجال جميعاً لوقوفه، وأخذوا يصافحون الرجل في احترام مشوب بالحيرة، وقدم المعلم صادق مقعده للضيف، وصفق المعلم محمد منادياً عليه، وطلب شاياً للرئيس عبد الموجود حمدان.

سرعان ما تجمع الرجال حول المجلس، وجذبوا مقاعدهم من أطراف المقهى وكل منهم يشعر أن شيئاً لا بد سيحدث، وتلاعبت الأسئلة في الأفواه، وارتسمت علامات استفهام كبيرة فوق الوجوه.

وأحس المعلم محمد بالعيون التي أحاطت به في إلحاح تطلب منه القيام بواجبه، وأحس أكثر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه... وكان بخبرته يعلم نتيجة المشاحنة والمصادمة منع رجل كعبد الموجود لا يؤخذ إلا باللين والكلمة الطيبة.

دار ببصره في الوجوه، فوقعت عيناه على محمود، وكان يتشاءب، فانقبض وهو يتذكر أن ولده - وإن كان قد بدّر في الحضور إلى الشاطئ - لم يبت ليلته في البيت... وعربدت الخواطر في ذهنه، ثم اضطربت واستكانت عندما ربت عبد الموجود على فخذه محيياً، فرفع يده إلى صدره يرد التحية، عندما صاح رجل من وسط الجمع على غير انتظار: «إلا صحيح الكلام اللي بينقال ده يا معلمي؟!».

وقع المحذور، ولم يعد هناك مفر، كان واضحاً أن الرجل يوجه حديثه لعبد الموجود، فساد الصمت تماماً حتى أحس الجميع بالضيق والحرَج، خاصة وأن عبد الموجود لا ذهو الآخر به وعلى وجهه ابتسامة نصف نصف... على أنه دس سيجارة بين شفتيه، ونفت دخانها في عصبية، ومال على المعلم محمد وقال هامساً: «حكاية إيه يا معلمي?!».

ضحك المعلم محمد وقال موجهاً حديثه للرجل الذي سأل:

«طيب استنى على رزقك شوية، هو حمري حمري?!».

ثم ربت على كتف عبد الموجود وهو يقول في هدوء ولا مبالاة:

«حكاية المراكب اللي بيقولوا عليها».

. «كل شيء نصيب».

قال عبد الموجود ذلك... وسكن كل شيء، وخفقت قلوب الرجال خفقات عاتية، وكأنما عبد الموجود قد ضاق بالعيون التي أحاطته، والصمت الذي لف المكان، فعاد يقول مؤكداً حديثه:

«كل شيء بأمر الله، كله بأمره!».

وعلا صوت من وسط الجمع المحتشد:

«وده اسمه كلام؟!».

برقت عينا عبد الموجود، وارتفع رأسه في الهواء في تحد كأنه
تمثال من الصخر، وصوب عينيه نحو محمود البلطي - وكان هو
صاحب الصوت - وصاح فيه بصبر نافذ:

«قصدك إيه يا محمود؟!».

وعاجله محمود بالرد في ثورة:

«قصدي يا بويا ان ده ما اسموش كلام، نروحوا احنا فين بعد ما نطلع
المراكب دي، نجوعوا، نشحتوا؟!».

وصاح عبد الموجود في دهاء:

«كل واحد ورزقه يا بن والدي!».

وكانما ضاق الرجال بمراوغته، فعلت الهمهمات، وقال أحدهم في
غضب:

«حايقي فين الرزق ده، إذا كانوا يقولوا إن المراكب توسق أكثر من
ثلاثين طن مرة واحدة...».

وقال رجل آخر:

«الكلام بالعقل يا رجالة، كله ينصلح بالتراضي!».

وأحس عبد الموجود بالحلقة تضيق حول عنقه، فزمجر موجهًا
حديثه للمعلم محمد:

«عاجبك كده يا معلمي، عاجبك؟».

وعاد الصمت يلف المكان، وأطرق المعلم محمد مفكرًا، وأحاطته العيون في ترقب في انتظار كلمته، وعبث عبد الموجود بطرف شاربه في قلق، وعاد يقول مواجهًا زمجرة الرجال وهمهماتهم وكأنه يتعجل الموقف:

«إيش قولك بابا محمد، عاجبك الكلام ده؟!».

وأخيرًا... أخيرًا تحدث المعلم محمد، فصمت الرجال - كالعادة - وأسلموا له القيادة دون تفكير.

«ما هو ربك عرفوه بالعقل يا عبد الموجود!!».

«ودي فيها قلة عقل يا بويا؟!».

وأخذ المعلم محمد يتحسس طريقه بحذر:

«ما هو إحنا ما نعرفوش الحكاية كلها، اتكلم وإحنا نسمع!».

اعتدل عبد الموجود وقد أدرك بذكائه الشرك الذي نُصب له، وكان عليوة قد وضع كوب الشاي أمامه، فامتدت يده إليه، وأخذ يرشف منه على مهل، ثم قال في صوت ثابت:

«الحدوتة مش عايضة كلام... جاني راجل انجليزي اسمه «هوب»، وقال لي الحكاية وما فيها عاوزينك تشترك معنا في مركب صيد، مركب واحد يا معلمي، مش أسطول... الراجل قال يا عبد الموجود انت النص، وإحنا النص، والمكسب بالنص... كلام زين؟!».

وقال المعلم محمد في صبر وهو يهز رأسه:

«زين!...».

«هو قال لي كده، قلت له يلزمكم كام، قال خمس ألوف، قلت ماشي... اللي ورايا واللي قدامي وحياة مقام المرسى، دفعتهم واتوكلت على الله... فيها إيه دي؟!».

ولأول مرة يظهر الغضب على وجه المعلم محمد البلطي، عندما رفع وجهه إليه، أيقن الجميع أن اللحظة الحاسمة قد دنت، وتوترت على الفور أعصاب الرجال، وتحفز البلطية... وحتى هذه اللحظة كان المعلم محمد يراوغ نفسه، ويهرب من أفكاره متعللاً بأي حجة يصادفها عقله، لكنه لم يتصور أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد، كان يمني نفسه بإقناع عبد الموجود بالعدول عن مشروعه، لكن كلمات الرجل وضعت حداً فاصلاً بين الظن واليقين، كما أدرك أن ولده أسلم الرجال قياد المعركة بتهوره واسترساله في الغضب، فلا مجال إذن للتردد:

«والرجالة دول يا عبد الموجود، ياكلوا منين بعد عملتك دي؟!».

«كل واحد ورزقه يابا!».

«وقتها حاتغطوا السوق بالسملك، والتاجر له اللي يسعفه، واللي يرخص له، واللي يدي له سمكة كبيرة!».

«كل واحد وشطارته!!».

وزعق رجل وكأنما الكيل قد فاض به:

«واحنا يا ريس عبد الموجود... وولادنا؟!».

«رينا ما ينشاش حد!».

كان المعلم محمد قد أعاد سيطرته على نفسه مرة أخرى، فقال في صوت رائق هادئ، وفي لهجته رنة عتاب:

«لكن انت نسيتنا يا عبد الموجود!».

وأحس عبد الموجود أنه وقع، ولم يكن أمامه سوى سبيل واحد للفرار، فأشاح بوجهه بعيداً عن المعلم محمد، وشوَّح بذراعه في استهانة، وقال كمن ضاق بالأمر كله:

«ما حدث بيحوش رزق حدا!».

كان من الممكن أن يمر الأمر بسلام، وأن ينتهي أية نهاية لو لم يفعل عبد الموجود ذلك، غير أنه كان يعلم أن فعلة كهذه لا يمكن أن تمر، وكان له ما أراد، فما كاد يفعل ذلك حتى استشاط البلطية غضباً، ونهض محمود من مقعده ثائراً وهو يصيح في انفعال:

«عيب عليك تشوح في وش المعلم محمد البلطي يا عبد الموجود!».

ونهض حنفي هو الآخر متحفزاً، وتوتر الجو وتكهرب، وران الصمت فترة، انفجرت بعدها ضوضاء الرجال وهم يتحفزون لأمر خطير... وكما فعل عبد الموجود فعلته وهو واثق من نتيجتها، راح يتلقى الثورة بالأسلوب الوحيد الذي كان يعلم أنه كالماء البارد، يقلل من حرارتها إن لم يستطع إطفاءها... قال في صوت خافت وهو يخفض رأسه إلى الأرض:

«مقصديش يا ابني وحياة النبي!».

وعاد محمود إلى الصياح مرة أخرى:

«أنا مش ابنك، أنا ابن محمد البلطي!».

كان واضحًا أن محمود فقد أعصابه، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتدخل سوى المعلم محمد نفسه، لكنه ظل صامتًا يرقب المعركة بعين الخبير، وراح عبد الموجود يسير في نفس الطريق بلا يأس، فقال في صوت ناعم:

«عيب يا محمود، دانا مربيك وشايلك على كتفي!».

وزمجر محمود غضبًا، وخطا نحوه خطوة وهو يقول في تحد:

«وابويا رباك وخلاك صياد وبني آدم!».

أيقن المعلم محمد أن عبد الموجود أفلح في الهرب كما أيقن أن ولده أسلمه - مرة أخرى - قيادة المعركة بتهوره واسترساله في الغضب، فصاح محاولاً الإمساك بطرف الحديث من جديد:

«اقعد يا واد بلاش كلام فاضي!».

لكن عبد الموجود لم يكن من الغفلة بحيث يفلت من يده خيط المبادرة، فبالرغم من جلوس محمود، إلا أنه أبى أن يُفلت تلك الفرصة الذهبية التي سلمها له، فنهض من مكانه وهو يعدل من وضع شاله الحريري الفاخر حول عنقه، وتظاهر بالغضب وهو يقول محدثًا المعلم محمد:

«آني اتشتمت في مقامك يا معلمي، معلش، برضه محمود زي اخويا الصغير... سلام عليكم!».

واندفع يشق طريقه نحو الباب غير آبه بالصيحات التي راحت تطلب منه الجلوس، وما أن استقبل الهواء البارد في الخارج، حتى ابتسم ابتسامة واسعة، وارتاحت ملامحه فوق صفحة وجهه وكأنه تخلص من

عبء ثقيل... بينما كان جو المقهى مشحونًا متوترًا، والرجال صامتين واجمين، وأخذ الصمت الكثيب يضغط على أعصابهم لحظة بعد أخرى، والكل مطرق ساهم، حتى صاح أحدهم في صوت كالعويل: «عليه العوض ومنه العوض!».

ورفع المعلم عينيه إلى ولده في حسرة، كان يحسب حساب هروب عبد الموجود، وكان يستطيع لو أراد أن يلقيه درسًا لا ينساه، وقد حمد لولده أن حاجاه في البداية محاجة رجل لرجل، كلمة تغني عن عشرة، واللين أفضل من القسوة، لكنه فقد أعصابه، وأعطاه الفرصة للهروب... طلب العجوز شايًا، ثم أشعل سيجارة وراح يفكر وقد أعياه الأمر... ثم انتبه من استغراقه عندما قال المعلم صادق: «العمل إيه يا رجال؟!».

فرد أحدهم في نبرات يائسة:

«العمل؟!... العمل عمل الله يا معلمي!».

وعاد الصمت يلف المكان مع يأس عميق تسلل إلى نفوس الرجال، كانوا كمن وقعوا في مصيدة لا يجدون منها مفرًا، فراحوا يتخبطون على غير هدى، كذلك كانت أفكارهم تتخبط في كل اتجاه، تشرق وتغرب وتضرب أخماسًا في أسداس، ثم ترتد في عجز وحيرة... وأخيرًا قال واحد منهم:

«ما هو لازم... لازم تشوفوا حل يا رجاله!».

ابتسم آخر في مرارة وهو يتساءل:

«عندك انت حل؟!».

وصاح محمود البلطي على غير انتظار:

«أنا عندي حل ... نشترك...».

ثم توقف عن الحديث عندما استدارت نحوه كل الرؤوس، ومال البعض إلى الأمام، والبعض إلى الخلف وراحوا يحملقون فيه، وانصبت عليه نظرات والده الغاضبة، وأحس بنظرات حنفي تلهب صدغه، فتلجلج، لكنه قاوم ارتبাকে وقال في اندفاع:

«نشترك كلنا ونجيبوا مركب!!».

انغrust نظرات الرجال في صدره كالتصال، لمح على وجوههم خيبة أمل واستهانة أدمت فؤاده، وقال أبوه في سخرية:

«عارف المركب ثمنها كام يا معلم محمود يا بلطي؟!».

ونكس محمود رأسه، بينما استطرد أبوه في سخريته اللاذعة:

«حداك عشر ألوف تشتري بيهم مركب؟!».

تمنى محمود لو انشقت الأرض وابتلعتة، هوت كلمات والده الباردة على دماثة الساخنة فجمدتها، أحس بالمرارة تندلع في حلقه، وضاق بكل شيء، وخطرت بباله كايدا هم فارتجف، وتحدث حنفي لأول مرة منذ بدأ الحديث، فجاء كلامه بردًا على قلبه، ولكن... أتشفي كلماته الجرح العميق؟ إنه لا يصلح أن يكون صيادًا... أبدًا، لا يصلح.

قال حنفي في هدوء شديد:

«محمود معاه حق بابا محمد، يعني الحكاية مش حاتيجي بين يوم

وليلة برضه!!».

كاد المعلم أن يفقد أعصابه وينهال على ابن أخيه بالشتم عندما لمح السخرية في عيون الرجال، لكنه استطاع أن يكتم ثورته، فقد تعود في حديث حنفي منطقاً سليماً، وعندما رفع حاجبيه دهشة، كان حنفي يستطرد وهو يواجه نظرات الرجال في جسارة وإيمان:

«قصدي نقول ان قدام عبد الموجود بالقليلة سنة على ما تبجي المركب... وفي السنة دي يحلها ألف حلال».

ابتلعت عيون الرجال ما فيها من سخرية، ثم أطلت منها حيرة ارتسمت على تقاطيع وجوههم... وقال رجل: «قصدك إيه يا حنفي؟!».

«قصدي ان عبد الموجود كان صياد زينا بالقارب والمجداف».

وصاح حمودة كأنه غريق يطلب النجدة:

«بس عبد الموجود معاه ألوف يا حنفي، ألوف عملها في خمستاشر سنة، وعملها من كل باب، من كل حنة تجلب القرش!».

ورد حنفي وهو يميل نحو خاله:

«عملها في خمستاشر سنة يا خالي وكان بذراعه، واحنا كثير، إحنا أكثر من ستين راجل وأربعين قارب، لو كانت قلوبنا على بعضها نعملوا حاجة!».

«زي إيه... حاجة إيه يا حنفي!».

قالها الرئيس محمد وقد عادت إليه الطمأنينة، فاستدار حنفي نحو عمه وقال وهو يلوك الأمر في ذهنه:

«يابا الرجالة موجودين، وإيد لوحدها ما تصقفش، فكروا في حل يابا، لازم كل واحد يقول كلمته... وبعد يوم، واتنين، وثلاث أيام لازم نوصلوا البر، ونرسي لنا على شط... والا إيه يا رجالة؟!».

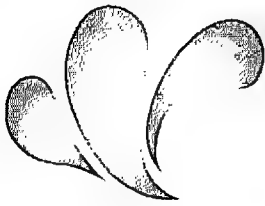
كانت كلمات حنفي كالسحر، أحس كل رجل أن أمامه فرصة، ومدت كلمات حنفي أمامهم بساطاً يستطيعون السير فوقه، وعلى مهل... لذلك، فسرعان ما علت أصواتهم وتسابكت، وما أن مرت دقائق، حتى حميت المناقشة، وعاد النشاط يدب في أذهانهم، وعاد عليوة ينادي على طلباتهم، وسرى في الجو دفء وحماس... بينما غرق حنفي في التفكير...



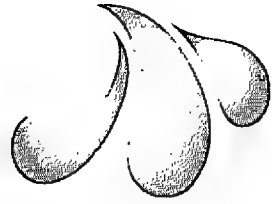
كان يعلم تمامًا أن الحل ليس بالأمر اليسير، لم يكن في ذهنه فكرة محددة عما يريد، أيقظت كلمات محمود في صدره إحساسًا بالحب دفعه لأن يدافع عنها. هل كان على حق فيما قال؟... سيقضي الرجال صباحهم، وربما امتدت جلستهم إلى المساء، وهم يتناقشون ويثرثرون... في قلبه غصة، فهو يعرفهم جيدًا، تجمعهم يدفع بالطمأنينة إلى قلوبهم، وبعد ساعات سينسون الأمر كله!!... ويسلمون أمرهم لله. لو كان أبوه حيًا لوجد الحل في كلمة، هكذا يقولون دائمًا، لم تقف أمامه عقبة، ولم تحيره مشكلة... غير أنه يفكر ويفكر دون أن يعثر على حل، أصبح كل شيء معقدًا وكأن جدارًا أقيم أمامه فسد عليه كل مخرج، ثمة شيء في أعماقه يصبح به أن لا بد من حل، وكل مشكلة ولها حلال، ولكن مشكلته ليس لها شاطئ ترسو عليه... تقسيم الشاطئ أمر ساذج، وشراء سفينة أبعد من نجوم السماء فكلهم فقراء على باب

الله، فكيف قال ما قال... ضحكوا من محمود عندما ألقى إليهم باقتراحه، لكنهم لم يضحكوا منه عندما ردد نفس الكلام... عيب محمود أنه يفكر بقلبه لا بعقله، يمسك الحقيقة بيديه ولا يعرف ماذا يصنع بها، وإنما يعرف كيف يغنيها... وعائشة في البيت تنتظره بحديثها اللاذع، وكرامته تتمرغ على الأرض دون أن يستطيع أن ينفذ عنها التراب، هل يحدث المعلم صادق؟... وماذا يقول عنه الرجال لو فعل؟... يترك المصائب لهم ويبحث عن عروس؟!... ماذا جرى لعقله، لماذا يشعر وكأنه مسئول عن مشاكل الدنيا كلها... الرجال يثرثرون ويتناقشون ولا مخرج... ما الذي كتب عليه؟!... لو حقق عبد الموجود مأربه لتشردوا جميعًا، لما وجدوا من يشتري سمكاتهم... ستقلع سفينته وتعود محملة بصيد لم تره عيونهم، سيضيع صيدهم في طوفان الرزق الذي سيغرق به عبد الموجود البلاد... هل كان على حق فيما قال؟!

أثارهم وأثار جدالهم ووقع هو في الحيرة، يحس أنه كالأعمى الذي يتخبط في طريق مزدحم، ماذا كتب عليهم جميعًا؟... حالهم ينحدر من سيئ إلى أسوأ... ورجل منهم يضع كفه في كف الغريب ليقتلهم... لا بد من حل!... لا بد من مخرج... ولكن أين؟! هل يذهب إلى الصخرة، ويصرخ منادياً أباه؟



الفصل السابع عشر



همست زوجة أحد الصيادين في أذن جاراتها:

«سمعتي يا ختي اللي يقولوه؟!».

ظهر الاهتمام الشديد في عيني الجارة وهي تزبح طفلها الحابي عن حجرها، وقالت في لهفة:

«خير يا أم علي حصل إيه؟!».

مالت أم علي حتى كادت شفتاها تلاصقان أذن صاحبتهما وهي تهمس:

«آل يا ختي شافوا حنفي البلطي وهو طالع من المية بعد نصف الليل ومعاه جنية!!».

خبطت الجارة صدرها بكفيها، وبرقت عيناها وهي تقول في جزع:

«يا لهوي، ماهو أبوه عمل كده، وكانت آخرته معاها تحت المية!».

ولثلاثة أسابيع بطولها، لم يكن لرجال الشاطئ أو نسائه من حديث سوى حكاية حنفي... كان الحديث عن السفينة قد بدأ يفتر، وكلما مر يوم أحس الرجال أن أعناقهم محاطة بأطواق من حديد تجذبهم نحو هاوية لا قرار لها، واستولى اليأس على أغلبهم، واسودت الدنيا في

وجوهم... فرغم مناقشاتهم العديدة في المقاهي والبيوت وحتى في الغرز، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا حلاً للمشكلة.

كان عبد الموجود حمدان قد اختفى تمامًا من الشاطئ، وأعلن رجاله عن رغبته في بيع قواربه، وراحوا يقضون أيامهم متسكعين فوق الرصيف وعلى المقاهي وفي الغرز ينثرون الحديث عن السفينة وعما ستجلبه لهم من خير... وعن أجورهم التي يقبضونها رغم أنهم لا يؤدون عملاً... وتمادى بعضهم - بإيعاز من عبد الموجود - فتحدثوا عن الخطابات التي يرسلها الخواجة الإنجليزي إلى المعلم عبد الموجود، وعن توصيته له بأن يدفع أجور الرجال دون انقطاع، بل وأن يبحث عن رجال جدد ينضمون إلى طاقم السفينة.

وفجأة... انقطع الحديث عن عبد الموجود وسفينته، انقطع عندما همس أحدهم في أذن صديق له بخبر حنفي والجنية، ولم يستطع الصديق أن يحمل الخبر وحده، فنقله إلى آخر... وما أن غربت شمس ذلك اليوم، حتى أصبح الخبر محور كل كلمة تقال، وكل حديث يتصل بين الرجال. حتى رجال عبد الموجود راحوا يشاركون في الحديث برهبة وخوف، ويسألون صاحب الخبر عما رآه... وكلما تحدث الرجل، كلما انبهر الباقون... وعلى غير انتظار، انفتحت أمام الجميع طاقة الأمل، فتعلقوا بها وكأنهم في حلم.

حدث الأمر عندما أرسل الرجل ولده ليشتري طعامًا بعد عودته من سهرة قضاها مع الصحاب، وكان يقطن بيتًا قريبًا من الشاطئ المهجور

بالقرب من صخرة رأس التين... وما كاد الطفل يغادر حارة السعداوي ويستقبل الشاطئ، حتى لمح شبحاً يطفو فوق سطح المياه، فظنه في البداية أحد تلك الصناديق التي يقذفها الموج بين الحين والحين إثر عاصفة هبت فابتلعت أمواجها إحدى السفن، كانت هذه الصناديق عادة ما تكون محملة بالبضائع التي يجد رجال الساحل فيها ما يدخل على حياتهم البهجة لأيام قد تطول أو تقصر حسب قيمة ما فيها... اندفع الطفل نحو الشاطئ تخب قدماه في الرمال الممتدة على طول الساحل وهو يمني نفسه بصيد ثمين، وأخذ يقترب حتى لاح له الشبح عن قرب، فرآه على هيئة إنسان، وجف حلقه في البداية وانتابه الذعر ظناً منه أنه لا بد وأن يكون أحد ملوك الجان الذين يسكنون قاع البحر، لكنه سرعان ما استطاع أن يميز - في ضوء القمر - وجه حنفي وهو يغادر المياه، فتوقف مصعوقاً للحظة، واستولى عليه الذعر، وتذكر كل ما حكى له عن آل البلطي وسرهم الذي يكتُمونه في صدورهم، ويوقفونه على أفراد عائلتهم... فاستدار في حذر كالمخدر وهو يقتلع قدميه من الرمال في صعوبة، وأخذ يجر جر ساقيه وجسده يرتجف ارتجاجاً شديداً متصللاً، وشبح حنفي عند الشاطئ يملأ صدره بالذعر... وما أن ابتعد قليلاً حتى أطلق ساقيه للريح، وظل يجري بكل قواه حابساً في صدره صرخة هائلة أطلقها عندما خطا الخطوة الأولى داخل الحارة، ثم تبعها بصرخات متلاحقة سمعها أبوه، فاندفع الرجل إلى الخارج متلقياً بين ذراعيه جسد ولده المتهاوي، وعبثاً حاول في البداية أن يفهم منه شيئاً، كان الطفل يرتجف وقد غاض لونه وابتضت عيناه من فرط الرعب، على أنه استطاع بعد لحظات أن ينطق اسم حنفي البلطي، ثم الجنية، ثم الشاطئ... وراح يرتجف من جديد.

وكان هذا كافيًا لبعث الأوهام في ذهن الأب، فسرعان ما حمل ولده إلى الداخل، ونهر زوجته الباكية المولولة، وانطلق إلى الشاطئ وصدره يفور بما فيه من أحاسيس.

كان حديث الجن - حتى ذلك الحين - بالنسبة إليه غامضًا ومثيرًا في ذات الوقت، لا يخوض فيه إلا بمقدار، ولا يتحدث عنه إلا بكلمات لا تغني ولا تفصح عن رأي... لكنه ما كاد يستقبل الشاطئ في تلك الليلة، حتى لمح شبح حنفي منتصبًا وسط الرياح الباردة، عاريًا كما ولدته أمه، تتساقط المياه من جسده المبتل، وجهته البحر العريض، وظهره إلى الشاطئ... كان حنفي جامدًا لا يتحرك وكأنه مشدود إلى المياه بقوة سحرية، وبدا للرجل طويلًا أكثر من المعتاد، عريض الكتفين كأنه عشرة رجال، شامخ الرأس كإله قوي قادر على إخضاع ذلك الموج العاتي لذراعيه الهائلتين!

راح الرجل يتحسس طريقه وسط هياكل القوارب القديمة الملقاة على طول الشاطئ حتى أصبح بينه وبين حنفي خطوات معدودة، وهبت موجة عاتية وزحفت مياهها فوق الرمال حتى لامست قدمي حنفي الثابتين وغطتهما دون أن يتحرك هذا أو يظهر عليه أنه شعر بها... كان يحملق في الظلام البعيد كأنه يرقب أحدًا لا يزال هناك... وسرى الخوف والذعر فملاً قلب الرجل، وظل مكانه جامدًا لا يتحرك حتى ارتدى حنفي ملابسه على مهل، ولف رأسه الكبير بلاسته، ثم استدار ومضى في طريقه إلى المدينة... وظل شبحة العملاق منتصبًا أمام عيني الرجل حتى اختفى... ووقتها فقط، استطاع صاحبنا أن يتحرك من مكانه، وأن يمضي إلى بيته.

ووصل الخبر إلى كل أذن... وازداد الهمس بين الرجال وهم يكتمون الأمر عن أفراد البلطي، وراحت مخيلاتهم تنسج وتبني وتشيد، حتى استقر اليقين في أذهان الجميع أن حنفي لا بد سيصنع شيئاً... لا بد أن يحرض زوجته وأولاده الساكنين في قاع البحر على إغراق السفينة قبل وصولها، أو يطلب منهم أن يثيروا عاصفة هوجاء تودي بالسفينة ومن فيها... وساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، أخذ الحديث يتشعب وتولد له أطراف جديدة... ومن رجل إلى رجل كانت الحادثة تزداد غموضاً، وتضاف إليها أحداث!!

تذكر أحدهم أن حنفي صرخ في ذلك اليوم الذي هرب فيه عبد الموجود من المقهى الزجاجي أن هناك حلاً، وعندما سأله الرجال عن الحل لم يفصح... ثم تذكروا جميعاً ما حدث بعد ذلك، فقد نهض حنفي بصحبة محمود واختفيا طيلة النهار حتى ظهرا في صبيحة اليوم التالي... وقال أحدهم وهو يخبط ركبته بكفيه:

«أيوه أني فاكر كويس، محمود راح البوظة بعد نصف الليل، وحنفي ما كنش موجود... يبقى كان فين يا رجالة؟!».

ومضوا جميعاً في الحديث متحمسين متشبهين بذلك الأمل الذي بدا لهم وسط كتل اليأس كمصباح باهر في ليلة حالكة السواد.

واجتاح الشاطئ موجة من الأمل أغرقت النفوس، فبات الرجال - مؤمنين بظنهم أشد الإيمان - ينتظرون حلول الفرج بين يوم وآخر، وقد ران على نفوسهم رضا لم يعهدوه فيها منذ أيام طويلة.

وأصيبوا بعد ذلك باستسلام شديد، وتبدل حالهم من اليأس إلى الأمل، وزحفت الابتسامات على وجوههم من جديد، وتغيرت نظراتهم لآل البلطي... حتى تحياتهم لحنفي ولرجال الزقاق راحوا يلقونها عليهم باحترام شديد، ويقابلون عجب حنفي ودهشته، بنظرة من يعلم بواطن الأمور، ويقولون لبعضهم في همس: «ما هو مش عاوز حد يعرف أحسن تأذيه زي ما أذت أبوه!»... حتى عندما صاح حنفي في بعض الرجال ذات مساء:

«أنتم نايمين يا رجاله؟!... إيش قولكم في اللي حاصل ده، الأيام بتجري وأنتم ولا هنا، آني سمعت إن عبد الموجود قال إن المركب واصل بعد شهر!».

يومها صاح فيه أحدهم:

«البركة فيك يا معلم حنفي!».

وكانت هذه المرة الأولى التي يقرن اسمه بلقب معلم من رجل في مثل سنه أو يزيد، وقد بهت حنفي وأخذ يحملق في الرجل مغیظًا، ثم صاح في ضيق:

«قصداك إيه يابن أبويا، إيد لوحدها ما تصقفش، لازم تتفقوا على حاجة!».

وصاح آخر في مرح وحماس:

«كلنا رجالتك يابو الأحناف!».

ونقد صبر حنفي، وكست ملامحه سحابة يأس شديد، فأشاح عنهم وانتحى جانبًا وقد غرق في الهم، وعاد الرجال - مطمئنين - إلى

ما كانوا فيه وقد ازداد استعذابهم لإلقاء المسؤولية على كتفي حنفي، بل على غيب كانوا يقدسونه...

حتى رجال الزقاق سرت إليهم العدوى، وأصبحوا وكأنهم نسوا كل شيء، وعادت الحياة تسير سيرتها الأولى وكأن شيئاً لم يحدث.

وكلما بدا حنفي مطرقاً صامتاً قليل الكلام، كلما أيقنوا أنه لا بد يدبر الأمر أو ينتظر التنفيذ، وأنهم سيصبحون ذات يوم ليجدوا المشكلة قد حلت وكأنهم كانوا يحلمون لا أكثر... كيف لا، ومحمود البلطي عاد سيرته ولم يعد يزور الشاطئ إلا لماماً، ولم يعد يناقش كما كان يفعل في البداية...

ثم حدث أن اقترب أحد الرجال من حنفي وسأله باسمًا:

«ما لك يا حنفي كفى الله الشر؟!».

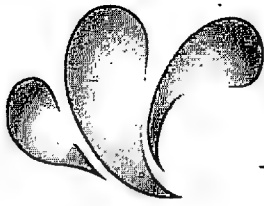
ويقسم الذين حضروا تلك الواقعة، أن حنفي لم يفعل شيئاً سوى أنه رفع عينيه إلى الرجل، ثم انطلق منهما ضوء باهر!

ولم يذكروا، بل لم يتذكروا أن حنفي نهض صارخاً:

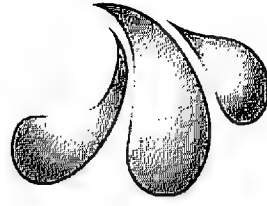
«ملعون أبوكم، أنتوا عاوزين تاكلوها بالساهل؟!».

وأن الرجل لم يثر لشورة حنفي، بل ضحك وهو يتغامز مع أصحابه غمزات من يعرف السر ويطلع على الغيب!

وقد ضاق حنفي يومها بكل هذا، فنهض لا عناءً ومضى في سبيله، وما كاد يتعد خطوات، حتى علت ضحكاتهم وصكت أذنيه، فاتجه إلى البوطة لا يلوي على شيء!



الفصل الثامن عشر



رغم كل شيء كانت زوية سعيدة، فلم يعد هناك شك في أن حنفي يحبها، ومنذ الليلة التي حملها فيها إلى الحجرة الخالية، والدنيا قد اكتست في نظرها بأزهى ألوانها، وتعطرت بأجمل روائحها... أجمل أوقاتها تلك التي تختلس فيها اللحظات في حجرتها الجديدة، تتسلل إليها في الليل أو النهار، تقبع فيها وحيدة إلا من خيالها المعربد الثائر. تعيش لحظات وهي نشوانة بذكرياتها، تدفن رأسها بين كفيها، وتقبل يديها وكأنها تقبل حنفي، تمتص أصابعها وتلوك لسانها وكأنها تستحلب ريقه العذب... تنسمت في تلك الليلة أنفاسه، فلم تفارقها رائحته رغم مرور الأيام الطويلة، راحت تتجول في فراغ الحجرة بعينيها، وترتب بخيالها أثاث بيتها الجديد، وتحلم... وفي الحلم كانت تعيش أعذب أمانيتها وأحلامها... انقشع الحجاب، وهوى الحائط الذي كان يفصلها عنه... من في الدنيا يفوقها سعادة؟!... كيف يحزن الناس كل هذا الحزن من أجل سفينة صيد جديدة؟!... لماذا يعيشون وكأنهم في مأتم؟!... لولا أنباء تلك السفينة لتم زواجها... توقفت الحياة على الشاطئ وفي الزقاق وكأن الناس ينتظرون قيام الساعة، ولو كان الأمر بيدها لقتلت عبد الموجود حمدان وأراحت الرجال منه، ولو كان بيدها لقطعت لسان عائشة وارتاحت من غمزها ولمزها... ورغم كل ما حدث، ورغم كلمات حنفي، ورغم أنها كشفت سرها وعرفت ما بينها وبين السيد أفندي، فهي

لم تكف، تزحف، تزحف كالأفعى متلصصة إلى كل مكان توجد فيه،
وتنفث في الهواء كلماتها كالسم، وتلاحقها بالتلميح أينما ذهبت،
وترسل الخوف الرهيب إلى قلبها بلا رحمة، ولا تكف عن تعذيبها...

منذ أيام وقف حنفي - وكأنه أحس بعذابها - وسط الفناء وألقى
عليها التحية بصوت رنان ثابت وكأنه يعلن حبه للجميع، مد إليها يده
مبتسمًا - لكن ابتسامته كانت ما تزال منكسرة! - والتقط يدها وراح
ينظر في عينيها... ومرت لحظة سقطت بعدها كلمات عائشة فوق
رأسها كالمنطار... تسلفت كعادتها إلى الفناء، ووقفت تنظر إليهما
تبتسم في خبث وهي قائلة:

«انت لسة هنا يا أخويا... أني بنحسبك اتوكلت!».

وارتجفت هي، حاولت الفرار... لكن حنفي تشبث بيدها، ورفع
عينيه نحو أخته، وقال في صوت باتر:
«فيه حاجة يا عيشة؟!».

واندفعت عائشة نحو الحمام وهي تتعثر، وغمغمت بكلمات لم
يسمعهما أحدهما، وابتسم حنفي في انتصار ولا مبالاة، وضغطت
أصابعه على يدها في قوة، وتألمت، لكنها استعذبت الألم فتأوهت
مبتسمة وهي تقول في دلال:

«إيدي يا سي حنفي!».

خفف قبضته ثم قال:

«آني مش ناسي يا زوية، لما الحال يتعدل حانكلم أبويا صادق وربنا
عالم اللي في قلبي يا بت خالتي!».

ابتسمت ولم ترد، زغردت الدماء في عروقها، والتهبت وجتهاها،
فخفضت عينها في خجل حقيقي، وعاد صوته يدغدغ أذنيها:
«إيش قولك يا زوية؟».

«القول قولك يا ابن خالتي، أني خدامتك».

جذبها نحوه في جسارة وهو يقول مداعبًا:

«وبعدها معاكي يا بت؟!».

«وبعدها معاك انت... يوه!».

الغريب أنها هي التي جذبت يدها من يده، وأنها هي التي فرت
وتركته، ولو طأوعت قلبها لعادت إليه وأعادت كفها إلى كفه...
لماذا نتدلل ونحن نعيش أجمل أوقات عمرنا، ألا يضيّع دلالتنا لحظات
من الممكن أن نسعد بها؟!... أكانت تدعوه عندما فرت إلى
حجرتها؟!... لا تدري، وإن كانت تدري عن يقين أنه لن يتبعها...
الحياة بين عينيه عمر لا تعرف النساء حلاوته... كيف تفكر وكيف
تحسب وبم تشعر؟!... توقف كل شيء حولها، وأحست أنها تسبح
في الفضاء وقد انتشت روحها بالسعادة... ولذة عريضة تسالت
إلى جسدها... وما عاد يهمها أحد، حتى عائشة... فعندما قابلتها في
الفناء بعد ذلك واجهت عينها في جسارة... وانكسرت عينا عائشة
في ذلك اليوم... فلم تتركها، بل لاحقتها بعد لحظات وسألتها
بابتسامة عابثة:

«مالك يا عيشة، أني شايفاكى اليومين دول ياختي زي اللي في قلبك
حاجة عاوزه تقوليها؟!».

رفعت عائشة إليها عينين يطل منهما غضب وثورة، ورسمت على شفتيها ابتسامة صفراء، وتقدمت منها خطوة ثم قالت متحدية:

«ولا حاجة يا بت خالتي... بس يعني...».

«بس يعني إيه؟!».

«يعني...».

«عيشة... عيب عليك العمايل دي!».

«ومش عيب عليكى تخطفي أخويا مني؟!».

ارتجف قلب زوبة، ثم هدأ... وصعدت من أعماقها ابتسامة هائثة ارتسمت على وجهها... ليكن، لتقل ما تقول، لتتركها لنارها تأكلها... ولكن، لماذا تتركها؟!... لماذا لا تنتقم؟!

الدنيا جميلة رغم أنفها وأنف عبد الموجود حمدان، السيد البلطي سيصبح حماها عن قريب، كثيرًا ما تساءلت، كيف ينجب أعظم الرجال هذه الأفعى؟!

«هو آني جريت وراه يا عيشة، ابن خالتي وبيسلم عليّ، وانتي مالك؟».

«أخويا!».

«اسم الله، آهو عندك، حوشيه لو قدرت وابعدي عني آني!».

من أين جاءت بكل هذه السخرية، كيف نطقت هذه الكلمات؟ بدا لها الأمر غريبًا، وإن كان الأغرب هي تلك النشوة التي كانت تحسها، شعرت برغبة شديدة في الضحك، بل في الغناء، وفي الذهاب إلى عبد الموجود حمدان، وصفعه، والبصق في وجهه... تركتها عائشة دون كلمة، ووقفت

وحدها وسط الفناء يرتجف جسدها بألف انفعال... وبلا وعي تبعت
عائشة، دلفت إلى الحجرة وألقت التحية على خالتها وجلست بجوارها
وراحت تهز ساقها وتبتسم في استهانة... ثم أخذت تحدث خالتها،
راحت تثرثر وتثرثر وتضحك وتحدث... حتى سألتها عائشة:

«ما لك مفرفة النهار ده قوي كده يا زوبة؟!».

فردت في جسارة:

«يوه... ربنا يديم المعروف يا عيشة!».

«اللي واكل عقلك...».

«يتهنى به... ربنا يهنيه ويسعده، اسم الله!».

وضحكت خالتها وهي تقول:

«والله انتوا فايقين يا بنات».

ولا تدري كيف مضى ذلك اليوم، مضى دون أن تنطفئ النار التي
اشتعلت فجأة في قلبها... ومرت أيام، وازداد اضطرام النار وكأن
أحداث الحياة لهيب يزيد من حرارة حبها ودماؤها... هموم جاءت
فوضعت فوق الهموم، شح الصيد أسبوعاً، وعاود حمودة المرض،
ولم يتغير في الحياة شيء، السيد أفندي يروح ويعجيء، يعود حمودة
وأم حنفي ويجالس الرجال ويسهر في الزقاق ويتهامس مع عائشة،
فلماذا تقتل حبها، وتحمل الهم وحدها؟..

تلصصت ذات يوم لتسمع همس عائشة مع السيد أفندي فاصطدمت
قدمها بكوز ملقى على الأرض، فافترقا قبل أن تسمع شيئاً، وجارتها
عائشة وفي عينيها غضب هائل:

«زوبة، آني بيني وبينك حاجة يا بت خالتي؟!».

كانت تصرخ كالمجنونة وكأنها فقدت وعيها... وقالت زوبة بصوت هادئ:

«ليه يا عيشة، هو آني عملت لك حاجة يا ختي؟!».

«لأ ما عملتيش، الكوز هو اللي عمل... تكونيش فاكرة كل الناس زيك يا أم عين قارحة؟!».

«عيشة!..».

«اسم الله عليك يا ختي، ما لك، خوفيني!».

«عيشة؟!..».

نفد صبرها واندلعت نار العذاب فحرقت فؤادها، وراحت تنظر لعائشة وهي تتأود وتصيح عليها غضباً كالطوفان، كانت تصرخ وتسب وتلعن، فلماذا تصمت، وما الذي يسكتها؟... فلتسبها وتلعنها هي الأخرى، فمم تخاف؟... لا بد إذن أن في الأمر شيئاً، وإلا، فما الذي أثار غضبها؟... لتهوي بكل غيظها على صدغ عائشة، ولتتحمل صفة كفها، ولتشدد شعرها، ولتتحمل شد شعرها... نحيفة كالصرصار لكنها في قوة غول... صراخها يعلو فيملاً الزقاق... وللصراخ لذة، وللدموع لذة، وللعراك نشوة!... انقلبت الدنيا ولفظت البيوت سكانها وامتلاً الفناء بالنساء، عطيات وزغدانة وحسنية وأم محمود و... وكلهن كلهن تجمعن، والدماء تسيل من أنفها كما تسيل من فم عائشة... أعذب أمانيتها أن تقبل الآن ابنة خالتها وتبكي على صدرها وتقول لها: «إحنا لبعض يا ختي!» ولكن... كيف تفعل وصرخات عائشة تدوي، فلتدو

صرخاتها هي الأخرى... يسألونها عن السبب، فهل تقول؟... لتصرخ
فيهم فما أعظم القوة وألذها:

«اسألوها أم لسان طويل قليلة الأدب!».

ويسألون عائشة، فتبكي في استكانة وذلة وهي تقول:

«الله يسامحك يا زوبة، كده برضه؟!».

وازداد اضطرام النار في قلب زوبة، كادت تجن وهي ترى الشريك
الذي نصبته لها عائشة بذكاائها ودهائها... قالت إحداهن:

«ليه كده يا زوبة!... دي عيشة حتى منكسرة!».

وصرخت زوبة... صرخت، صرخت:

«اسألوها... اسألوها... سيوني في حالي!».

وعادت تصرخ، وتبكي، وتمزق شعرها، وتلطم خديها... وتسمع
خالتها وهي تقول بصوتها الثاقب:

«انتي مجنونة يا بت، إيه اللي جرى لك؟!».

وتصيح بكل صوتها:

«آني يا خالتي، آني مجنونة؟!».

«أمال إيه عمايلك دي... صوتك طالع لآخر الزقاق، والله عال،
الكبير والصغير بيتفرج النهارده على نسوان البلطية، أصل الزقاق
ما بقاش فيه راجل يحكمه ويخزم نسوانه... لو كان السيد موجود
مكانتش واحدة منكم قدرت تطلع صوتها، انت فين يا سيد... انت فين
تبعجي تشووف... فينك يا زين الرجالة، يا حسرتي!».

كان الصمت قد ساد عندما تحدثت العجوز، وراح صوتها الرفيع يتموج في جو الفناء، وانهمرت دموعها فجأة فغطت وجنتيها... ومصمصت النسوة، وجمدت زوبة وهي تحملق في العيون التي راحت تتهمها، وقالت عطيات بصوت خفيض:

«مش عيب عليكم يا بنات، هوه إحنا ناقصين، كفاية اللي بيجرى على الشط، كفاية يا اولاد ما حصل في الأيام السوداء دي!».

وقالت زغدانة وصوتها مختنق بالبكاء:

«والنبي أبويا ما بيشوف النوم، كل ما تيجي إخبارية ان المركب واصله، يقعد والهم راكبه.... ولا حد حاسس، حتى الرجالة بقت حالتهم حال ولا كأنهم هنا!».

ولم تعد زوبة تطيق أكثر من ذلك، جالت بعينيها الدامعتين في الوجوه، ثم صرخت فيهن فجأة وكأنها تصد عن نفسها شراً داهماً:
«ما كلنا كده يا اخواتي، اسألوها مالها ومالي... هو أنا اللي عليّ الحق؟!».

ثم سكنت فجأة... واندفعت نحو حجرتها وأغلقتها عليها.
لتنطبق السماء على الأرض، ليغرق البحر العالم بأمواجه، لتصعد الجنيات والشياطين من أعماق المياه ليحرقوا كل حي، ليحدث ما يحدث فما عادت تطيق، أصواتهن تصل إليها وهي تعلم أنهن لن يصمتن حتى تغرب الشمس ويأتي الرجال، وساعتها لن تستطيع إحداهن أن تفتح فمها بكلمة...

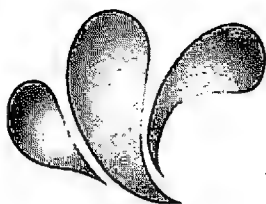
لمن تعيش؟!... ولم تعيش؟!... ومن سيحميها؟!

طوال عمرها وهي تشعر أنها كالمنبوذة، أب إذا جاءها فلكي يأكل
وينام، وإذا غادرها فلكي يعمل أو يجلس على المقهى، وأم ماتت وهي
طفلة، وقلبها تعلق برجل، ولا يزال الطريق إليه طويلاً!...

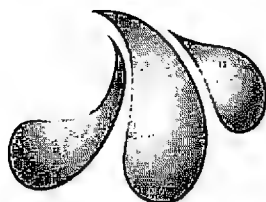
كم عانت وكم تعذبت... فهل شعر بها أحد؟

طريقة على الباب... لماذا لا يتركونها؟

طريقة أخرى... هي تعلم ما سيحدث، سيدخلن عليها ويجذبنها
لتصالح عائشة... وسيتم الصلح، وستقبل رأسها، وستقبل عائشة
رأسها، وستبكيان لدقائق، ثم تبسمان، وستصفو نفسها لا محالة...
فكيف يكره القلب الذي ذاق حلاوة الحب؟... والله ما كرهت في
حياتها شقيقة حنفي... طريقة ثالثة ونداء ملح... لتسلم أمرها إلى الله.
«مين؟!».



الفصل التاسع عشر



كانت طيور النورس البيضاء تملأ سماء الميناء مرفقة صائحة في ضجة ومرح، وراح المعلم محمد البلطي يرقبها في انقضاضها السريع على صفحة المياه، وارتفاعها عنه، وتجمعها حول صيد طاف على السطح الذي أخذ يتلاعب بعد سكون، واقتراقها في الهواء وهي تصفق بأجنحتها طرباً... وما لبث العجوز أن استدار بوجهه نحو حنفي القابع عند مقدمة القارب، وقال وهو يقبض على طرفي المجدافين:

«هو محمود سهر امبارح في بوطة شلوفة؟»

صمت حنفي ولم يرد، وتشاغل بجذب حبال الشبكة، وكأنما كان في صمته الجواب الكافي، فلم يهتم العجوز بسماع الرد، وعاد يسرح مرة أخرى مراقباً طيور النورس وهي تتزايد في ضجة وصخب... وما لبث أن قال:

«النورس هاجم قوي، والنوة نازلة يا حنفي... حاتقعد لها بالقليلة أسبوع!».

كان تجمع النورس هو علامة هبوب الرياح، ما أن يتكاثر عدده، ويملاً صراخه الفضاء، حتى يعرف أهل الشاطئ فيه نذيراً بعاصفة قوية... وكان حنفي يرقب الطيور في صمت، ولا يجد لديه ما يقوله لعمه... ذلك أن ذهنه كان مشغولاً بما فيه من أفكار متلاطمة سوداء،

يشعر بأيامه تمر ثقيلة، وبالرغم من تناثر الإشاعات في الأيام السابقة عما حدث لعبد الموجود حمدان، ورغم ازدياد سريلانها بين الرجال الذين تلقفوها في شوق وكأنها المعجزة... إلا أنه - ولا يدري السبب - لم يستطع تصديقها بل رفضها في حيرة، وكلما ظهر الاطمئنان على وجوه الرجال، وكلما عادت حياتهم إلى ما كانت فيه من طمأنينة كلما أحس بالقلق والتوتر... وازداد شعوره بالوحشة والوحدة، وأضيف إلى همومه هم جديد، لماذا... لماذا يجد نفسه دائماً في ناحية، والرجال في ناحية أخرى؟

يقولون إن الإنجليزي الذي دفع له عبد الموجود نقوده لم يكن سوى نصاب، فقد مرت الشهور دون أن يظهر للسفينة أثر، بل إن عبد الموجود عاد يرسل رجاله بقواربهم العديدة التي لم يجد لها مشترياً... قالوا هذا وصدقوه واطمأنوا إليه، وراح حنفي يسألهم في قلق: «هل حلت المشكلة بهذا؟!»... كان يرى كل شيء كما هو، ما زالت الأسماك في جوف المياه لا تصل إليها شباكهم، وما زال الرجال - رغم ما جمعهم يوماً - متفرقين، من يملك قرشاً يضعه بين أسنانه في حرص ويخفيه عن الناس، ومن يملك الفقر لا يسأل ولا يبحث بل يستسلم لحياته في وداعة!...

ثمة خاطر خطر له ذات مرة وهو في طريقه إلى البيت، ماذا لو جاءت السفينة فجأة؟... ماذا لو أصبح الصباح فوجدوها راسية على الرصيف شامخة كغول يهدد حياتهم وبيوتهم؟... كيف يصحون من الحلم وقتها؟... وإذا فرض وكانت الإشاعة حقيقية، ماذا يحدث إذا أشرق فجر آخر ووجدوا رجالاً قد اشترى سفينة أخرى؟!

قال ذلك للرجال بالأمس فقط، قاله لهم وتحمل في صمت
وحزن ما انهال عليه من صيحات واستنكار صبوه من أفواههم
بلا حساب، وطلبوا منه بعد ذلك أن يوحد الله ويصلي على النبي...
وأكدوا له أن الخبر صحيح، ثم أخذوا يتغامزون فيما بينهم تلك
الغمزات التي كانت تثيره؟... ماذا وراءها؟... عبثًا، عبثًا حاول
أن يعرف!

استدار نحو عمه، وانتزع لسانه من مكمنه وهو يسأله:

«إيش قولك يا عمي في حكاية عبد الموجود؟».

بوغت العجوز بسؤال ابن أخيه، فنظر في وجهه متفحصًا، كان
تفكيره في تلك اللحظة بعيدًا كل البعد عما كان يدور في ذهن حنفي،
لكنه سرعان ما تمالك وقال مبتسمًا:

«إيش قولك انت يا حنفي؟».

قال حنفي في قوة وصرامة:

«أنني مانيش مصدق ان الحكاية طلعت نصب، هو ده معقول يابا؟...
دي الحكاية فيها محامي وشهود وشهر عقاري!».

«هم الانجليز يعرفوا ربنا يا حنفي... آهم يقولوا...».

قاطعه حنفي فاقد الصبر:

«يقولوا إيه؟...».

«الواد رومة رجع يقول ان المركب واصل خلاص، حلف لي الصبح
انه شاف التلغراف بعينه، لكني أني مش مصدق، هو ابن القديمة ده

يعرف يفك الخط عربي لما حايفكه انجليزي... ثم إن عبد الموجود
نزل قواربه المية ثاني!..

«ورومة شاف عبد الموجود فين؟».

«آل امبارح قابله عند ابو العباس، راح منادي عليه وقال له استعد
يا رومة المركب خلاص واصل!..».

«آني كنت عارف يابا... عارف وحياة النبي!..».

«انت بتصدق؟!».

قالها المعلم محمد في حماس جذب إليه عيني حنفي، فضيق هذا
ما بين حاجبيه في غضب، وقال متحمسًا:

«ليه ما صدقش يابا محمد ليه؟... مين اللي قال ان المركب مش
حاتوصل، دول كل يوم يطلعوا بحاجة جديدة لاجل ما يدوخونا في
دوامة ما تبطلش دوران!..».

ثم اعتدل في جلسته وكأنه عثر على برهان وعاد يقول:

«شوف يابا... من مدة عبد الموجود ساب الرجالة في القهوة وجرى
بعيد، بعث رجالته يدللوا على اللي يشتري قواربه، وهوب لقيناه كأنه
فص ملح وداب، بعد شوية سمعنا إن المركب مش واصل وان الانجليزي
نصاب، واللي قالوا كده رجالة عبد الموجود برضه، ويعدين القوارب
نزلت الميه... وبعدها عبد الموجود بلسانه قال لرومة ان المركب
واصل... فين الحق يابا، حد يعرف في ده كله فين راسه من رجله، وحياة
النبي ده مغرز لاجل ما يشحطط الرجالة يمين وشمال، يوم كده ويوم كده
علشان يتلهوا عنه ويسبيوه يدبر تدابير... مش كده والا إيه؟!... هيه؟».

«ما هو يا واد يقولوا ان الـ...».

«يقولوا يقولوا، ما توحّد الله يا بويّا، هم مين اللي يقولوا؟!».

«جرى إيه يا واد... الرجالة!».

«والرجالة إيش عرفهم، عرفوا منين، ما تصلوا على النبي امال».

«أما غريبة، انت جرى لعقلك حاجة يا واد، هي المركب مخوفاك

كده؟!».

قال المعلم محمد ذلك وهو يتسم في إشفاق، كان وجه حنفي قد اكتسى بلون الغضب الأحمر، وراحت يدها تجذبان جبال الشبكة في عصبية وتوتر، ولكن الابتسامة لم تفعل شيئاً حيال ذلك الغضب الذي استولى على حنفي، فعاد يقول:

«أنّي بابا بنص لقدام، لبعيد يا معلمي لبعيد، لو حصلت الحكاية دي، لو جت المركب، حانعملوا إيه؟ إيه اللي حانعملوا؟!».

«فيه رب اسمه الكريم!».

«هي السما حاتشتي سمك يا بويّا؟».

«انت حاتكفر يا واد، قول لا إله إلا الله!».

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، بس كل شيء بالعقل يا ناس».

«قصّك إيه؟!».

ولم يرد حنفي... وساد الصمت بينهما، وحلقت فوق رأسيهما طيور النورس الصارخة، وهبت نسمة من الشمال، فالتفتا دون وعي إلى حيث كان الأفق ملبداً بالسحب السوداء، فاستدارا برأسيهما،

والتقت عيونهما للحظة خاطفة، نهضا بعدها للعمل في نشاط ودون توقف، قبضت أكفهما على الجبال، وراحا يجذبان الشبكة في حنكة ودراية، وذابت حرارة الحديث في اهتمامهما بالصيد... بينما كان الرجال في القوارب الأخرى المتناثرة في الميناء يفعلون نفس الشيء... وبدأت الصيحات تملأ الجو... «يا متولي!»... «يا بو العباس»، وصاح المعلم محمد صيحته، وصاح حنفي صيحته... وجذب كل منهما أفكاره بعيدًا عن الآخر.

وما أن ظهرت الشباك على سطح المياه محملة بالأسماك، حتى تكاثر طير النورس، وملأ الجو من حولهما ضجيجًا وصياحًا، وراحت أفراده تنقض على الأسماك الصغيرة التي كانت تقفز من ثقوب الشبكة محاولة الفرار من مصيرها...

كان ارتياح حنفي يعادل ضيقه لانقطاع الحديث، ما إن سأل عمه عما يقصده حتى وقع في نفس الحيرة... حقًا، ما الذي يقصده؟... وما الذي يرغب؟... إلى أين يذهبون؟... وماذا يفعلون؟... ماذا يفعلون؟... هل ينتهي بهم الأمر إلى العمل عند عبد الموجود حمدان؟... أم ينتهي بهم إلى الزوح من الشاطئ الذي عاصر أعظم أيامهم؟.. كيف ينتهي بهم الحال؟... أيذهبون إلى رشيد؟... أم يمضون في طريقهم نحو الشرق وفي الشاطئ متسع للجميع؟... لكن لكل بقعة ناسها وأهلها وصيادوها... والطرق جميعًا مسدودة، عدا طريقًا واحدًا!... طريقًا يظهر له خلال سحابات الظلام المتكثفة حول عقله، لكنه لا يرى نهايته، أو إلى أين يؤدي!... هل تستطيع قوارب الرجال مجتمعة أن تقف في وجه الطغيان الجديد؟!..

أسراب القوارب تعود محملة برزقها، لكنها غداً لم تجد سمكة تحيي شباكها... وأصوات الرجال تدوي بالغناء والمرح، لكنها لن تعرف سوى الصمت بعد أيام... لماذا فعل عبد الموجود ذلك؟... لماذا يقعون هم دون سائر الصيادين تحت وطأة ذلك الغول المخيف؟... يقولون إن السفينة تستطيع إغراق البر كله بالأسماء، تستطيع أن تغطي البلاد كلها حتى أسوان، والسفينة تجيء بسفيتين، تماماً كما يجلب القارب قارين لو توفر الرزق وحتت المياه على الشباك.

ذراعه تجدفان في الطريق إلى الرصيف، وسحب العاصفة تتجمع وتزحف لتغرق الشاطئ بعد دقائق بالأمتار، ولتحيل سطح البحر إلى جحيم... عمه يجلس في استرخاء ورضاء وهو يدخن، الرجال كلهم مطمئنون إلا هو!.... فلماذا؟!... لماذا؟!...

«إيش قولك يا حنفي؟».

«خير يابا».

«في محمود».

«ما له يابا؟».

«بنقول يعني مش حايفلح وينصلح حاله إلا لما نجوزوه!».

وتوقفت يدا حنفي عن التجديف، ونظر إلى عمه غير مصدق، الرجل يتسم وكأن الدنيا خلت من الهموم.... ما الذي حدث لعقولهم؟

«إيش قولك يابن خويا؟».

«القول قولك يا عمي!».

ولو استطاع لصرخ فيه: «انت مجنون يا عمي؟... إحننا في إيه
والا في إيه؟...»، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يقول ذلك لعمه،
ولا يستطيع أن يقنع الرجال بوجهة نظره، ولا يستطيع أن يتزوج...
و... ولا يستطيع شيئاً... محمود لن يوافق على الزواج، كانت ليلة
الأمس عرساً زف فيه محمود إلى كايداهم، رقص له الرجال وغنوا...
لم ينقص سوى المأذون ليصبح كل شيء في تمام أصوله، طالما عجب
لمحمود ولحبه... قال له ابن عمه ذات مساء إنه لم يقرب كايداهم،
وأنه لن يقربها، كاد يضحك منه ويتهمه بالجنون أو الخنوة لولا كلماته
الحزينة، كلمات التصقت بقلبه ولم تفارقه حتى الآن... «ما أخيش
عليك يا حنفي، الولية رايداني... لكن نرجع ونقول إيه آخرتها، حانا كل
في نفس الماعون اللي أكل فيه كل واحد؟!».

«بنقول نجوزوه ونخلصوا يمكن ينكن في حضن مراته!».

«هو محمود ما له يابا، ما هو زين في وسط الرجالة».

«وهو الجواز وحش يا واد، طب والله العظيم لولا إني عارف انك
مستني أختك لجوزتك من سنين، دانا أبوك يا واد!».

«كله بأمر الله يابا محمد... بكرة تتعدل!».

«تتعديل قوي... إنما إيش قولك؟ ما تشور عليّ يا حنفي!!».

«والله يابا...».

وصمت... وكان لا بد أن يصمت. فماذا يقول؟... صرخات
النورس تدوي في أذنيه... وفكرة تضيء في ذهنه! تسطع بنورها الوهاج
فيبتسم دون أن يعي... أيكون الأمر خاصاً بعائشة؟... أيتزوج محمود

عائشة؟... ولم لا؟... بل لا بد أن الأمر كذلك، وإلا، فلم ييتسم عمه، ولم تحدث عن زواج عائشة؟... قلبه ينبض في مرح وكأنهم يزفونه الليلة إلى زوبة!... الرصيف يقترب، والعرق يتصبب من جبينه رغم البرد القارس، ودماؤه تركض في عروقه في نشوة... لماذا فكر عبد الموجود في شراء السفينة؟ ولماذا لا يكون الأمر كما قال الرجال؟... نعم، لا بد أن الإنجليز نصبوا على عبد الموجود وخطفوا منه نقوده. لماذا يحمل الهم وحده، لترك العنان لأجراس الفرحة تدق في قلبه كما تدق في قلوب الكثيرين...

«بوجي يا حنفي. على إيدك».

«على الله يابا».

وصلا إلى الرصيف، قفز من مكانه خفيفاً، وحمل الأسماك فوق كتفه وكان به قوة عشرة رجال... سيعود عمه للحديث وهما في طريقهما إلى الحلقة، الوقت لا يزال مبكراً فلن يذهب إلى المقهى... محمود يتزوج عائشة، ويتزوج هو زوبة... ولكن، أيرضى محمود أن يترك كايداهم؟... وهل يقبل هو أن يزوج أخته من رجل تعلق قلبه بامرأة فاحشة؟... أيلقي بشقيقته إلى أحضان رجل يحلم بمومس ولو كان هذا الرجل هو محمود؟...!

الطريق طويل، وبشائر المطر راحت تتساقط رذاذاً يغسل وجه الدنيا من حوله... وعمه يسير بجواره مطرقاً، ولو طلب عائشة فلن يستطيع أن يرفض، لن يستطيع أن يقول لا... وسترحب أمه، وتفرح أخته، وربما يذعن محمود... ستلتقي عيونهما فماذا يقول وقتها؟.... حتى الفرحة لا بد له من نغمة حزينة؟!

«تعرف يا واد يا حنفي، أني خايف نموت قبل ما نفرح بيكم ونشوف ولادكم!».

«ربنا يديك طولة العمر يا بابا... بكرة تتعدل».

«قلت في عقل بالي نجوزوه قبل ما نموت... ومن يوم حكاية الغرق دي يا حنفي وأنّي قلبي بياكلني... الواد سارح على حل شعره!».

«ما توحّد الله يا بابا أمال...».

«بنقول لك يا واد من يوم حكاية الغرق وأنّي بنفكر في الموضوع، هو لولا ابن المتعوس عبد الموجود كنت جوزته من أيامها، حكاية جت زي القضا، لا كنا عارفين نعيش ولا ناكلو لقمة براحة... ما هو كارنا كده يا حنفي، يوم البحر يديلك، وعشرة ياخذ منك... انت يا واد شغلاك حكاية المركب دي... لكن افرض أنها جت، حانعملوا إيه يعني، نموتوه؟... كلام فاضي، نقعدوا على الرصيف ونعيطوا؟... نبقى نسوان، كل واحد برزقه يا حنفي، ومحدث بيموت من الجوع!».

«ده صحيح يا بابا، إنما لازم نشوفوا حل قبل ما تطبل على دماغنا!».

«نشوفوا حل؟... ربنا موجود! ده هم فوق الهموم يا واد، ولما تيجي المركب يبقى يحلها حلال... إمبراح بالليل قلت في عقل بالي، إزاي نوقفوا عيشنا على حاجة في علم الغيب؟... ويعني لو جت المركب حايحصل إيه؟... كل ما فيها إننا نشدوا حيلنا حبتين، سعر الرزق حايנزل في السوق، ده صحيح، بدال ما ترمي طرحة ارمي اتنين... وبدال اتنين ارمي ثلاثة!... كده والا لا؟!».

«لأ... ما هو ده مش حل!».

«شفت يابن السيد، دماغك ناشفة زي أبوك... وآهو الكلام سرح
بيننا، وبدال ما نتكلموا في الفرح، تجرنا بت الأبالسة سيرة المركب دي
للغم، سيبها لربك يعدلها، قلت إيه بقى في جواز محمود؟!». «
انت شورته يابا؟!».

«هو آني أعمى يابن السيد، ما آني عارف حكاية الولية اللي مرافقها!». «
ولية؟!».

«وقفت ليه؟... مد بيننا، هو آني نايم على عنية يا واد، آني عارف
كل حاجة من زمان، قلت آهة شاب زي بقية الشبان، جدع زي بقية
الجدعان، وبعد ما كنت نسيت حكاية الجواز، قلت نصبر شوية لما
تعدل وينصلح حاله، رجعت نفكر فيها تاني!». «

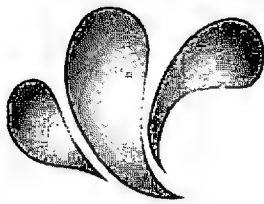
برضه لازم تشوره!». «

هو يقدر يقول لأ... دآني...». «

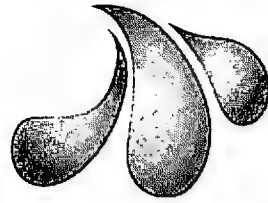
وحد الله يابا، ده جواز مش لعب!». «

«ما هو اللي آني ناغي همه يا حنفي، خايف ندي له بت الناس يمرط
بيها الأرض... ده اللي آني ناغي همه!...». «

وساد بينهما الصمت من جديد... ولاحت لهما حلقة الأسماك من
بعيد... كان الرجال متناثرين أمامها وحولها، يروحون ويجيئون في نشاط،
وأصواتهم تصل إليهما صارخة بالأسعار... وهطلت الأمطار فأغرقت
ملابسهما، وأسرعوا في سيرهما... حتى إذا اقتربا منها، برز حمودة من
الداخل يحمل شبكته على كتفه، وقفص أسماك الخالي في يده... وما
كادا يصلان إليه، حتى همس في أذن حنفي بلهجة سريعة حاسمة:
«عاوزك بعد ما تخلص يا حنفي!».



الفصل العشرون



رفع حنفي السلال الفارغة تحت إبطه، واستدار نحو الباب وقد بدت على وجهه علامات اهتمام شديد... كان حمودة لا يزال مكانه منذ تركه حنفي، وما إن رأى ابن أخته مقبلاً عليه حتى تنفس ملء صدره... وسرعان ما لحق بهما المعلم محمد وهو يدس النقود في جيب صديريته، وما إن حاذاهما حتى انطلق الجميع مغادرين الحلقة.



ساروا بحذاء الشاطئ متجهين إلى الغرب فلاحت لهم مقهى سلمو من بعيد، واشتد هبوب الرياح وزمجرتها، وعادت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً بعدما توقف المطر... عن يمينهم كان البحر يلد أمواجاً عاتية، كانت تزحف في جبروت، ثم ترتمي على الشاطئ الرملي وتذوب فيه... وما هي إلا لحظات حتى اقتربوا من المقهى، فتوقف المعلم محمد عن المسير، واستدار نحوهما وهو يقول:

«على فين... مش رايعين القهوة؟!».

فقال حمودة على الفور:

«لا والله يا بابا محمد، حانروح نشترى دوا من الميدان!».

فقال المعلم محمد بصوت خفيض، موجهًا حديثه إلى حنفي:

«عاوز فلوس يا حنفي؟!».

«لأ بابا... معايا».

«ما تاخدلك قرشين يا واد...».

«معايا كفايتي بابا، لما نعوز نطلب!».

«سلام عليكم».

قالها المعلم محمد وهو يستدير ليعبر الطريق، ومضى الرجلان في طريقهما بلا كلمة... حتى قال حنفي فجأة:

«خير يا خالي؟».

«خير يا حنفي... خير إن شاء الله».

لاح لهما الشاطئ المهجور مبرد السطح نائر الأمواج مصطخب المياه، وعند نهايته كانت صخرة رأس التين بلونها الداكن، تتلقى نهش الأمواج في صلابة وجبروت، وسرعان ما غرق حنفي فيما كان يغرق فيه كلما لاح لنظره هذا الشاطئ، أحس في قلبه برهبة لم يستطع تفسيرها، خطف نظرة من وجه خاله الذي كان يسير بجواره منكس الرأس مستسلمًا لأفكاره، وقد بانت على ملامحه علامات الهم... لأك حنفي في ذهنه كل احتمال، وتردى في الحيرة كعادته، لكن عينيه سرعان ما برقتا، وتوقفت كل أفكاره عند ذلك الخاطر... ترى، هل ينبغي حمودة الرحيل؟!!

«على فين يا حنفي؟!».

كان حنفي كعادته يَجِدُّ في السير نحو الصخرة الشامخة، لكنه انتبه على سؤال خاله، فابتسم في وهن وتبع حمودة الذي كان يعبر الطريق

إلى حارة السعداوي، ومن ثم راحا يسيران من حارة إلى الزقاق، ومن زقاق إلى آخر دون أن ينطق أحدهما بكلمة، وكأنه يخشى الحديث... وراح حنفي يتساءل وقد استحوذ عليه القلق، سيثور الرجال في الزقاق، وستطول المناقشات والأخذ والرد، وليس هناك سوى حل واحد، فالعقل يقول لحمودة، ارحل، ولكن القلب يتشبث به في استماتة غير قادر على فراقه... فأيهما يتبع؟!

كانت المقهى التي دلفا إليها مكتظة بالرجال، أغلقت أبوابها ونوافذها، فبعق الجو بالدخان وبخار الشاي والينسون، وارتفعت طرقات أوراق اللعب وهي تصفع المناضد في حماس مختلطة بصيحات استحسان، أو صرخات لاعنة، وضحكات مرحة ونكات بذيئة!

اتجهوا إلى أحد الأركان، وألقى حنفي بسلاله الفارغة تحت قدميه، بينما دسّ حمودة سلته الوحيدة تحت المنضدة، ثم أخرج صندوق سجائره ودسّ إحداها بين شفتيه... ونادى حنفي الجرسون، وطلب الشاي، ثم التفت إلى خاله وقال كأنه يزيح عبثاً ثقيلاً ناءت به كتفاه:

«خير يا خالي، خير إن شاء الله؟!».

«أيوه يا حنفي... كنت عاوز نقول....».

وتوقف حمودة عن الحديث وزفر في ضيق وهو يخطط ركبته ببطن يده، وراحت عينا حنفي ترقبانه في حنان، فقد كان يعلم مقدار ما يعانیه خاله، ومقدار ما سيعانیه في المستقبل، على أنه أحس رغباً عنه بالراحة تغمر كيانه أن فكر حمودة في الرحيل، وحتى تلك اللحظة لم يكن

موقناً من الأمر، لكنه شيء كالإلهام كان يلح عليه، سيرحل حمودة ولا شك، سيرحل ويترك الزقاق إلى مكان جاف الهواء يشفي علته... وتشاغل حمودة بسيجارته بينما غاص حنفي في تفكيره متسائلاً: لماذا يتردد حمودة في الإفصاح عما يريد؟... سيقف الجميع في وجهه، وسينصره هو... سيهبون صارخين لاعنين، فكيف يفارق فرد من عائلة البلطي زقاقها؟!... ووجد نفسه يتسم في سخرية... فما جدوى الحياة والموت يتهددها بين لحظة وأخرى؟!

لماذا لا يفتح الطريق أمام خاله... مسكين حمودة...

«كنت عاوز نقول يا حنفي، إيش قولك في حالي؟».

أفصح يا خال فما عاد هناك وقت للتردد، أقدم يا خال فما عاد في صدرك متسع للترجع، أتسألني عن حالك؟!... وجهك أصفر، وعيناك غائرتان، وصدغاك شاحبان، ورقبتك نحيلة... لماذا تسألني وحشرجة صدرك يسمعها جيراننا في الزقاق المجاور؟!

«إيش قولك يا حنفي؟... سكت ليه».

«حانقول إيه يا خالي، حانقول إيه بس».

«إيش قولك في حالي؟!».

«حالك؟... أسأل صدرك يا خالي، أسأل السيد أفندي، أسأل الحكيم وأنت تعرف حالك!».

تهلل وجه حمودة وبرقت عيناه، وأخذ يحملق في وجه حنفي كأنه يراه لأول مرة، رفع كوب الشاي إلى شفثيه ورشف منه في تلذذ... إلى أي مدى يشبه حنفي أباه؟... إلى أي حد يذهل؟!... نفس الوجه، نفس

العينين الثابتين، نفس الأنف الكبير ذي الطاقتين الواسعتين، نفس الشفتين الغليظتين والشارب الكث، حتى الذقن العريضة المستوية في أسفل الوجه وكأنها قاعدة بناء شامخ!... ليس حنفي أكبر الرجال عمراً، ولا أرفعهم مقاماً، لكنه أقرب الجميع إلى قلوب الجميع... إنه صامت في حنان ينتظر حديثه، وسيلقي بين يديه بما في نفسه، يكاد يوقن أن السيد ترك في ولده سرّاً لا يعرفه أحد... ترى، هل حدس حنفي ما يجول بخاطره؟

«ما هو علشان كده يا حنفي كنت بنقول...».

«عاوز ترحل يا خالي؟!».

كأنه أزاح عن صدره عبئاً ثقيلاً، ليتنفس في حرية إذن، وليجذب نفساً من السيجارة، وليرشف رشفة من الشاي، فقد اجتاز الخطر.

«أيوة يا حنفي، العيال يا ابن اختي، خلاص آني مانيش قادر!».

«والزقاق؟!».

«صحتي ضاعت يا حنفي، كل يوم والثاني أروح في إيديكم، إيش قولك؟».

«على بركة الله يا خالي!».

«يعني أنت معايا؟...».

«ما باليد حيلة... بس...».

«بس إيه يا حنفي، العين بصيرة واليد قصيرة، آخر مرة جاني فيها الدور السيد أفندي اشترى الدواء من جيبه، حرام يا ناس داني ما بنزلش

المية إلا بالعافية، القرشين اللي حيلتي خلاص، راحوا على الدوا، هو آني غريب على الزقاق يا حنفي؟ داني جيته وآني ابن تسع سنين، والمرحوم أبوك كان هو أبويا وأخويا، وأنت عارف إزاي جه الزقاق وإزاي عمل العيلة، عشنا كلنا في حباه، ولحم أكتافنا من خير، وسيرته لازم نحفظها ونصونها أي نعم، لكن العمل إيه؟... هيه؟... العمل إيه يا حنفي؟».

كان حمودة يتحدث ويتحدث وهو يرتجف من الانفعال، راح يصب بين يدي حنفي كل ما يريد قوله، واختنق صوته وغص حلقه ولم يكف عن الحديث:

«العمل إيه دلوقت؟... أبص للعيال وهم مهزولون قلبي ينقبض، مش قادر يا بن أختي نستنى، ما يهونش عليّ نموت ونسيبهم، لازم نرحل، لازم يا حنفي!».

كانت ملامح حنفي تنطق بالألم الدفين، اغرورقت عيناه خاله بالدموع فانتفض قلبه بالأسى، رسم على شفتيه ابتسامة وقال في هدوء: «ونويت على فين إن شاء الله؟».

«حانزل مشوار مصر، ونجس النبض هناك، ندور وربك يعدلها!».

«حانشغل إيه في مصر، هو فيه صيد هناك؟».

«في النيل يا حنفي، لكن آني مش حانشغل صيادا!».

تقلصت ملامح حنفي فجأة، واعتدل في مكانه، وراح يحملق في خاله:

«أمال حانعمل إيه يا خالي؟!».

«أنى فكرت كثير يا حنفي، ورسيت لي على بر».

«خير...».

«حانفتح دكانة سمك، نشتغل سماك!».

«سماك؟!».

قالها حنفي وذهنه يتنفض بالانفعال... وعاد حمودة يقول:

«أيوه يا بن أختي، بقى صلي بينا على النبي!».

ولأول مرة منذ زمن طويل كان حنفي يُصغي لحديث ما بكل جوارحه، كان قلبه يضطرب اضطراباً شديداً، لاح له الفرج عن بعد وكأنه طريق الخلاص، خاله يتحدث ويشرح ويحكي... هذا هو الحل!... كيف لم يفكر فيه؟... بل كيف لم يعثر عليه؟... إذا باع حمودة قاربه وشبكته وافتح محلاً للأسماك لن يجوعوا... يصيدون صيدهم، ويحملونه إلى القطار بدلاً من الحلقة يبيع خاله في القاهرة رزقهم فيرزقون ويرزقونه... ليفعل عبد الموجود ما بداله، ليأتي بسفيتين أو ثلاث فلسوف يفعلون ذلك مهما طال الزمن، ولو تجمع الرجال بقواربهم وشباكهم واتفقوا لاستطاع حمودة بيع أسماكهم بأسعار معتدلة... خاله يتحدث عن ثلاثة كبيرة معروضة للبيع، ما أحلى حديثك يا خال، لولا الملامة لقبيلتك ورقصت وطربت، سيزداد الرزق ولن تتحكم فينا سوق الحلقة ولا أسعار تجارها... حقيقة هذه أم حلم؟!... هذا... هذا وحده هو الحل.

«معايا يا حنفي؟!».

«معاك يا خالي... معاك، قول، معاك قوي!».

«دكانة زي ما قلت لك على قد الحال، في حنة لا هي كده ولا هي كده، يعني بين البينين، نحط فيها التلاجة، وتبعنوا لي السمك أول بأول، يوم بيوم، وبدال ما نشتري من الغريب، إنتو أهلي، والعيشة تبقى معدن!».

كيف حملت كل هذا في صدرك دون أن تبوح به، إنه يا خال ما كنت أبحت عنه طوال الشهور الماضية، ولكن اسمع فقد تفتحت لعيني طاقة الحياة:

«عاوز نقول كلمة يا خالي!».

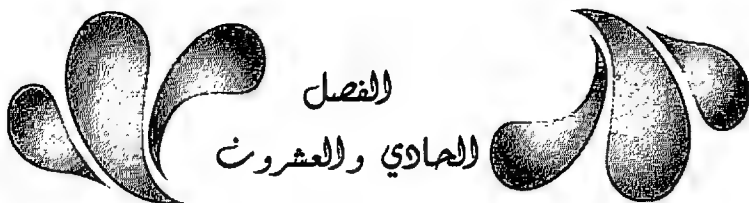
«خير يا حنفي!».

«عبد الموجود مش حايقدر يثدينا بعد كده، الرزق يوصل لك في نفس اليوم، نشوفوا مواعيد القطارات، ونرتب أمورنا أول بأول، ولو وافق الرجالة على كده، قصدي الرجالة كلهم يا خالي، تبقى انحلت، بيع عبد الموجود مطرح ما هو عايز، في مصر مش حايقدر يسعف، المركب بتغيب بدل اليوم عشرة في عرض البحر، والقارب على الله ساعة بساعة، اليوم بيومه... فاهمني يا خالي؟!».

«قصدك إيه يا حنفي؟».

«بقى صلي بينا على النبي!».

«ألف صلا على الحبيب!!».



الفصل الحادي والعشرون

فتح محمود عينيه، وأجال بصره في الحجرة، فارتد إليه وعيه على الفور، ونهض متثاقلاً وهو يتشاءب ويتمطى.

كان الظلام يسود الحجرة، رغم تسرب بصيص من ضوء النهار من فرجة النافذة المواجهة للفراش، التفت إلى يسارها فرأى مكان «كايداهم» شاغراً، أجال بصره في الحجرة ولمح على الكنية بقايا سهرة الأمس... صندوق سجائر، قطع ملونة من الورق لا بد أنها لا تزال تحمل رائحة المخدر، الجوزة قائمة عند قاعدة الشباك، المعجمة متربعة وسط الحجرة وقد خمدت نارها، لاسته ملقاة في إهمال، وحذاؤه عند الدولاب... و... وراح ذهنه يسترجع أحداث الليلة الماضية، فلاح له من خلال بقايا ضباب أزرق ما زال عالقاً بحواسه شاحبة مختلطة، أحس بدوار، وسعل... ثم ارتكن إلى الوسادة وأغمض عينيه من جديد.

ترى... أين ينتهي به المطاف؟!

تقلب في مكانه ودثر نفسه بالغطاء، ثم دفن رأسه في الوسادة وهو يتشاءب، انتظر أن تدلف كايداهم من الباب، لكن اللحظات مرت وهو وحيد، سمع همساً في الخارج، لكنه لم يفصره، ولم يبال... طال انتظاره فنهض مائلاً بجسده نحو الكنية والتقط صندوق السجائر... أشعل سيجارة ونفث دخانها، وسعل. تنبه وقتها أنه لم يخرج للصيد،

وهز كتفيه في استهانة، لا بد أن يغضب أبوه... تصاعدت من فمه وأنفه
سحب الدخان فعاد يلقي برأسه إلى الوسادة.

ماذا بعد... ماذا بعد يا كايدهم؟!

أذاقته بالأمس من فنون الحب ما لم يحلم به، قدمت له جسدها
وروحها وعبثت وضحكت ورقصت وبكت وتمرغت على صدره
وسقته من خمر لم يذق ألد منها. طلع عليه النهار حنوناً كحنو قبلاتهما
في آخر الليل... هل يصدق؟!... هل تملك المرأة مثل هذه الكنوز?...
ماذا قالت له، وماذا قال لها؟!... زفوهما بالأمس في البوطة وغنوا
ورقصوا ورقصت هي له وحده، غنى وغنى وغنى ولم يكف عن الغناء
حتى دفعوه إلى صدرها... كيف بدأ الأمر، وكيف انتهى؟... فقد
المعلم جمعة بالأمس وقاره، بكى وهو يغني ودمعت عيناه وقال
والدموع تنزلق على وجنتيه:

«نفسي نفرح بيك يا محمود!».

كأنه والديناجي ولده، سمع ذات يوم أن للمعلم جمعة ابناً قتله
الإنجليز في هوجة سعد، أذهله بكاء الرجل كما أذهل الجميع ولم
يستطع أحد أن يسأل عن السبب... تركوه يرقص ويصفق ويغني ويعب
من البوطة أكوازاً وراء أكواز... تحول المكان إلى جمرة ملتهبة من
الحياة والسعادة، امتلأت البوطة بالرجال واختنق جوها بالدخان، قلبه
يحن إلى «كايدهم» وهو غارق في أحضانها، لماذا تأخرت وماذا تفعل
في الخارج؟... ما الذي قاله من أشعار بالأمس؟... لا يذكر، وإن كان

موقناً أن المعلم جمعة سيردد شعره اليوم لتحيته... فجأة صاحوا
في الطبال والزممار أن يعزفا لحن الزفاف، ضحكت «كايداهم» حتى
كادت تسقط من الضحك، ثم أطلقت زغرودة ألهبت المشاعر
وأدارت الرؤوس.

صاح رجل:

«عاوزين عريس!».

وصرخ آخر:

«آني نفسي نتجوز!».

رد عليه ثالث:

«تجوز مين يابن القديمة؟».

فقال الرجل وهو يتمايل مترنحاً:

«أمك يابن أم جلمبو!!».

وضج المكان بالضحك...

انتهت السيجارة، فليشعل غيرها... أخذت الذكريات تسلك من
ظلام ذهنه في تسلسل... نفسه تصفو وتشف حتى ليكاد يمسك
بأصابعه حبه الكامن في صدره، الحياة حلوة، أجمل لحظاتها تلك التي
نلقي فيها بأنفسنا في خضم صخبها وضجيجها ونارها لتلهبنا وتصلق
مشاعرنا فنقول الشعر، عندما زغردت «كايداهم» مرة أخرى، جذبه
المعلم جمعة من يده وألقى به على صدرها، احتضنته وهي تقول بخنان:
«اسم الله عليك!».

كاد يتشبث بها، ويدفن رأسه بين نهديها، ويكي!... لولا أن غنى الرجال مع اللحن المعزوف: «اتمخطري يا حلوة يا زينة!»، ضجة وصراخ وغناء، لهيب تندلع ألسنته في النفوس فتحيل الحياة في نظر السعداء إلى جنة حمراء، لأول مرة يرى الرجال وجه «كايداهم» وقد كسته طبقة كثيفة من الحزن، نظر إليها من خلال أبخرة البوطة التي كانت تغلي في جوفه، رآها كالدامعة... همس في أذنها فجاء صوته وكأنه آت من أعماق المحيط:

«مالك يا «كايداهم»؟!».

قبضت بأصابعها على ذراعه، وأنشبت أظافرها في صديرته، وعضت على شفتها السفلى، وتقلص وجهها، فهمس في حنان:

«مالك يا «كايداهم»؟!».

«ولا حاجة يا محمود، ولا حاجة... رُوّحني!».

اعتصر الحنان قلبه، تطلب منه أن يذهب بها إلى البيت، ليس غريباً أن يذهب معها، لكن الغريب أن يذهب بها وهي التي تذهب بكل الرجال... ربح الطريق قوية باردة، والأصوات تصل إليهما من البوطة صاخبة... وهما وحيدان كل منهما متشبث بالآخر، يعبران شارع السبع بنات، وتغوص أقدامهما في طين الزقاق الصاعد إلى حيث يرض حي النساء، السكون يشمل الكون، تمزقه بين الحين والحين ضحكة فاجرة، أو صوت فاحش... رجل يترنح ويلقي بنفسه في طريقهما فيزيحه بذراعه، ويمضيان صامتين في الظلام يسود الحجرة، والبرودة جمدت كل شيء فيها، ونور المصباح الذي أضاءته «كايداهم» شاحب كوجهها.

«ما لك يا «كايداهم»؟!».

جلست أمامه فوق الكنية، ونظرت إليه طويلاً ثم ابتسمت قائلة:

«معاك سيجارة؟».

مد لها يده بالسيجارة فأشعلتها، ثم سهمت ببصرها، وعادت تنظر إليه متفحصة، وكأنها تبحث في وجهه عن شيء... .

«تحشش يا محمود؟».

صمت ولم يرد... نهضت وسارت إلى الدولاب، وراحت وجاءت وهي تعد الجوزة والمجمر وتنفخ في النار وهو ساهم ينتظر عودتها، لم يكن يفكر في شيء بعينه، ولم يكن يعرف كيف يفكر... كان يعلم أن الليلة ستنتهي ككل ليلة، سيلقي كل منهما بجسده بجوار الآخر، ستقبل يده ويقبل وجنتها. ستدفن رأسها في صدره ثم ينامان!... يظن الرجال أنه نالها كما نالوها واحداً بعد الآخر، لا يدري السبب فيما يتابه من ضيق كلما فكر في هذا الموضوع، لو أرادها لما رفضت، هو موقن من ذلك، لكنه حرمها على نفسه كمعبود مقدس منذ تلك الليلة... لماذا وهي عملة متداولة في كل يد؟... شعرها تهدل على كتفيها، ودماؤها صعدت لتصبغ وجنتيها، والنار ملتهبة تحت أقدامها... راح يحملق فيها وهو يتساءل في دهشة: «أهذه هي «كايداهم»؟!»... جرت عيناه فوق بشرتها ثم استقرتا فوق أنفها، فوجده دقيقاً مستويًا ذا فتحتين رشيقتين، العجيب أنه اكتشف جهله بملامحها!... شفتاها مكتزتان مستويتان في امتلاء، منطبتان في ليونة، أراحت كل شفة نفسها على صدر الأخرى في تعب... حول عينيها سواد يعطيها جلالاً أخاذاً، ذقنها مدببة أنيقة

صغيرة، رقبتها مستديرة ممتلئة، وشعرها فاحم كسواد الليل، يحيط بوجهها كإطار يحيط بصورة رائعة الحسن... إذن، إذن فهذه هي «كايداهم»... حبيبة القلب، وملهمته، وباعثة الحياة في حياته!

أصابعها تعد الجوزة في حنكة، أصابع مستطيلة مكسوة بطبقة من اللحم كأنها الندى في رفته، وذراعاها كقالبى السكر في استدارتهما وحلاوتهما، وصدرها ممتلئ مهذل بعض الشيء وبطنها عالية، يتموج فوقها الفستان اللامع تحت ضوء المصباح فيأخذ بصره، أصابع قدميها طويلة الأظافر تخضبها الحناء... لماذا لا تحني «كايداهم» يديها... لا يدري، ولا يهمه أن يدري!

إذن... فهذه هي كايدهم؟

هل هو سكران؟!

«بتفكر في إيه يا محمود؟!».

أفاق على تغريدها وهي تمد له يدها بالجوزة، نظر إليها ثم قال:

«كان مالك الليلة يا «كايداهم»؟».

قدمت له طرف الغاب فدهسه بين شفتيه وراح يجذب أنفاسًا شرهة، ثم نفث سحابات الدخان فغطت وجهها، دست طرف الغاب بين شفتيها، فتساءل في مرح: «أليست الجوزة أسعد منه حالاً؟!». وابتسم، ثم ضحك.

«بتضحك ليه يا محمود؟».

امتدت ضحكته من أعماقه كأنها جبل طويل اختزنه طويلاً، حاول أن يتوقف فلم يستطع، رآها تحملق فيه فازداد ضحكه حتى استلقى

على ظهره ودمعت عيناه، ما الذي حدث له، لكنه تمالك نفسه بصعوبة،
ومسح دموعه وهو يقول:

«مش عاوزه تقولي لي كان ما لك الليلة يا «كايداهم»؟...».

نظرت إليه بكل عينيها، ثم قالت متعثرة، كأنها عذراء:

«ما سألتنيش ليه يا محمود؟».

«على إيه؟....».

«الرجالة فاكرين إنك رفيقي!».

«عارف...».

قالها في اقتضاب ومرارة، وأحس كأنه جرح، وكأن كبرياءه
أهنت... قد نؤمن في قرارة أنفسنا بقيم نخجل من التصريح بها حتى
أمام أحب الناس إلينا، رضي بنصيبه منها ولم يحاول أن يتعداه، لكن
عذابه كان كبيراً، ونظرات الرجال من حوله تلقي به في أتون ملتهب
بالضيق والحيرة والعذاب... ترى ماذا يقولون لو عرفوا الحقيقة؟....
وهل سيعرفونها ذات يوم؟...

«فاكر يا محمود أول ليلة جيتها هنا؟».

سؤال غريب... هل نسيتهما هي؟ هل نسيت حرفاً مما قالاه في تلك
الليلة... أليكون شاذاً بين الرجال دون أن يدري، هل لعب المخدر
برأسه؟ كلا، ولكن... لكنه يخجل من الاعتراف أمامها بما صبر عليه
طوال تلك الأيام.

«فاكر... عاوزه تقولي إيه؟».

«عارف آني حرمت نفسي عليك ليه؟».

وضعت يدها - بقسوة - فوق موطن الجرح فكاد يصرخ من الألم رغم إيمانه العميق أن ما تقوله هو الحق، إلا أن الغضب يثور في صدره كالبركان، لقد رضي أن تحرم عليه نفسها، لكنه حرم عليها نفسه هو الآخر!... أليس هذا صحيحًا؟... أم هي بلاهة محب يشمخ برأسه؟!... قال بنبرات صارمة:

«عاوزة تقولي إيه؟!».

«زعلت يا محمود؟!».

«اتكلمي!!».

«ما لك يا صاحبي؟!».

هل هو يحبها حقًا؟... أم هو وهم يعيش فيه؟... وهل هي تحبه؟... وإذا كان كل هذا صحيحًا، ليذهب الحب إلى الجحيم، فكيف يسمح لعاهرة أن تُحرّم نفسها عليه؟... لا كان الحب ولا كانت الدنيا لو صبر على ذلك ساعة أخرى.

«اسمعي يا بت، آني لو حبيت حاجة حاناخدها بمزاجي، وكل ده كان بكيفي، آني اللي عاوز كده، فاهمة؟!».

«محمود...».

«حافظي على ملافظك، حرمتي نفسك على راجل يا «كايداهم»، كل شيء كان برضايا، آه، برضايا ومزاجي!».

منظر الخوف على وجهها يمزق قلبه، لكن رجولته في الميزان، فليستمر...

«محمود، إنت سكران واللا مسطول؟... وهو آني نحوش عنك حاجة؟».

«إوعي تفتكري كده!».

أشارت إلى الفحم المتوهج في الموقد وقالت بصوت مختنق:
«ينحرق عضمي زي الفحمة دي ما كان قصدي، حتى أنت يا محمود!».

دموعها تريح أعصابه وترطب قلبه، كيف قال ما قال؟... لماذا يجرحها وكان قد أتى ليمسح الحزن عن نفسها؟... لماذا يفضل الرجل رجولته على حياته؟...
«كفاية عياط بقى!».

«حتى أنت يا محمود؟».

«عينيك دمعت ليه في البوطة؟».

«صعبت علي نفسي!».

«إزاي؟!».

لو كان للألم معنى لكان ما ارتسم على وجه «كايداهم» في تلك اللحظة، حديثه باتر وكلماته مقتضبة وكأنه إله يحدث عبداً من عبيده، خير لقلبه المضطرب أن يلقي عن لسانه ذلك الجفاف وأن يمد إليها ذراعيه ويضمها إلى صدره، رغبة حارقة تدفعه لأن يحطم ضلوعها فوق ضلوعه، لهيب يندفع من أعماقه فيحرق شفثيه بلوعة ضارية.
«دول كانوا بيزفونا يا محمود!».

«ودي فيها إيه؟!...».

«وهي اللي زيي لها الزفة يابن الناس؟!».

رغم رغبته الحارقة في اجترار ذكره، فإن الأحداث اختفت في طوفان السعادة التي أغرقت قلبه، بكأؤها بالأمس لن ينساه، وضحكها بعد ذلك لن يسلموه، أبداً، وسيطلب منها كل يوم أن تضحك كما ضحكت، أن تتحدث كما كانت تتحدث، أن تهمس في أذنه لتداعب أنفاسها صدغه... لكنه يعرف كيف بدأ الأمر، وكيف لان صوته، ورطب الحنان جفاف كلماته... قال لها بنفس لهجته الجافة وكأنه يدافع عن شيء عزيز:

«وانتي ما لك يا بت، بيكي إيه؟!... ألف راجل يتمنى ضفرك!».

«يسلم لسانك يا محمود... لكن...».

وصمتت، واشترأت بعنقها نحو النافذة، وأخذت تحملي في ظلام الطريق خلال فرجة بين دلفتيها، ثم قال دون أن ترفع إليه وجهها:

«شايف آني ساكنة فين يا محمود؟....».

«مانتي اللي عايزة كده!».

«بتحبني زي ما بنحبك؟!».

فاجأه سؤالها، فانتفض، وزاغت نظراته:

«ليه بتسأليني السؤال ده يا «كايداهم»؟».

«من نفسي!».

«وحياة من ملأ البحر بالرزق بنحبك، إنت يا بت مش عارفة كده؟».

«عارفة!».

«طب اضحكي!».

وضحكت...

«اضحكي كمان!».

وضحكت أكثر... ثم أكثر، ثم قدمت له الجوزة، وبعدها رقصت، وأبدعت، مالت عليه، وقبلته في شفتيه، واهتز جسدها وارتجف كأن به ألف جني يبعثون الرعدة في أوصاله... ثم توقفت فجأة وصوبت إليه عينيها في جسارة، وقالت:

«عارف ليه بأه آني حرمتك على نفسي؟!».

لم يغضب، ولم يثر... بل سألها مبتسمًا عن السبب:

«ليه يا «كايداهم»؟!».

«علشان تفضل تحبني!».

وضحك وضحكت... ثم ضحكا حتى تقطعت أنفاسهما من الضحك... وعندما هدأ، قال لها وكأنه يفيق من حلم:

«بقي كده يا «كايداهم»، ده اسمه كلام يا بت؟!».

«معلوم اسمه كلام... الواحدة مننا يا محمود مالهاش العشق، والحب في حياتنا حرام... زي الحشيش اللي بتمنعه الحكومة... الولية اللي زي لو عشقت تباع اللي وراها واللي قدامها، وآخرتها جاترجع للسكة تاني... الواحدة مننا لازم تحرم على قلبها النوم المريحة، لو داقتها مرة مش حاتسلاها طول العمر... تعمل إيه بعد كده وكل يوم فيه ألف نومة...»

تبيع نفسها لمين وكل من يشتري حاتقابلة بوش كشر... الراجل من دول
بتبقى ريحته منتنة، ولازم ندفن جتنا فيه، ونقول له يا حبيبي... النطع من
دول يبقى جوفه زي المزبلة، وأحلى ما فينا ينباع بقرش!... سألت نفسي
في يوم، إذا دقتك، إذا حببتك، حاسلاك إزاي، أنسلك إزاي؟».

لم يعد يطيق، كان جسده يرتجف بانفعال لم يستطع مقاومته، مد
إليها يده وجذبها إلى صدره فاستكانت - بلا كلمة - بين ذراعيه، راح
يعبث في شعرها حيناً، ثم رفعت إليه عينين ساهمتين، وشفقتين
مرتجفتين... وصعدت أنفاسها ملتهبة حارة، وتلاقت الشفاه في قبلة...
كانت ليلة.



ألقى محمود بسيجارته الثالثة إلى الأرض، وتمنى أن يرى «كايداهم»،
كانت رغبته في تقبيلها تفوق كل رغبة أحس بها عنفاً، راح يرقب دخان
السيجارة المتصاعد وقد ثبت بصره على الباب في وجوم وقلق... لماذا
خرجت؟... وأين ذهبت؟... خدر لذيذ يسري في أوصاله... وكأنه
عطشان لم يذق للمياه طعمًا منذ سنوات، كان يحترق لرؤيتها... همَّ
جالسًا في الفراش عندما وصل صوتها إلى أذنيه، كانت تهمس في الخارج،
لكن همسها كان يعلو لحظة بعد أخرى... كانت تتوسل، وترد على صوت
مزمر غاضب، ثم تحول التوسل إلى تنمر... وصوت رجل يصيح:
«إنت يا بت بتقولي لأ...».

وسمعها تقول في صوت باتر:

«قلت لك عندي زبون جوة!».

وانقبض قلب محمود، لكنه لم يفكر في الأمر، قال رجل في صوت حاد:

«يطلع!».

«دا غريب يا بو صباع!».

وهمس محمود في فحيح: «أبو صباع؟!»، عاد الرجل يقول:

«برضه يطلع، آني قلت يطلع!».

«يوه، وبعدها وياك، قلنا تعالى كمان شوية!».

«إنت بتشخطي فيه يا مرة؟!».

وعلا صوت امرأة أخرى:

«تعالى عندي آني يا بو صباع، معلش تعالى عندي آني!».

وصرخ الرجل في صوت متعثر:

«إوعي من سكتي يا مرة، إوعي من السكة لما نشوف النطع اللي جوة يطلع مين!».

«أبو صباع، عيب أنت سكران، فتح شوف أنت بتكلم مين يا جدع؟!».

«يا بت الأبالسة، انتي بتردي عليّ كمان، وبتخوفيني... طب خدي!».

وانطلقت صرخة ثاقبة... صرخة اندبت في قلب محمود كخنجر

مرهف النصل... فألقى بالغطاء وقفز إلى الأرض، واندفع إلى الباب...

ودوت صرخة أخرى، وثالثة... وهجم على الباب ففتحه.. وجمد في مكانه.

كانت كأيدهم ملقاة فوق الأرض، وأمامه رأى أبو صباع الهائل
الجثة، الأسود اللون، الأشعث الشعر... في يده سكين يقطر منه الدم!
«الحقني يا محمود!».

وألقى بجسده على الرجل، كالمجنون... فرفع هذا سكينه في
الهواء، وتلقى محمود ذراعه بكفه، ثم هوى - في لمحة - برأسه فوق
وجهه، وانبتق الدم من أنف الرجل، وارتفعت رأس محمود مرة أخرى،
وهوت كالصخرة، وانبتق الدم من فم الرجل، وخارت يده، وسقطت
السكين... وامتأ المكان بالصراخ... ومحمود كالتائم، يضرب
ويضرب دون توقف، وسقط الرجل على ركبتيه، وسقطت رأسه فوق
صدره، واندفعت ركبة محمود في سرعة لتصدم الفك المتهاوي،
وتكوم الرجل فوق الأرض وهو يخور كشور ذبيح، والدماء تتفجر من
أنفه وفمه بغزارة... والنساء يتجمعن، نساء كثيرات، صارخات،
مولولات، ورجال مذعورون، رجال عرايا، وآخرون بنصف ملابسهم..
والزحام يشتد... و«كأيدهم» تشهق.

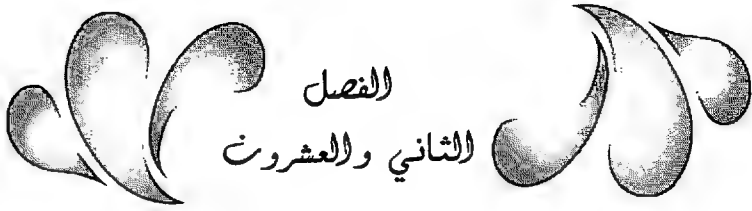
«كأيدهم!».

وكأنه يلفظ قلبه، عنقها ممزق، دماؤها ساخنة غزيرة أغرقت كفيه
وهو يحاول رفعها إلى صدره.

«الحقني يا... مح... مو... د...».

«كأيدهم!».

ارتفع جفناها عن عيني زهاب سوادهما، وتعلقت عيناها بعينه
لبرهة، ثم شهقت شهقة أخيرة... وسقط رأسها المذبوح!



الفصل الثاني والعشرون

انتشر الخبر وذاع، تجمع الناس حوله وحول البيت، شعر بالبرودة تنفذ إلى عظامه، كأن يداً قاسية حملته وطوحته في الهواء ثم تركته معلقاً... لا بد أن يكون حلمًا، حلمًا مزعجًا سيصحو منه ليعود إلى «كايداهم» من جديد. إنهم لا يتحدثون عنها وليست هي الراقدة في سكون بين ذراعيه، إنها امرأة أخرى... ظل جالسًا وهو يحملق فيها حتى جروه جرًّا إلى «الكركون»، فانصاع لقبضاتهم الخشنة وأذعن لصرخاتهم الغليظة وأوامرهم الباترة... لم يعد في الدنيا شيء فلماذا يهتم بشيء؟! ذهبت «كايداهم» دون سابق إنذار، انقض عليها القضاء بلا رحمة فمزق عنقها وصدرها وأسأل دماءها، أيمكن أن تكون هي حقًا؟... تمضي الدقيقة كأنها ساعة، وتمضي الساعات فلا يشعر بمرورها، أين هو؟ ولماذا جاء وابه إلى الكركون؟... جاء حنفي مهرولًا مكفهر الوجه شاحبه، يقف من بعيد وينادي عليه ويسأله إن كان في حاجة إلى شيء... لا بد أنه جن، فماذا يريد؟... أدار عنه وجهه دون رد فماذا يطلب؟... يسأله عن حاله بالراح فماذا يقول؟... يسألونه عما حدث وكيف حدث ولماذا ذهب وأين قضى ليلته، أجابهم كالمذهول وكأنه ببغاء يردد ما توحى به نفس ضائعة، الضابط ينظر إليه ويسأله إن كان مريضًا، فيهز رأسه نفيًا، فما هو المرض؟ ولماذا يمرض؟... ماتت «كايداهم» وذهبت من حياته بعد أن عمرتها ليلة!... شهر؟... طول

العمر؟... ليكن أي شيء، فما الفرق بين وجوده الآن وبين يوم مولده؟... انقضى كل شيء ولم يعد له وجود، يسأله الضابط متى ذهب إليها... ألا تعلم يا سيدي الضابط ذا النجوم اللامعة؟... كانت كايداهم حبيبتني، كانت عشيقتي، كانت أمي، كانت أبي... نعم نعم، قضيت ليلتي معها، بل في أحضانها، لماذا تدهش؟... وما وجه العجب فيما أقول؟!... لا لا، لم أر شيئاً، سمعت صراخاً وخرجت لأجد السكين في يده... نعم ضربته، رفع السكين في وجهي فهجمت عليه، ليتني قتلته يا سيدي، لا أدري ماذا حدث، ليت مات، لو أني قتلته لشفي غليلي وزغردت دمائي الباردة في عروقي بالفرح!

ظل هناك حتى هبط الظلام، أحاديث وأقوال وجنود وبصمات وأسئلة وأجوبة، وهو غارق... فيم تفكر؟... يتمنى لو يستطيع أن يعي ولو لحظة، أن يدرك حقيقة الأمر... تنهد ودخن وحاول الحديث مع حنفي، لكنه كان كالمخدر بأطنان من البوطة، غارق غارق يهوي إلى قرار سحيق، ليت يصل إلى القرار، لو أن هذا حدث لعرف له أرضاً يقف عليها... ولانتهى عذابه؟... عذابه الأكبر أنه لا يدري شيئاً، لا يحس بشيء، لا يريد شيئاً. قبض الريح.... عدم!

صرفوه في النهاية فمضى كالمنوم إلى الخارج، تجمع حوله الرجال وأمسك حنفي بذراعيه كأنه يحميه، كيف حالي؟! ماذا حدث؟ لماذا لا أرد؟... ليتكم تصمتون لحظة، جمعة وشلوفة والشاطر الطبال وزين الزمار وجمع من الرجال وكأنهم يشيعون جنازة... وبالأمس كانوا يحيون فرحاً!... الناس في الطريق يحملقون فيه، واحدة من النساء تقول بصوت مسموع:

«اسم النبي حارسه، هو ده اللي مسكه وفضل يضرب فيه لحد ما كومه على الأرض... ربنا يحميه لشبابه!».

شباب؟... أي شباب يا امرأة؟... ذهب شبابيه ودفنت طفولته وتبددت حياته وبرد قلبه كحجارة الرصيف... قدماه حافيتان فأين مداسه؟!... جسده يرتجف، حنفي لا يزال متعلقًا بذراعه، يد تمتد إليه بسيجارة... أكان يحب «كايداهم» حقًا... جواب يأتيه من أعماقه... نعم، إذن، فلماذا لا يبكي؟

أهذا هو الحزن؟ كلا، قطعًا لا... لقد جرب الحزن من قبل يوم أن غرق أبوه في الميناء... كان الحزن وقتها كألف سكين تنغرس في صدره وقدميه، لكنه الآن لا يشعر بشيء من هذا، لا يشعر بشيء إطلاقًا... البوظة تظهر من بعيد، فهل هي البوظة التي عرف فيها «كايداهم»؟

إنها اليوم كثيبة، الكيزان تدور عليهم فيجرع الرجال منها في صمت، لا غناء ولا صباح ولا طبل ولا زمر، رفع الكوز إلى شفثيه فوقعت عيناه على مقعدها الكبير، كانت تجلس هنا دائمًا... حولها الشاطر وزين، الطلبة والمزمار!... وعما قليل سيتملى المكان بالوافدين، سيبحث الرجال عن معشوقة القلوب، وسيسألون عنها، وسيقولون لهم: ماتت!! ماتت!!

هل ماتت حقًا؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف؟!

ماتت. ماتت. «كايداهم» ماتت.

خير له أن يكبت دمه أمام الرجال، لييك عندما ينفرد بآلامه، كف
يا دمع عن الفوران... لتطفئك البوطة أو تزيد نارك اشتعالاً... ماتت؟!
حنفي ينظر إليه بحنان، حتى حنفي ذو القلب الصخري يا «كايداهم»
تحرك قلبه من أجلك وفاض مثل هذا الحنان، حتى أنت يا حنفي؟
«محمود؟!...».

«كايداهم» ماتت يا حنفي... ماتت بصحيح!..
«محمود...».

انطلقى يا صرخة فإنك تمزقين صدري وعنقي.
«آه... آآآآه... ماتت يا رجالة!».

لماذا يبكي؟... هل ستعود، أبداً، ذهبت ولن تعود، قلبه لا يصدق
ولكن ما الفائدة؟... أمره إلى الله، ما حدث قد حدث... مزق
المجرم عنقها!
«دبحها يا حنفي، دبحها يا رجالة!».

كيف يتحدث الناس عن الصقيع وهم لم يجربوا برودة القلب؟...
الدموع في عيون الرجال كما هي في عينيه، أين أنت يا «كايداهم»؟...
أتموتين بمثل هذه السهولة... أتركوه يا رجال لحاله، لا بد أن يبكي،
دعوه يصرخ كطفل... الدنيا تبكي أمطاراً غزيرة في الخارج، راحت
كايداهم ولن تعود... ليته يستطيع أن يلطم خديه كالنساء، ويرفص
بقدميه كالأطفال، ويصرخ بلوعة كالثكالى، ويتمرغ في التراب... فقد
ذهبت كايدهم إلى المشرحة ليمزقوها إرباً إرباً... تركته حبيبة الروح
في فراغ لا محدود، في ضياع... في...

«يا حنفي... يا حنفي!».

أتبكي أنت أيضًا يا ابن العم؟... مرحى!... هطلت الأمطار،
عم الرخاء، فاضت القلوب بالحنان، زغردت الألسنة بالصوات
والنواح والبكاء.

«كايداهم»... أين أنت يا «كايداهم»؟!

الفصل الثالث والعشرون

انتاب الذين مروا ببوطة شلوفة في ذلك المساء عجب شديد، كان زين والشاطر جالسين في غير مكانيهما، والرجال مطرقين حول الموائد الخشبية في صمت ووجوم، لا غناء، ولا مواويل، ولا ضحكات ولا أحاديث... حتى حسين شلوفة ترك مكانه وجلس بجوار محمود، وأكواز البوطة تدور حقاً، ولكن في صمت. الدخان ينبعث من الأفواه ويسبح في سماء المكان، لكنه كان باردًا كأنفاس الرجال... الرواد هم هم، والوجوه هي هي، ولكن هناك شيء ينقص الجميع.



وقد مضى الوقت، مضى بدقائقه الثقيلة الممطوطة، وثوانيه الرتيبة المملة، وساعاته التي تشبهت بالدهور فأضحت في مثل طولها.

شهق المعلم جمعة، وارتفعت نحوه كل العيون وتعلقت بوجهه ذي الندوب والأخايد، ورأى الرجال فيما رأوا في ذلك المساء دموعاً غزيراً ساحتها عينا المعلم جمعة، وسمع الرجال فيما سمعوا في ذلك المساء، نهنحات محمود ونشيجه المكتوم وشهقاته المتتالية.

حتى حنفي البلطي، الرجل ذو الوجه الحجري والملامح الجامدة، الذي تبعث تقاطيعه الصارمة في النفوس رهبة واحتراماً عميقين... حتى حنفي البلطي فرت من عينيه الدموع.

وذكر اسم الله في تلك الليلة على غير ما تعود الرجال أن يذكروه
في كل ليلة، ترحم الرجال على كايداهم مرات ومرات، وعشرات
المرات، وقرأوا الفاتحة بشفاه تنبعث من بينها رائحة الخمر... حتى إذا
انتصف الليل سمع الرجال محمود وهو يحدث المعلم جمعة قائلاً:

«حانعملوا إيه في الجنازة يا معلمي؟!».

فقال جمعة وهو يهز رأسه هزات متتالية:

«جنازة كايداهم يا محمود؟ عروستك اللي انزفت لك امبارح؟!».

وقال حنفي بنبرات حنون:

«وحد الله يا معلم جمعة، وحد الله وشد حيلك!».

وقال محمود:

«أيوة يا معلمي، جنازة كايداهم يا معلمي!».

وانفجر الشاطر في نشيج غليظ، ومال إلى الأمام وهو يدفن رأسه
بين كفيه وينخرط في نحيب متصل... وقال حسين شلوفة:

«يمين بالطلاق يا رجالة لو كانت بنتي ما كنت نحزن عليها كده!».

وهمس رجل في طرف المكان في أذن زميله:

«يا سلام على بني آدم، إمبراح كانت «كايداهم» مجننة البوطة باللي
فيها... البت دي كان فيها شيء لله، مفيش راجل في البوطة إلا لما هو
حزنان عليها».

ورد عليه زميله وهو يرفع الكوز إلى شفتيه:

«مش بيقولوا زانية، إنما يمين الله كانت زي بنات الأكابر!».

وعاد محمود يقول في إلحاح:

«الجنائز يا معلم جمعة، لازم ندفنوها دفنة كويسة، ولازم تعملوا لها خرجة ما حصلتش قبل كده!».

وقال حسين شلوفة:

«عهد الله ما حد فيكم دافع مليم، رقتي سداة!».

نظر إليه جمعة في توسل، ثم قال والبكاء يخنق صوته:

«يا حسين يا خويا، خليني نجيب لها الكفن، وابقى اشتري لي انت كفن ما نحصلها!!».

ومضى الحديث الحزين يخطو في ثناقل فوق الدقائق... حتى اندفع إلى البوطة رجل كان يلهث، وما كاد يهم بالكلام حتى صدمه الجو الغريب، فتوقف محملاً في الرجال بدهشة، ثم سار في بطن نحو أحد المقاعد، وجلس عليه وهو يجول ببصره في الوجوه... والتفت إلى جاره، وكان هذا مطرقاً كالآخرين صامتاً وكأنه في غيبوبة، فمال عليه وهمس في تساؤل:

«خير يا معلم، الرجالة ما لهم... هو الخبر وصل؟!».

رفع إليه الرجل رأسه - ولم يكن صياداً، بل حمالاً في الميناء - وسأله في لا مبالاة:

«خبر إيه؟».

«المركب!».

وكأنما ضاق الرجل بغموض حديث الوافد الجديد، فقال في ضيق لينبهه إلى حقيقة الموقف:

«كايداهم»، البقية في حياتك!».

«يا ليلة سودة!».

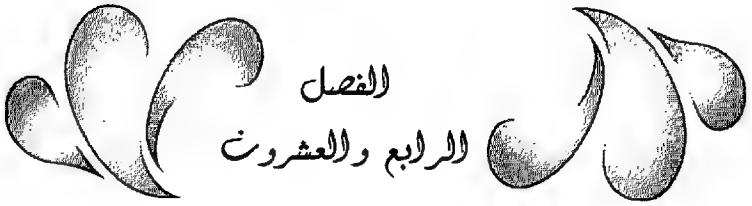
ثم ساد الصمت مرة أخرى، على أن الرجل كان يشعر وكأن صدره ينوء بما يحمل من أنباء، فأخذ يجيل بصره في الوجوه الحزينة ولبت فترة يغالب رغبته في البوح بما جاء يلهث من أجله... وما أن التقت عيناه بعيني حنفي، حتى أوماً إليه ونهض متجهًا نحو الخارج يتبعه حنفي في صمت!

وعندما عاد إلى الداخل مرة أخرى، كان وجه حنفي المتجهم قد اكتسى بطبقة صخرية من الهم... وما إن وصل إلى مكانه وهم بالجلوس، حتى نظر إلى محمود نظرة من يحمل في صدره ما لا قبل له به، ثم قال بصوت متحشج:

«يا للا بينا يا محمود، سلام عليكم يا رجاله!».

وكانما كان محمود بلا حول ولا طول فقد نهض مستسلمًا، والتفت نحو الرجال، ثم دار بعينه في أرجاء المكان، وانتابه في هذه اللحظة طوفان كتلاطم من المشاعر، واقتعر بدنه، وجاشت نفسه بأحزانها... وعندما استدار وهو يرفع للرجال يده بالتحية، تصاعد إلى رأسه سؤال:

ترى... هل يعود إلى البوطة بعد الليلة؟!



الفصل الرابع والعشرون

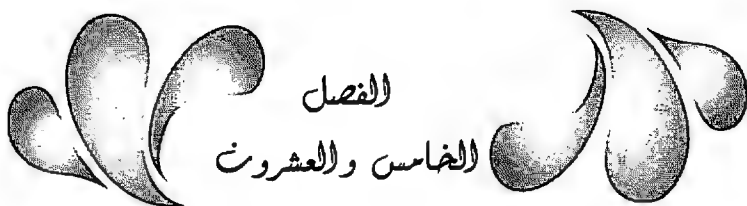
دلف حنفي ومحمود إلى الزقاق، وغاصت أقدامهما في الوحل الذي صنعته أمطار الليلة، وعندما بلغا منتصفه، استدار حنفي نحو ابن عمه، ومد إليه يده وشد على يده، ثم قال في همس:

«مفيش داعي حد من الزقاق يعرف عنك حاجة يا محمود، شد حيلك قدام أبوك، وبلاش تبقى صغير!».

هز محمود رأسه موافقًا، وعاد يقول في اقتضاب:

«المركب وصلت يابن عمي!».

ارتفعت رأس محمود في سرعة، وسدد حنفي نظرات حادة، بينما كانت عينا هذا تشعان بريقًا غريبًا في ظلمة الزقاق... وما لبث محمود أن هز رأسه في صمت وهو يعرض على شفته كمن يعاني آلامًا مبرحة... ثم استدار كل منهما نحو باب بيته، واختفى فيه.



الفصل الخامس والعشرون

قالت عطيات، وهي تمد يدها بكوب اللبن إلى زوجها:
«ومستني إيه يا سي حمودة؟... ما تقول لابويا محمد ونتوكل على
الله».

وأخذ حمودة يفرك قدميه ببعضهما تحت الغطاء، وهو يرفع الكوب
إلى شفثيه ويرشف منه على مهل، بينما راحت عطيات تؤدي آخر أعمال
يومها، فدفرت باب الحجرة بجلباب كي تقي أولادها الممدين على
الحشية فوق الأرض هواء الليل البارد، ثم راحت وجاءت في الحجرة
ناقلة شيئاً إلى مكانه، مرتبة وضع شيء آخر... لكنها ما لبثت أن تعجلت
دورتها الليلية، فاتجهت نحو الفراش وتسلقته كي تزحف إلى مكانها منه
بجوار الحائط، ودست جسدها تحت الغطاء، والتصقت بزوجها قائلة:
«هيه... إيش قولك يا سي حمودة؟... يا خويا انت مستني إيه؟».

اعتدل حمودة في جلسته، وظهرت على وجهه أمارات التفكير وهو
يقول في حماس:

«آتي بعد ما كلمت حنفي، ربك والحق، حسيت إن حمل انزاح من
على قلبي، قلت يا واد اتوكل على الله وقول لابويا محمد بالمرة، كده
كويس؟».

«كويس وإيه اللي أخرك».

قالت عطيات ذلك وهي تدس كفها في فتحة جلبابه، استشعرت دفع الفراش فحنت إلى الانضواء تحت جسد زوجها، وفارت في نفسها أحاسيس جد عميقة، كانت تستمع إليه بأذن، وتستمع إلى دقات قلبه بالأذن الأخرى... طالما تمنّت في أعماقها أن ترحل به بعيداً عن الشاطئ بالرغم من ذلك الخوف الذي كان يتتابها عندما تتصاعد إلى أذنيها كلمة الغربة أو الوحدة، وبالرغم من حنينها الشديد للزقاق وجبها العميق لأهله وأهلها، إلا أن الدنيا بما فيها من غرائب كانت تسحرها... ظلت تجتر أحاسيسها هذه في خوف حيناً، وفي إقبال حيناً آخر، حتى حدثها حمودة بما في نفسه من رغبات، في تلك الليلة فقط، ورغم الذعر الذي انتابها، لم تستطع مقاومة تلك الفرحة الطفلية التي راحت تزغرد في صدرها، وانزاح القناع عن مشاعر كثيراً ما حيرتها وأتعبت ذهنها... ولم تعد تتساءل فيما بينها وبين نفسها ذلك السؤال الذي كان يخجلها أشد ما يكون الخجل... لماذا كان زوجها دون باقي رجال البلطي مريضاً؟... في أحيان كثيرة كان يتتابها اليأس والقهر فتبكي في صمت، وتطلب في حرارة وصدق من الله أن يمن عليه بالشفاء... لكنها سرعان ما كانت تنهر نفسها - وكأنها إنسانة أخرى - وتطرد أحاسيسها لتغوص في أعماق وعيها، وتندفن في ظلام كثيف... وما إن لاحت لها بوادر الشفاء في الرحيل، حتى فاضت نفسها بحيوية لم تدر لها سبباً، فكانت تنساق إليها في نشوة، غير عابئة بما كان يخطر ببالها من أسئلة تدفع حمرة الخجل إلى وجنتها!

ناولها حمودة الكوب الفارغ، ومسح شفثيه وشاربه بظهر كفه، ثم تجشأ فمالت يدها بالكوب نحو قاعدة الشباك المجاور للفراش ووضعتة عليها، ثم عادت تدفن رأسها في صدر زوجها... وامتدت ذراع حمودة لتلتف حول كتفها، وأشرأب بعنقه إلى حيث كان أولاده يغطون في النوم، ثم امتدت أصابع يمناه إلى المصباح الغازي المعلق بجوار الفراش، وخفض ضوءه حتى امتلأت الحجرة بظلال تكسوها ضياء شاحبة محببة إلى نفسه. وعاد إلى الحديث:

«وصلت قهوة سلامة لقيت الرجال عمالين يتكلموا في حكاية عبد الموجود».

«إلهي ربنا يرزقه بمصيبة تجيب قضاها!!».

«يا شيخه حرام عليك... المهم، قعدت جنب ابويا محمد وطلبت كباية الشاي، وقلت نستنى حبتين لما الجو يروق... وشوية وداخل عبد الموجود حمدان!».

ورفعت عطيات رأسها إلى وجهه، بينما راح يداعب شعرات شاربه في صمت... وفار صدر عطيات بما فيه من شوق، فدست قدمها بين قدميه، وعادت تضع رأسها فوق صدره، فأغرقتها أنفاسه الدافئة... ثم قال بصوت نائم:

«وبعدين؟!».

«وبعدين دخل الراجل... سلام عليكم، عليكم السلام، سلامات، الله يسلمك... كلمة من هنا وكلمة من هنا، والراجل بيقول إنه عاوز مشترى للفلايك بتاعته!».

انتفضت عطيات، ورفعت رأسها إليه، ثم تساءلت في قلق:

«تاني... الفلايك تاني يا سي حمودة؟!».

«أيوه يا ستي... معندوش مانع يبيع الفلوكة بأربعين، والشبكة أم ثلاثين بعشرين.....».

«وبعدھا؟...».

«ربك والحق، آني قلبي انقبض، لما الفلوكة تنباع بأربعين والشبكة بعشرين... واحنا عندنا شبكتين وفلوكة، يعني الحسبة كلها تبقى تمانين، التلاجة اللي في شارع الميدان جابت آخر ما جابت أربعين، يفضل معنا أربعين، حاينفعوا نقلان مصر، وإيجار بيت، ودكانة، وتوضيب محل والذي منه؟!».

«وبعدين يا سي حمودة، والعمل إيه في الراجل ده... مفيش...».

وقاطعها حمودة مستمراً في حديثه:

«طولي بالك عليّ يا بت الناس... أبويا محمد سمع الكلام ده وطب ساكت، الرجالة قعدوا يبصوا له إنه يتكلم، يقول حتى لا إله إلا الله، ما اتكلمش... إنه يقول كلمة، ما قالش... راح عبد الموجود موطي عليه وقال إيش قولك يا معلمي، أبويا بص له بنص عين وراح مدور وشه الناحية الثانية، راح عبد الموجود منطور من مطرحة، هم واقف وهو بيزعق بعلو حسه... المرة اللي فاتت شتمني محمود اللي زي ابني، المرة دي مش عاوز ترد عليّ يا معلمي، هو آني كفرت؟...».

«وأبويا محمد فضل ساكت؟».

«أبدأ... رفع له عينه وقال له: يا عبد الموجود انت خنت العيش والملح، حكاية المركب دي عملتها خوانة في الرجالة، لوحدك، من غير ما تشور إخوانك اللي عرفوك جربان وقبلوك في وسطهم وقالوا لك يوم ما كنت غريب، يا مرحب... إذا جت المركب دي يا عبد الموجود الرجالة حايعملوا إيه، رزقهم بيعوه فين؟... تموت ولادهم من الجوع؟... راح عبد الموجود صارخ في وسط القهوة... شاهدين يا رجالة، أني جربان، المعلم محمد البلطي يقول عليّ جربان، معلش يا زهر برضه معلمي ولحم كتافي من خيرك، لكن آني مش ندل نقطع عيش حد، واللي عاوز ياكل عيش رقتي سداة، خدام للصغير قبل الكبير... راح أبويا محمد هابب من مطرحة، وهجم على عبد الموجود ومسكه من طوقه، الرجالة هاجت، والدنيا وقفت على رجل... بصينا لقينا أبويا يقول: يمين بالطلاق اللي يحط إيده في إيد عبد الموجود حمدان في بيع قارب واللا شروة شبكة، محرم عليه البلطية كبيرهم وصغيرهم!».

وساد الصمت، وترددت الأنفاس في جو الحجرة، وبانت ظلال الأثاث طويلة في استلقائها على الحائط والسقف، وحاولت عطيات أن تكبت رغبتها احترامًا لانفعال زوجها بما كان يحكيه لها، حاولت أن تقتلها... فلم تفلح. كان الدفء الذي تسرب إلى جسدها أقوى من كل محنة، والرحيل عن الزقاق وشفاء حمودة أقوى من كل عقبة، وكانت سعيدة... فمددت جسدها وهي تتمطى في أحضان حمودة وقد اتقدت مشاعرها، وما لبثت أن قالت بصوتها الناعم وهي تمد ذراعها متلصصة لتحيط به جسد حمودة وتضمه إلى صدرها:

«وبعدها يا سي حمودة؟!».

«وبعدها خرج عبد الموجود، الرجالة هاجت، كلمة من ده وكلمة من ده، وحلفنا اليمين ما حد فينا يمد يده في جنس معاملة معاه، شرا أو بيع!».

تسللت عطيات إلى بغيتها في حذر وهي تقول:

«قلت لأبويا محمد؟!».

كانت تعلم رده عن يقين، لكنها أرادت إنهاء الحديث، وقال حمودة:
«يا ولية اعقلي، إذا كان القارب مرمي على الرصيف بأربعين والشبكة بعشرين، نقول للناس إيه؟ ... أنني قلت نسكت حبتين، يومين ثلاثة، أسبوع... ومسيرها تنحل، وقتها نبيع القارب زي الأصول، واقول لأبويا محمد!».

«وحنفي عمل إيه؟!».

«حنفي كان غطسان ما اعرفش فين، زي ما يكون فص ملح وداب، الصباح رياح!».

دست عطيات أصابعها في شعر زوجها وأخذت تعبث فيه، وأدار حمودة وجهه ناحيتها، ونظر إليها خلسة، وما أن رأى وجهها المستكين، وعينيها المغمضتين، حتى ابتسم في سعادة... وقال عطيات في دلال:
«قدامنا كثير يا سي حمودة على كده؟!».

ضغط جسدها إلى جسده، وقال وهو يستدير نحوها ويغرق شفثيه بين شفثيه:

«لا أبدا... أبدا!».

وما لبث أن ساد الحجرة سكون عميق، كانت تتخلله أنفاس لاهثة حارة!

الفصل السادس والعشرون

منذ خمسة وعشرين عامًا، غادر عبد الموجود بلدته في الصعيد متجهًا نحو الشمال، يحمل في صدره قلبًا يعتصره الألم، وفي عينيه دموع أبى عليه كبرياؤه أن يذرفها... كان يومًا أسود ذلك اليوم من أيام عام 1907، دخل القرية في صباحه مرابون من كل ملة ودين، يحميمهم جنود يحملون سياطًا يلهبون بها ظهر كل من يقاوم أو يرفع رأسه... وخسر أهل القرية كل شيء، وارتفع في سمائها صراخ النسوة ونشيج الرجال وبكاء الأطفال، حتى دورهم الطينية المتداعية، طردوا منها بقسوة ودون رحمة... وكان عبد الموجود واحدًا من الذين أفقدتهم أزمة القطن في ذلك العام كل شيء.... فمضى في جوف الليل وحيدًا إلا من أحلام كانت تخفف من قوة الصدمة... وراح يتقل من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى أخرى، وكلما حط رحاله في مكان رأى الجوع والفقر يلاحقان الناس... رأى في المدينة التي اعتاد أن يقصدها كل موسم، «محلات» أغلقت أبوابها، ودكاكين لا تجد من يقربها ليشترى شيئًا بقرش.... وعندما وصل إلى القاهرة وجد فيها حالًا أسوأ... الناس لا يبيعون ولا يشترون، السوق هامدة لا حركة فيها ولا حياة، بحث عن مأوى فلم يجد سوى الأرصفة والجوامع، ولم يكن هناك بد من الرحيل، فاتجه نحو الشمال مرة أخرى.

عندما وصل الإسكندرية مرت به أيام سود تضور فيها جوعًا، وبات لياليها بجوار الجدران... حتى استطاع ذات يوم أن يعمل حملاً في الميناء، فأقبل على العمل بكل قوته، وراح يلفت إليه الأنظار عن عمد، فقربه المعلم إليه، لكنه كان يعمل يومًا ويتعطل بضعة أيام، فلم يُضع الفرصة، أخذ في أيام بطالته يتسكع على الأرصفة، ويتقرب من الرجال، وسرعان ما خرج في أحد قوارب الصيد دون أن يعرف عن الصيد شيئًا، لكنه استطاع بعد أيام أن يتقنه كأحد أبنائه... وتنقل من عمل إلى عمل دون تدمير أو ضيق، واستطاع بذكائه ولباقته أن يكسب قلوب الرجال في كل مكان، فوثقوا به وبذراعيه القويتين.... ومرت الأيام، وعرف كل رجل في الميناء، واستطلع ما بداخل كل شق فيها.... وبعد سنوات قليلة، كان قد وضع أصبعه على حقائق الحياة في تلك المدينة الواسعة...

كانت الدنيا جديدة عليه فعاملها بحذر، وأخذ يلتقط من هذا سر صنعته ومن ذاك سر عمله، حتى أتقن في سنوات قليلة كل صناعة وكل عمل... وقامت الحرب العالمية الأولى، وارتفعت الأسعار ارتفاعًا جنونيًا، ووصل ثمن إردب القمح إلى ستة جنيهات بعد أن كان ثمنه ستين قرشًا، فعرف عبد الموجود من فنون الكسب ما خفي على الكثيرين... وسرعان ما اشترى قواربه ليضلل بها العيون الباحثة عن الأسرار، وأفلح... تاجر في الصوف والملابس والطعام، وكسب ألوف الجنيهات... وانتهت الحرب بخيرها الذي جلبته له، وشرها الذي استغله لمصلحته، واضطربت البلاد فكان له من ذلك نصيب، وهدأت، فبحث بعين الخبير عن صيد جديد!... وعرضت عليه صفقة كاد عقله

يطير لها، وحسب حسبته في رأسه - لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة - فوصلت نتيجتها إلى أرقام مذهلة لم يعرف كيف يعدها، وإن استطاع أن يتخيل مقدارها... ومكث أيامًا وهو متحير بين الإقدام والإحجام، ثم غامر بماله في لحظة جنون... ففقد كل شيء!!

وهزته الصدمة بعنف، ولاح له شبح الماضي كئيبيًا، وكاد يستسلم لليأس، وبدأ يصعد السلم من جديد.... وأخذ يشق طريقه في ذكاء وجهده حتى استطاع أن يقف على قدميه مرة أخرى، وتكونت لديه بضعة ألوف ردت إليه الثقة بنفسه... ومضت به الأيام دون أن تغير من طباعه شيئًا... يرسل القوارب بالرجال في الصباح، ويقف على الشاطئ في انتظار عودتها عند الغروب، يذهب إلى الحلقة، ويبيع في مهارة، ويقبض المال في حذر، ويعطي لكل ذي حقه... يصاحب الرجال، ويشاركهم سهراتهم، مظاهر النعمة البادية عليه لم تبدل من أخلاقه شيئًا، ولم تزرع الألوف في نفسه التعالي أو الغرور... حتى كان ما كان من أمر الإنجليزي «هوب».

جاءوا إليه منذ عام كامل، وهمسوا في أذنه بخبر غريب... رجل إنجليزي يبحث عن شريك لإنشاء شركة هائلة... اختاروه من دون الرجال لثقتهم فيه وفي سمعته التي تفوق الذهب أصالة - وهكذا قالوا له - وأخذوه في عربة أنيقة وذهبوا به إلى فندق فخيم، واجتمع لأول مرة برجل قالوا له إن اسمه مستر «تشارلس هوب»... وفي تلك الليلة عرضوا عليه المشروع بالتفصيل، فشرب كما لم يشرب في حياته، وانتشى كما لم ينتش في حياته، وضحك كما لم يعرف الضحك من قبل... أمواله جمعها بعرق جبينه قرشًا قرشًا، وكان يضع القرش فوق

القرش، ويكسب بالقرش قروشاً أخرى، ورجل إنجليزي يحدثه حديث الند للنند، ويقول له «مستر همدان»، ورأسه يدور، وحديث المال يسيل لعبه... فهل يقامر بكل ماله مرة أخرى؟!

ومثلما حدث في الماضي تردد وأحجم، أخذ يقلب الأمر في ذهنه، والرجل لا يلح عليه، والوسطاء لا يطاردونه، انقطع عنهم أياماً فلم يعودوا إلى الاتصال به، أراد أن يجس نبضهم فذهب ليجدهم قد يشوا منه... كان يعرف ما للإنجليز من سلطة وسلطان... أن يشاركه أحد الأثرياء شرف لم يطمع فيه، ولكن أن يشاركه أحد الإنجليز ولهم ما لهم في البلاد من قوة ونفوذ، أمر لا يستهان به... ومنذ ما يقرب من عشرة أعوام حدث له ما كان يحدث في تلك الأيام... حسب في ذهنه حسبه، فأنتجت أرقاماً أطارَت النوم من عينيه ليالي عدة، طلب أوراقاً فقدموا له الأوراق ومعها كأس من الويسكي، وبحث عن محام - ولم يكن يعرف الطريق إليهم - فدلّه أصدقاؤه على أحدهم، صعد سلم إحدى العمارات الشاهقة، ودخل مكتباً مهولاً، ورأى رجلاً أشيب الشعر حدثه بكل أمره، واستمع إليه الرجل في وقار شديد، قدم له الأوراق فنظر فيها ملياً، ثم أعادها إليه وقال:

«الأوراق كلها صحيحة يا معلم عبد الموجود، والإجراءات التي قالوا لك عليها، والشروط الموجودة في العقد سليمة وكويسة، إنما....».

وصمت المحامي وراح يعبث ببعض الأوراق، وانقبض صدر عبد الموجود، وهم بسؤال الرجل عما في الأمر، لولا أن استطردها بصوته الهادئ:

«انت متأكد من الجدد الإنجليزي ده؟».

لعب الفأر في عبه، وتلململ في جلسته وهو يقول:

«تقصد إيه يا سعادة البيه؟».

«انت شفت الباسبور بتاعه، رحت القنصلية وسألت عليه؟».

«أمال آني جاي لك ليه؟».

«هو نازل فين؟».

«في لوكاندة سيسيل».

رفع الرجل سماعة التليفون، وطلب من سكرتيرته أن تتصل بالمستر تشارس هوب... وساد الحجرة بعد ذلك صمت عميق، وغرق عبد الموجود في التفكير وقد استبد به القلق، وانبعث رنين جرس التليفون فانتفض قلبه.

وتم كل شيء بعد ذلك بسرعة مذهلة.

اتصل الرجل بالقنصلية، وعاد ينظر في الأوراق من جديد، وجاء الإنجليزي نفسه، وقدم للمحامي كل ما طلب من أوراق، ومضت ثلاث ساعات وهم يتناقشون، ومضى بهم الوقت... وقبل أن ينتصف الليل كان كل شيء قد انتهى.

بعث حديث المال أحلام عبد الموجود بكل عنفها، فقرر أن يقامر وليحدث بعد ذلك ما يحدث، وقع بختمه، وبصم بأصبعه، وتسلم عقداً، وشرب كأساً... ودفع المال!

وطلب منه شريكه أن يكتم الخبر، فكتمه، ثم لم يستطع، فباح به... كان طموحه قد اشتعل فغرق لأذنيه في أحلام كانت تراوده ليل نهار...

وقرر ذات يوم أن يتخلص من قواربه... أحس فجأة أنه يريد أن يطرح عن كتفيه أحمال ماضيه بأكمله، ويصعد سلمًا عاليًا، ويجلس في شرفة مرتفعة، ويطل على الناس من فوق... وعافت نفسه مجالس الرجال وسهراتهم، فأخذ يبحث عن صحاب آخرين، وارتاد أماكن بهرته وسلبت لبه، وعرف نساء لم يخطرن بباله، وأنفق، وبذر، وبعثر... ومرت الشهور دون أن تصل السفينة أو يصل خبر، فأفاق على قلق عنيف استولى على مشاعره، ذهب إلى المحامي فطمأنه، ذهب إلى الوسطاء الذين نالهم من ماله الكثير، فضحكوا من مخاوفه وأفهموه أن كلمة الإنجليز واحدة... وكانوا صادقين!

فبعد أيام وصله خطاب من «هوب» بعنوان محاميه، ينبئه فيه بأن وصول السفينة سيتأخر عدة أشهر... وطلب «هوب» من عبد الموجود أن يكتب له عن أحواله، وعن أسعار الأسماك، وعدد من الرجال الذين يمكن استئجارهم، وما كاد عبد الموجود يعلم بطلب شريكه، حتى راح يقص على المحامي كل ما حدث منذ أن علم الرجال بخبر السفينة... وكتب المحامي تفاصيل كل شيء إلى هوب، وسرعان ما أرسل هذا خطابًا جافًا يلح فيه على عبد الموجود أن يكف عن الحديث عن السفينة، وأن يشيع بين الرجال أنها لن تصل، بل طلب منه أن يرسل قواربه للصيد كل صباح كالعادة... وألا يتصرف أي تصرف دون الرجوع إليه والاتفاق معه!

ونفذ عبد الموجود أوامر شريكه، ومرت الأيام وهو يشعر وكأنه معلق بين السماء والأرض، ينتابه القلق حينًا، وتطمئن نفسه حينًا آخر...

جاء الصيف وولى، وجاء الخريف وانصرم، ثم فوجئ ذات ليلة - بعد أذان العشاء - بخبر وصول السفينة إلى الميناء!

وكاد يطير من الفرح، وهروا إلى الميناء غير مصدق، وصعد إلى السفينة وكل خلية من جسده ترتجف بالانفعال حتى إنه لم ينتبه إلى يد شريكه التي امتدت لتصافحه... أخذ يتحسس السفينة ويربت على صواريها ويدب بقدميه فوق سطحها ويدلف إلى قمراتها، ويهبط إلى مخازنها، ويصعد إلى حجرة القيادة فيها، ويروح ويجيء كالذهول...

ثم أفاق أخيراً ليعلن على الرصيف - بعد أن اتفق مع هوب - أنه في حاجة إلى رجال، وأنه في حاجة - أيضاً - إلى مشرتين لقواربه...

ورأى فيما رأى من آيات الذهول رجلاً يخط رأسه في الحائط وهو يصيح في صوت كظيم: «يا خراب بيتنا!»... ورأى فيما رأى من علامات الغيظ عيوناً تفتح نازراً تريد أن تحرقه، فحمد للظروف أن جاءت بالسفينة في ذلك الوقت المتأخر وقد أوى الرجال إلى المقاهي والبيوت... وانتظر الصباح بقلب واجف، وإن كان يعلم أنه سيتنصر، لم يهتز أمام السباب الذي انهال من الأفواه، ولم يتراجع أمام التهديد والوعيد، ولم يلن أمام دموع ذرفها البعض في يأس... كان كمن وضع قدمه داخل قصر عاش عمره ليبنيه، وكان السيد، ولن يخرج منه إلا جثة هامدة... تحقق الحلم، واشترى الدجاجة التي تبيض ذهباً، فأين هو من عبد الموجود حمدان محمد الجعيطي، الذي نزع من قريته جائعاً، منذ خمسة وعشرين عاماً؟!

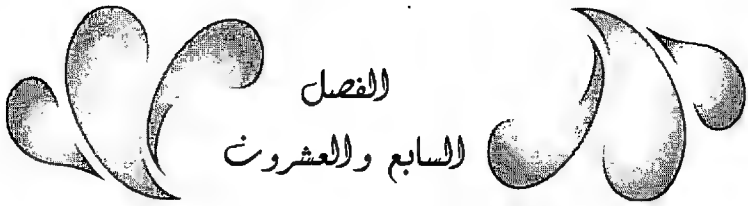


بدا شارع وكالة الليمون في تلك الليلة قفراً، كانت الرياح تهب من ناحية الميناء لتنعكس الطريق وتحمل بقايا الأوراق التي راحت تتطاير هنا وهناك، وماءت قطرة أفلتت من زقاق جانبي، واندفعت تعبر الطريق مسرعة... وتسلسل فأر من شق في باب دكان، وأطلق صراخاً ثاقباً وهو يعدو على الرصيف محتمياً بالظلام، ثم اختفى في شق آخر... كان الليل قد انتصف منذ ساعتين أو أكثر، وظلت أضواء شارع الميدان، بعرباته الكثيرة المكدسة بالبضائع من جبن وزيتون وفاكهة وحلوى، تتلألأ لتصنع كتلة متوهجة من النور... ومن وسط تلك الكتلة برز شبح رجل طويل القامة متلفع بشال صوفي ثمين، وكان يقفز في مشيته قفزات غير متزنة، تدل الناظر إليه على طرب وسعادة يكاد أن يذهبها بالوقار البادي على هيئته...

وكان الرجل هو عبد الموجود حمدان... وكان رأسه يحمل - فوق ما به من أبخرة الويسكي، ودخان الحشيش، وبقايا رائحته امرأة أجنبية لا تزال تملأ خياشيمه - كان يحمل أفكاراً كثيرة، وتجري في داخله عمليات حسابية، أعدادها تحوي ألوفاً أكثر... وكانت الليلة بلا شك هي أسعد ليالي حياته.

وما إن اقترب عبد الموجود من منتصف شارع وكالة الليمون، حتى انثنى إلى اليمين، ودلف إلى حارة جانبية، وغزت أنفه على الفور رائحة الحارة النفاذة، فتوقف متردداً... ثم قرر على الفور أمراً خطيراً، قرر أن يبحث لنفسه منذ الغد عن مسكن ملائم، وليكن قصراً يليق بمقامه الجديد، وبيئاً يستطيع أن يدعو إليه أصدقاءه الجدد...

لكنه ما كاد يخطو في الحارة خطوات، حتى أحس - فجأة - بحمل رهيب يسقط فوق صدره، وذراعين قويتين تحيطان بجسده، وقبضة حديدية ترتطم بوجهه... حاول الصراخ، فكتمت صرخته كف صخرية، وانهال الضرب عليه بالأيدي والأقدام. تمزقت ملابسه، وتعرى صدره، وسقطت لاسسته فوق الأرض وداستها أقدام نائرة... وتلقى ضربة على أم رأسه، فمادت به الأرض، حاول أن يرى وجهًا من الوجوه العديدة التي أحاطت به، فعاقه الظلام الدامس، حاول أن يسترحمهم، أن يفوه بكلمة، فلم تسمح له الكف الصخرية بغير التنفس، ضاق صدره، وأصابه غثيان شديد، وتلخلخت ركبته، وثقل رأسه، وكان آخر ما شعر به، زمجرة غاضبة، وبصقة اندفعت في غل وشفعت وجهه... ثم غاب عن الوعي.



بدا زقاق السيد البلطي في صباح اليوم التالي كثيبًا على غير العادة، وتغيرت فيه الأحوال والمواقيت لأول مرة منذ زمن طويل. فقبل أن تصحو أم حنفي، وقبل أن يصلها نداء المؤذن من فوق مئذنة المرسى أبو العباس، مزقت السكون دقات صارمة فوق باب بيت المعلم محمد، وانبعث في جنبات الزقاق أصوات خشنة، وأوامر، ووقع أحذية غليظة... وفتحت الجفون، وارتجت القلوب، وهب الرجال من نومهم في دهشة ممزوجة بخوف وقلق، بينما صوت خشن في فناء بيت المعلم محمد ينادي على: «محمود محمد البلطي»... وفي نفس الوقت صاح صوت أمر:

«فين بيت حنفي البلطي يا شاويش؟».

«لسه منعر فوش يا أفنديم!».

«فتح عينك انت وهو كويس، اقف يا عسكري عند باب الزقاق، وانت خللي بالك من الأبواب، محدش يخرج من الزقاق إلا لما يفوت عليّ لحد ما نلاقي الاتنين!».

ومضت لحظات قلقة، انبعث بعدها صوت حنفي:

«أني حنفي البلطي، إيه الحكاية؟!».

وفي لحظة، كان حنفي محاطاً باثنين من الجنود، وشهقت زوية وهي تضم ذراعيها فوق صدرها، وأزاحها المعلم صادق عن طريقه وهو يندفع إلى الخارج سائلاً عن الخبر.

ومضت دقائق قصيرة، امتلأت بهرج ومرج، وبكاء وعويل، وشهقات ملتاعة، وسؤال بلا جواب، وزجر رجل امرأته أن تكف، وسؤال يعقبه جواب مقتضب، وإلحاح يعقبه تفسير غامض، لكنه كان يدور على أي حال، حول عبد الموجود حمدان.

ثم غادر الجنود الزقاق بعد أن صحبوا حنفي ومحمود، وبقي الجميع في ذهول يضربون أحماساً في أسداس، تبكي أم حنفي وتولول، وتصرخ أم محمود من أعماق صدرها، فينتشر صوتها في الزقاق نائحاً:

«يا بني... يا ضنيا».

وسرعان ما ارتدى الرجال ثيابهم، واندفعوا من أبواب بيوتهم مهرولين، ثم تجمعوا عند ناصية الزقاق في انتظار من بقي منهم أو تأخر... في عيون الجميع دهشة ممزوجة بالحيرة... ماذا حدث؟!... لا أحد يدري!... أعصاب نائرة وقلوب مضطربة... دموع النساء تنهمر بغزارة، وصراخ الأطفال ملأ البيوت، رجال الشاطئ انشق عنهم الظلام فجاءوا مهرولين على غير موعد، وكان رائحة الخطر قد أيقظتهم في تلك الساعة المبكرة...

غادر المعلم محمد البلطي داره وقد دثر كتفيه بشال سميك وراح يزفر في غضب، وكان وجهه جامداً لا ينم عما في صدره من تساؤل وخوف وقلق وحيرة... وحاولت زوجته أن تغادر الزقاق وراء ولدها،

فأوقفنها زمجرة رهيبة انبعثت من حلقه... غادر الرجال الزقاق وصوت أم حنفي يلاحقهم وهي تسأل الكبير والصغير سؤالاً أعادته عشرات المرات دون أن تجد له جواباً شافياً:

«هو حنفي عمل إيه، ابني عمل حاجة؟... مال العساكر وماله؟».

تحرك الركب وانثنى إلى اليمين، تدب الأقدام المتكاثرة فوق أرض الطريق، فينبعث عنها صوت مدو وكأنه صرخات رجال ذاهبين إلى الحرب! لعل صوت المؤذن، فحمله الهواء وألقى به إلى زقاق صاح، فأبوابه مفتوحة، وعيون أهله فيها دموع... والتقطت أذناً أم حنفي صوت المؤذن فانقبض قلبها، وصاحت بصوت مختنق:

«يا رب».

ثم هدأت الأصوات بعد ضجيج، وتجمعت النسوة في منزل المعلم محمد لا يفارقنه، التففن حول أم محمود وأم حنفي، ورحن يتحدثن ويثرثرن ويتساءلن ويتظنن الأخبار... ثم تفرق حديثهن، وتقطع، وتبعد... فران السكون وغرقت كل منهن في صمت كئيب.



في ركن الحجرة جلست عائشة وقد دفنت رأسها في كفيها، وغاصت في لجة عارمة من التفكير... ورغم حزنها الصادق، ورغم بكائها الحار، فإنها فشلت في الهرب مما كانت تعيش فيه في تلك الأيام... راحت تتساءل في خوف عما سيفعلونه بحنفي؟... زقاقهم نظيف لم تطأه قدم جندي طوال تاريخه الطويل، وماذا صنع حنفي حتى تقبض عليه الشرطة؟!... ولماذا أتوا في جوف الليل ولم ينتظروا حتى

الصباح؟! وهل سيأتي السيد أفندي ليسأل عن الخبر?... ومتى يأتي?... هل سيتزوجها أم ترى الأمر سيقصر على المغازلات?... أتصدده أم تقبل عليه?... طالما قررت أن تصده بجفاء، وترفض حديثه المعسول وغزله الملتهب، طالما حاولت وجاهدت، وبكت وتألمت... لكنها كانت تفشل، دائماً تفشل... ما إن تراه حتى تذوب في نظرات عينيه الجسورتين، وتنسيها كلماته كل شيء عدا وجوده وحبه... قال لها ذات يوم وهو يغادر البيت:

«ما بقتش قادر يا عيشة!».

ردت عليه بصوت مرتجف:

«ومين حابشك يا سي السيد?».

«يعني نتوكل على الله?!».

«حنفي تلاقيه في القهوة دلوقت!».

«بنقول يعني... الصبر طيب!».

«كل صبر وله آخر!».

«حبي لكى مالوش آخر وحياة النبي محمد!».

«وانت بتحبيني يا عيشة?».

ارتجفت، صوب إليها نظراته فنفذت إلى قلبها وسكنت فيه، وجعلته يرقص رقصاً مجنوناً، تلاخقت أنفاسها، وبردت أطرافها... حاولت أن تتحرك، أن تفر من أنفاسه التي كانت تقترب، كيف تفر وهذه الأنفاس تشدها إليه وكأنها عبير الحياة?... صدره العالي يحجب عن عينيها كل

شيء، فلا ترى سواه، صاعد هابط، ضخم هائل، يمتلئ بالهواء في شهيق يكاد يجرفها إلى الداخل، كم تتمنى أن تعيش داخل صدره، عيناها تغلقان بقدرة هائلة، يدها تطبقان على كتفيها، وصرخة تمرد في صدرها، تمتد وتتضاغط ثم تنهار لتصبح أنفاساً باردة متقطعة، عندما لامست شفتاه جبينها أصيبت بدوار، وتسلسل خدر كخمر الجنة إلى جسدها... لثمت زوبة، وليذهب حنفي إلى الحجيم، لكن صوت أمها انبعث في تلك اللحظة كفرقة سوط أيقظها من أعماق موتة!... ارتجف جسده وتشبث بها، لكنها صحت وأفادت والصوت يلاحقها: «عيشة... عيشة»، لماذا لا تموت هذه العجوز وتركها لحالها؟!

«فك بعافية يا عيشة!».

«فك بعافية يا عيشة!».

قال لها ذلك وهو يغادر البيت مهزولاً... واختفى عن نظرها فقالت في صوت حالم:

«ربنا يعافيك ويرضيك يا سي السيد!».

لماذا مضى، لماذا ذهب؟... أحلى ما في الدنيا هو الرجل، أجمل من الأم، وأروع من الأخ، وأقوى من الأب... الصوت يلاحقها، تستدير مسرعة في غل وغيظ، لماذا لا تكف العجوز عن النداء إلى الأبد، لماذا لا يحملها حبيب القلب إلى آخر الدنيا حتى لا ترى سواه؟... ليأخذها من هذا البيت، إلى أقدر بيت، وأحط مجتمع، فما عاد في صدرها متسع للصبر.

النسوة حولها عدن إلى الثرثرة من جديد، وخزة ضمير يقشعر لها
بدنها، كيف تحلم بالحب وشقيقتها في السجن؟... أخذوه عنوة، واختطفوه
على غير انتظار، كان شخير يملأ الحجرة ثم انقطع، هل ستسمعه مرة
أخرى؟!... كيف تفكر في السيد أفندي؟... من أي معدن خلقت؟...
«يا حبيبي يا خويا، يا زين الرجال يا حنفي».

لماذا يثرن ويصرخن في وجهها، لماذا يقلن لها: «بعيد الشر»؟، كم
هي لذيدة دموع الحسرة عندما تبلل أطراف جفوننا الملتهبة بقيظ
الحرمان!... زوبة منكمشة على نفسها تبكي في حرقه، مشاعر غريبة
تتلاطم في صدرها، لا تدري إن كانت تحبها أم تكرهها... لماذا تبكي
هذه الفاجرة، أعلى حنفي حقاً أم على قبلاته وضماته... ضوء النهار
يتسرب إلى الزقاق، والشمس تصعد الآن من وراء الأرض لتغمر كل
شيء، والوقت يمضي وحبيب القلب لم يحضر ليسأل عن الخبر...
لكنه حتماً سيأتي... وسيقف مع الرجال كألف رجل...
«إحم إحم... يا ساتر... يا جماعة!».

كف يا قلبي عن الخفقان، يجذبك صوته بخيوط سحرية فتراقص
وكانك في زار أقيم للقلوب الملتاعة، مجنون أنت؟... اثبت حتى
لا ترى النسوة لهفتك للقاءه...

«قومي يا عيشة ردي على السيد أفندي، قومي يا بت!».

عينا زوبة مسلطتان على وجهي، دموعها جفت هذه الثعلبة، السخريّة
تطل منهما وكأنها تعرف كل شيء... وصوت العجوز يلح في رتابة:

«اتحركي يا بت الراجل واقف!».

«حاضر يا امه، حاضر... دهدي!!».

الفصل الثامن والعشرون

كان السيد أفندي مؤقتاً في قرارة نفسه أن حنفي البلطي لن يوافق - بشكل أو بآخر - على زواجه من عائشة... كان يشعر أن عائلة البلطي - رغم ما يربطه برجالها من ود وصداقة - حصن من المستحيل عليه اقتحامه بحال من الأحوال... وحتى عندما استجابت عائشة لغزله، فسر تلك الاستجابة بإقبالها عليه دون النظر إلى أصله وفصله، فسر ذلك بأن الحب أعمى، وأن القلب له واحد... وللحظ، الحظ وحده، كان هو هذا الواحد!

ورغم ما كانوا يظهرونه له من حب حقيقي وتقدير عميق، فإن جنبه وخوفه كانا يتغلبان عليه دائماً، فما أن يقرر التقدم لطلب عائشة، حتى توقفه قوة قاهرة لا يستطيع حيالها غير التراجع والانكماش والصمت.

وكان يعجب أشد العجب لذلك الارتياح الذي كان يشعر به كلما تحدث الرجال عن سفينة عبد الموجود حمدان، ولم يستطع في البداية أن يفسر ارتياحه هذا، وقد بدا له أنه جرم عظيم، على أنه استطاع أن يكشف عن سره ذات ليلة... عندما راح يفكر في ذلك اليأس الذي انتاب الرجال أخيراً، وذلك الضعف الذي كان يغزو تصرفاتهم وأفكارهم يوماً بعد يوم آخر... أحس في تلك الليلة أنه أقوى منهم، أو على الأقل أصبح

يساويهم... وأزعجه هذا الإحساس أيما إزعاج، لكنه - كالعادة - استطاع أن يتغلب على شعوره هذا بقليل من الجهد، بل أصبح من الواضح أنه يتمنى أن تأتي السفينة، وأن تهزم البلطية بأحمالها وقوتها!

وقد جاءت السفينة، وعلم بخبر القبض على حنفي ومحمود... كان ذلك في المقهى الذي اعتاد أن يشرب فيه كوب الشاي كل صباح قبل ذهابه إلى المستشفى... سمع الرجال يتحدثون بما وقع في الليلة السابقة، فراوده شعور بالفرح والغبطة لوصول السفينة للحظة، لكنها كانت مجرد لحظة خاطفة، اختفى بعدها من نفسه كل شعور أو إحساس عدا إحساسه بالمسئولية، وأن حنفي ومحمود في السجن، وأن عائشة ربما كانت في حاجة إليه... وأحس لأول مرة في حياته أن عليه واجباً!!

نهض من مقعده كالملدوغ، وغادر القهوة وقد سيطرت عليه اللهفة، ولم يفكر - ولو لبرهة - في المستشفى، وفيما يمكن أن يحدث لو تأخر عن مواعده... لم يفكر في رفض حنفي أو قبوله، ولم يفكر فيما يمكن أن يظهر به أمامها لو صنع ما يمكن أن يصنعه في مثل هذه الظروف... كل ما فكر فيه وأحسه، شعر به، هي لهفته على الوصول إليهم، فربما كانوا في حاجة إليه.

وفي منتصف الطريق إلى الزقاق، تذكر فجأة أن عليه أن يتوجه إلى القسم حيث يوجد الرجال، فالزقاق لا بد خال منهم... لكنه لعجبه ودهشته لم يفرح لهذا الخاطر، ولم يستطع أن يحول قدميه عن خط سيرهما، كان مندفعاً في طريقه بسرعة لم يعتدها في سيره... ربما كانت النسوة في الزقاق في حاجة إلى شيء... ليقم بواجبه أولاً حيث تشد الحاجة إليه، ثم لينضم بعد ذلك للرجال.

وما إن اقترب من الزقاق حتى داهمه إحساس طاغ بالضياح، وجد نفسه يتساءل في جد غريب: «لماذا لا يتقدم للزواج من عائشة؟»... تغير مجال تفكيره حينما ملأت خياشيمه رائحة الزقاق التي كانت تثير عواطفه وغرائزه إثارة لا قبل له بمقاومتها، وبدت له مخاوفه في تلك اللحظة تافهة حقيرة... وبدت له أكثر تفاهة وحقارة عندما طالعتة عائشة بوجهها المحتقن وعينيها المتفتختين وشفتيها ودموعها وجسدها المرتجف... بدت له كقطة ضائعة لا حول لها ولا طول، فانفجر في أعماقه إحساس فياض بالحنان... تبادل معها كلمة أو كلمتين، وسألها إن كان أحد في حاجة إلى شيء، فشبهت من خلال دموعها شهقة نفذت إلى قلبه مباشرة...

«ربنا ما يحرمناش منك يا سي السيد...».

أراد أن يتلصقاً، فنخسه شعوره حيال الواجب نخساً دفعه إلى توديع عائشة بكلمة خطفها خطفًا وهو يستدير مغادرًا مكانه... على أن صوتهما ما لبث أن استوقفه مرة أخرى، فوقف وبينه وبين ناصية الزقاق خطوتان أو ثلاث... حيث تجمع بعض الرجال عند الأسطى عبد المولى الحلاق، وأخذوا يرقبون معه في شيء من الدهشة كل ما يجري في داخله، وعلى الرغم من هذه العيون المسلطة عليهما، فإن عائشة أخذت تتقدم منه غير مبالية حتى كادت تلتصق به، وامتدت يدها وأمسكت بذراعه ورفعت إليه عينيها في توسل وهي تهمس:

«ما تتأخرش عليّ والنبي يا سي السيد، ربنا يطول لنا في عمرك، ويحميك لي من كل عين!».

عند ذلك فقد الرجل سيطرته حتى على تفكيره، فاض به الحنان فامتدت يده وربت على كتفها وهو يقول لها بحدة الرجل الذي يخاطب امرأته:

«ارجعي انتي البيت، آني حانشوف اللازم!».

خففت رأسها في استسلام وهي ترد عليه بصوت خفيض:
«حاضر!».

كانت نشوته في تلك اللحظة قد وصلت إلى قمة القمم، فاستدار مغادرًا الزقاق وهو ينظر أمامه في حدة من يعلم طريقه جيدًا، وعندما ألقى بالسلام على الرجال المجتمعين عند ناصية الزقاق، والذين كانت الهمسات تتململ في حلوقهم وعلى ألسنتهم في انتظار ابتعاده، كان قد اتخذ قرارًا... وكان قراره هذه المرة حاسمًا لا رجعة فيه... سيطلب عائشة فور الانتهاء من الأزمة!

ولأول مرة في حياة السيد أفندي عبد الرحمن، الممرض بمستشفى الإسكندرية الأميري، تغزو نفسه راحة من نوع غريب لم يعهده، كانت الطمأنينة قد هبطت على قلبه، فأحس برغبة طاغية في اللجوء إلى جامع ليتوضأ ويصلي... بل ويكي في سعادة... كان يرتجف بانفعال أخاذ، ويفكر في عائشة وكأنها زوجته تمامًا... ولم يفكر إطلاقًا في التردد، لم يعد يخاف حنفي أو المعلم محمد، بل أحس أنه يحبها لاشيء، ابتسم في سخرية عندما تذكر ما يقوله الناس عن السر الذي يتوارثونه بينهم أبا عن جد... وقال هامسًا لنفسه:

«دول سرهم انهم ناس جدعان وحياة النبي!».

لم تعد هناك سوى حقيقة واحدة لا تقبل أي اعتراض... هذه الحقيقة هي عائشة!

وما إن وصل إلى القسم، وألقى بنفسه وسط عشرات الرجال الذين تجمعوا حول أفراد العائلة، حتى انضم في غير تردد أو وجل إلى المعلم محمد ووقف بجواره في ثبات... ولشد ما كانت دهشته عندما تنبه - لأول مرة في حياته - أن الرجال يعاملونه كواحد منهم حقاً... أفسحوا له مكاناً بجوارهم، وقصوا عليه القصة بحذافيرها، تمامًا كما يفعلون مع رجال العائلة... وأحس السيد أفندي بنظرات رجال الشاطئ المتجمعين وقد انصبت عليه من كل جانب في تساؤل، وسمع المعلم محمد وهو يقول، وكأنه يفسر لهم حقيقة غابت عنهم:

«سيد أفندي الباشتمرجي... واحد منا وعلينا!».

ومضت الدقائق...

وجاء شهود كثيرون... وتسربت الأخبار من الداخل أن حنفي ومحمود كانا في القسم بالأمس حتى وقت متأخر، وأنهما قضيا ساعات بعد ذلك في بوظة حسين شلوفة... وبدأت الطمأنينة تغزو قلوب الجميع عندما جاء حسين شلوفة، واندفع نحو حجرة التحقيق متحمساً، وخرج منها متحمساً... وجاء زين الطبال، والشاطر الزمار، والمعلم جمعة... ورجل وراء رجل، ثم طلبوا من يضمن حنفي ومحمود!

وتقدم على الفور المعلم محمد وحمودة والمعلم صادق... وقال المعلم محمد وهو يتحرك نحو الداخل:

«ياللا بينا يا سي السيد أفندي!».

فاندفع السيد أفندي في حماس وفرح... وعندما انحنى ليوقع على الأوراق، قال في إخلاص وفي صوت ثابت:
«برقبتي!».

وانتهى كل شيء... وخرج محمود وحنفي، وتفجرت في نفس السيد أفندي ينابيع سعادة لم يذق مثيلاً لها من قبل... وترك الركب الهائل مخترقاً شارع باب الكراسته، ثم شارع البحرية في طريقه إلى الميناء... وأخرج السيد أفندي ساعته، فوجدها قد جاوزت الثانية عشرة... فاقترب من المعلم محمد وقال له بصوت ثابت قوي:

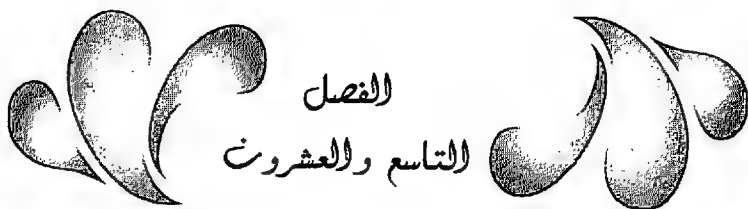
«آني حانروح الزقاق نبشر الجماعة ياأبا محمد، وبعدها نتوكل على المستشفى، نطلب إجازة ونرجع طوالي!!».

وهز المعلم رأسه موافقاً، بينما ربت السيد أفندي على كتف حنفي في حنان وهو يقول باسمًا:

«ألف نهار أبيض يا رجاله... ألف نهار أبيض».

وقال حنفي دون أن تتحرك تقاطيع وجهه الصارمة، والتي بدت في ذلك الصباح وكأنها قدت من الصخر:

«مع السلامة يا سيد أفندي ما تتأخرش علينا بالليل!».



الفصل التاسع والعشرون

كانت الشمس قد توسطت طريقها ما بين الشرق والغرب حينما ظهر السيد أفندي على باب الزقاق مهرولاً، وجهه الأحمر غطته قطرات العرق رغم برودة الجو، يطل من عينيه بريق فرح طاغ، شفتاه مضمومتان وكأنه اعتزم أمراً هائلاً.

كانت عطيات أول من رآه، فأخذت تتقدم منه في خطى متعثرة متعجلة، أدهشها منظره الغريب المتلهف، فخفق قلبها خفقاناً شديداً، وما إن اقتربت منه حتى قال وهو يطلق الكلمات في سرعة فتلاحق مقاطعها أنفاسه اللاهثة:

«مبروك يا ست عطيات، خرجوا دلوقت من الكركون، ظلم والله العظيم... ظلم اللي عملوه معاهم!».

جلجلت في الزقاق زغرودة عطيات، وأطلت على الفور وجوه ارتسمت عليها الدهشة الممزوجة بالفرح، وانطلقت زغرودة أخرى، وهرولت النسوة وغادرن البيوت مستطلعات ما يحمل الرجل من أخبار، وسرعان ما دوت الزغاريد متلاحقة متشابكة، وخرج الأسطى عبد المولى من محله وأطل على ما يجري داخل الزقاق وهو يقول لمن حوله: «محمود وحنفي خرجوا!!»... ووقف طفل، وتوقف آخر كان يجري، وتجمع رجال ونساء وانطلقت الزغاريد من الأفواه، والسيد

أفندي يقف وسط حلقة النسوة منفوشًا يطل من عينيه فرح كان يرتجف له، يحملق في الأفواه المزغردة أمامه، والألسنة تتحرك في فرقة عالية كأنها لهيب نار محبوسة، ودارت عيناه ثم توقفتا عند فم... شفتاه الرقيقتان انفرجتا عن ابتسامة، يعلوها أنف كبير غير أنه متناسق، وعينان بدتا في تلك اللحظة وكأنهما تزغردان بالنظرات، وضوء الشمس المطل من أعلا الزقاق يستلقي على تقاطيع الوجه ليضيئها بنور هادئ، والتقت عيناه بعيني عائشة، وابتسم في جزل وكأنه طفل، وابتسمت في سعادة، فهمس ومن حوله كل النساء وكأنه نسي نفسه تمامًا:

«الليلة يا عيشة... الليلة بإذن الله!».

وارتفعت كف عائشة إلى أعلا فمها، وانفرجت شفتاها، وتلاعب لسانها في زغردة ارتفعت لتغطي بجلجلتها على كل ما عداها، وتوقفت النساء ورحن ينظرن إليها، وظلت هي تزغرد وتزغرد، وتطلق حنجرتها رنينًا ذهبيًا نفذ إلى كل قلب... و... وعندما توقفت وهبطت يدها إلى جوارها، بانث عينها وكانتا دامتين باسميتين جميلتين كأحلى ما تكون العيون.... وراحت تلتهم وجهه بنظراتها، ثم انتبهت لنفسها فولت الأدبار، واختفت وراء باب بيتها وهي تمسح دموعًا غزيرة كانت تنهمر بلا حساب.

وما كادت تصل إلى الفناء، وتستدير إلى اليمين، حتى توقفت. كانت زوبة قابعة بجوار باب حجرتها وهي تبكي في صمت، متممة في راحة.

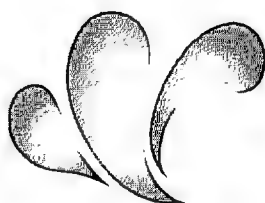
«الحمد لله، الحمد لله، ألف حمد وشكر يا رب... نحمدوه!».

توقفت عائشة قليلاً... ورفعت زوبة إليها عينيْن مبللتين بالدموع،
وما إن التقت عيونهما، حتى ارتجفت عائشة، ثم اندفعت - بلا وعي -
تلقى بنفسها إلى جوار زوبة، وتحضنها في حنان... وازداد بكاء زوبة،
وانهمرت دموع عائشة بغزارة وهي تهمس في صوت هادئ:
«زوبة...».

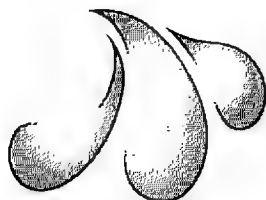
«الحمد لله على سلامته يا عيشة!».
وتساءلت بينها وبين نفسها، كيف كرهت زوبة وهي التي أحبت
أخاها؟!...

«زوبة... كفاية عياط يا بت خالتي!».
«ربنا يطول عمره ويخليه لكي يا بت خالتي!».
وابتسمت عائشة بكل وجهها، ثم همست في عتاب وهي تلتصق
بزوبة:

«وليكي انتي كمان يا زوبة... يا ندامة ياختي!».
ولاح على وجه زوبة شبح ابتسامة... ثم نظرت كل منهما نحو
الأخرى، وألقت بنفسها في أحضان أختها... وغابتا في بكاء سعيد!



الفصل الثلاثون



اشتد الضجيج في مقهى سلومة، واختلطت الأصوات، واحتد النقاش، وتشابكت الكلمات والألفاظ الغاضبة في عراك ثائر مضطرب.

كان المعلم محمد البلطي - كعاداته - يتصدر المجلس، وقد اكتظ المكان وامتلاً بالرجال الذين تركوا قواربهم حيث كانت منذ الليلة الماضية، فبدت لهم في ذلك الصباح كأنها هياكل عظمية لأطفال متسولين متناثرين حول عظيم ضخم الجثة مترهل التقاطيع، تغطيها شباك رقيقة كالخروق البالية لا تستر منها عورة، بينما تتدلى من جوانب سفينة عبد الموجود شباك غليظة سميكة كأنها كسوة غني مقتدر...

عندما رأوها في الصباح وقفوا أمامها مبهوتين، قد انغرس نصل الهزيمة في صدورهم فأوجعهم، وخرجت كلماتهم حيثئذ كالأنين، وتكوم بعضهم فوق الرصيف يختلس النظر إلى الوحش الجاثم أمامهم فوق سطح المياه في خوف ورعب وحسرة، وراح البعض الآخر يهذي بكلمات لا معنى لها... وصعدت الشمس من وراء الأفق، وفتحت الدنيا عينيها، فما فكر أحد منهم في مغادرة مكانه أو الخروج بقاربه... وتسامعوا بما حدث في الليلة الماضية لعبد الموجود، فلم يختلف اثنان منهم أن الفاعل هو حنفي دون غيره... وجاءتهم الأنباء بأن

محمود وحنفي قد قبض عليهما، فأشاح رجل منهم قائلاً في صوت
مختنق:

«آني ورايا عيال!....».

وقال آخر:

«آهي دي آخرتها!!».

وغمغم ثالث:

«يا عم دا عبد الموجود مشارك الإنجليز... هو حد قدهم؟!».

وهب رابع يصيح في ثورة:

«لكن حنفي ما سابس وراه عيال يا رجالة، هي دي تيجي؟... كل
واحد منا بكلمة ونسيبوا الراجل في الكراكون... أقلها نعملوا حاجة،
آني نروح الكراكون ورزقي على الله!».

ولم تطل المناقشة، أحس البعض أنه كان يكذب على نفسه، وشعر
البعض - رغم الإحساس باليأس - بغيظ يدفعه إلى الوقوف بجوار
حنفي، واندفع الباقون بلا تفكير وراء الذاهيين إلى قسم الشرطة.

وعلى غير ما ظن الجميع، ما إن أذن الظهر وانتصف النهار، حتى
أفرج عن حنفي ومحمود.... فعاد الجميع إلى الرصيف مخترقين
شارع البحرية في مظاهرة صاخبة، وما إن تجمعوا في المقهى حتى
أمدهم تجمعهم براحة لم يعهدوها في أنفسهم منذ زمن طويل، وما إن
مضت الدقائق، حتى اشتد صخبهم وجدلهم وصياحهم.

ارتفع صوت رجل من وسط الجمع صائحًا:

«كلنا نعرفوا كده كويس يا معلمي، محدش من عيلة البلطي يضرب في الضلمة... محدش منهم يعملها أبدًا!».

وصاح آخر بحماس شديد:

«ما هو إحنا لو سينا عبد الموجود على حل شعره، حايتر عن أكثر واكثر... لازم نشوفوا لنا حل، واللإيه يا سي حنفي، ما لك ساكت كده؟!».

رفع إليه حنفي عينين جامدتين، ليس فيهما ما يوحى بما يفيض به صدره من ضيق وحنق.... ثم عاد ونكس رأسه من جديد، وراحت عيناه تنتقلان بين الوجوه، حتى استقرتا فوق وجه محمود، فهمس حنفي في صوت خافت:

«مالك يا محمود، بتفكر في إيه؟!».

وزفر محمود ولم يرد... وارتفع صوت المعلم محمد وهو يرد على رجل كان يحدثه:

«مفيش حد يعمل حاجة... تو ما ينزل عبد الموجود الشط، ويقرب ناحية المتعوسة دي، آني حانعرف نادبه إزاي!».

جز محمود على أسنانه، وقال موجهًا الحديث لأبيه:

«حانعمل إيه يا بابا؟!».

«حانعرف شغلي كويس!».

وعاد محمود إلى الحديث، فصمت الجميع وقد تعلق عيونهم بالرجل وولده:

«اللي انهان آني وحنفي يابا، واللي يرييه آني وحنفي برضه!».

لاح الشر فجأة في عيني المعلم محمد، وصرخ بصوت مجلجل:

«آني قلت محدش يقرب له، يعني محدش يقرب له، فاهم يا واد؟!».

«إحنا يا بويا رجالة، ما احناش عيال!».

وعلى غير انتظار، رفع المعلم محمد يده وهوى بكفه على صدغ ولده، ودوى صوت الصفعة في آذان الرجال، وسقطت غلالة الهدوء وانحسرت عن نفس المعلم محمد المضطربة الثائرة، واشتد السكون عمقًا، وتوترت الأعصاب، وانجذبت كل العيون نحو الرجلين وقد واجه كل منهما الآخر... وعاد المعلم محمد إلى الصراخ:

«انت بتبص لي يا واد، ارخي عينك إلا نقلعها وحية مقام المرسي!».

زفر محمود وهو يرخي عينيه، بينما قال حنفي في هدوء:

«يابا محمد، في نفسي نقول كلمة وأجري على الله!».

كان صوت حنفي هادئًا ممتلئًا، وكأنه حائط هائل اصطدمت به ثورة المعلم محمد لتتفتت، غير أنه عاد إلى الصراخ من جديد وهو يجمع شمل غضبه في عناد:

«قلت اسكت يا واد!».

«إحنا ولادك صحيح يابا، لكن انت مترضاش الشنب اللي في وشي ده يبقى على مرة!».

وصاح المعلم محمد كمن فقد أعصابه:

«عيلة البلطي مافيهاش نسوان يابن الكلب!».

«ما انت عاوز تخلينا نسوان يا بابا محمد، كلامك على العين والراس،
إنما.... إنما احنا درعاتك ورجالتك برضه... آني منقصدش نقول اللي
قاله محمود، آني نقصد حاجة ثانية!».

ووجد محمود ثغرة من الصمت، فقال بسرعة وهو يرمق المعلم
محمد:

«برضه حنفي وياه حق يا بويأ!». حاول المعلم محمد أن يسيطر على
مشاعره، وأن يكبح جماح غضبه لكنه فشل تمامًا، أحسَّ كأن شيئًا يجثم
على صدره ليكتنم أنفاسه... كان موقفًا أن حنفي لا يثرثر، فلا بد أن وراء
كلماته شيئًا يريد قوله، وكان واثقًا من ذلك الشيء الجاثم على صدره،
ذلك الهم الذي ابتلي به منذ أن علم به في الصباح.

رنا يبصره نحو ولده، وكان محمود صامتًا منكس الرأس، سارح
النظرات كأنه ميت... فتساءل في مرارة: «كيف أحب ولده تلك
العاهرة، وكيف زج بنفسه في جريمة كالتي حدثت بالأمس؟... بل
الأنكى من هذا وذاك، كيف يذكر اسم البلطي مقرونًا باسم مومس و...
وفتوة قاتل؟!».

منذ أن علم بالأمر وهو يبحث عن جواب، عن حل يشفي غليله،
لكنه كان يزداد تخبطًا كلما أمعن في التفكير.... حمد للظروف أن
صاحب ولده رجالًا وقفوا إلى جواره وساندوه وتحمسوا للشهادة معه
دون تردد أو خوف... لكن، من هم أصدقاء ولده؟... ما هي
أعمالهم؟... طبال وزمار وصاحب بوظة؟ ورجل اسمه جمعة،
لا عمل له!

ثم... وكأنه يهرب من نفسه، وكأنه ضاق بكل شيء، رفع رأسه في حدة، وصاح بصوت كظيم طالباً جولة.... كانت هذه هي عادته كلما ضاقت به الحال، كف عن تدخين الجوزة منذ سنوات واكتفى بالسجائر، لكن الحنين كان يراوده بين الحين والآخر أو كلما شغل ذهنه أمر، وقتها كان يطبق على طرفها بشفتيه، ويملاً صدره بدخانها وكأنه يذيب فيه همومه... وقد جاءت الجوزة، وأطبق بشفتيه على طرفها وراح يمتص منها الدخان بشراهة كأنه طفل يرضع من ثدي أمه بعد حرمان مميت.... وعندما صاح أحد الرجال في مرح: «مع التعميرة كباية شاي من عندي آني، بس وحد الله يا معلمي وقول يا نبي!»... لم يملك العجوز نفسه من الابتسام، فسرت في الجو نسمة ارتياح، وتنهّد حمودة وهو يقول:

«أيوه يا حنفي، كمل كلامك وقول كل اللي في نفسك!».

فقال حنفي وهو يوجه الحديث إلى عمه:

«بقي صلي بينا على المصطفى يابا».

وتصعدت الأصوات من كل جانب:

«ألف صلا على الحبيب».

وعاد حنفي إلى الحديث:

«يابا محمد ربنا عرفوه بالعقل، وعبد الموجود انضرب إمبارح

بالليل... الكلام ده زين؟!».

قال المعلم محمد في لا مبالاة:

«هيه!».

«المركب وصلت إمبراح بعد العشا...».

«قصداك إيه... ما تتكلم دوغري!».

«قصدي نقول إن اللي ضرب عبد الموجود ناس منا، رجالة من اللي قاعدين معانا دلوقت!».

وجم المعلم محمد، وانتفضت الألسنة بالهمهمات والاستنكار، وارتفع صوت حنفي مواصلاً حديثه غير عابئ بالدهشة التي ارتسمت على الوجوه.

«آني بدي نقول كلمة... إحنا رجال الشط ده، وكل من فينا لازم يداري على اخوه، واللي ضربوا عبد الموجود إمبراح كانوا زبي وزبي محمود وزيك بابا محمد، دمهم فاير... آني منقصدش إنني نغير الموضوع أو نقلبه، لكن نقصد إنني نسأل اللي عملوا العملة دي سؤال، هو الضرب حايجيب نتيجة؟ حاixelي عبد الموجود يرجع المركب بلدها؟».

صاح أحد الرجال وهو يواجه حنفي في تحد:

«قصداك إيه يا حنفي؟! هو ده اسمه كلام برضه؟!».

«أيوه كلام، وكلام مضبوط قوي، اللي يصح إننا نفكر فيه هو إزاي نضرب عبد الموجود في رزقه يا خلق، مش في دماغه... لو كان جرى للراجل ده حاجة، كان فيه ناس منا دخلوا اللومان، وكانت المركب حاتفضل برضه... بس حاتفضل وعلى قلبها واحد غريب، لكن احنا لو فكرنا بالهداوة، كلمة مني وكلمة منك، حانوصلوا الحل، كده واللا لا؟!».

«لا!!».

قالها محمود في ثورة نطقت بها تقاطيع وجهه المتقلصة، والتفت إليه حنفي دهشًا! وعاد محمود يقول من جديد:

«أيوه لأ... إحنا لو سينا المركب تطلع مش حانلاقوا لقمة ناكلوها، مفيش حل غير كده، آني بنقولها بعلو صوتي، المركب دي مش...».

وقاطعه حنفي بصوت ثابت:

«اسمعني يا محمود لحد ما نخلص كلام!».

«ما هو ده ما اسموش كلام يا حنفي!».

وصاح رجل متدخلًا في الحديث:

«هي هزلت، هي الخيانة حاتبقى عيني عينك؟!».

وزمجر آخر:

«حنفي جرى له إيه، ده زي اللي بيقول للرجالة روحوا اشتغلوا مع عبد الموجود، صلاة النبي يا جدعان!».

وانتفض حمودة وهو يصيح في الرجال بصوت مختنق:

«استنوا شوية لما الراجل يخلص كلامه، هو ده تفاهم؟... إحنا حانتخانقوا مع بعضينا، طولوا بالكم لحد ما يقول سلامو عليكم، أما عجايب!».

وعاد حنفي يحتد في الحديث صائحًا:

«افرضوا إننا غرقنا المركب، حانكسبوا إيه، ناس منا حايدخلوا اللومان، ومركب تانية حاتيجي، أو يعموموا المركب تاني... هو لعب، دي فلوس يا خلق، فلوس... ألافات!».

وعاد اللغظ من جديد، واختلطت الأصوات في نقاش حاد مضطرب، وانقسم الرجال إلى قسمين وراحوا يتصايحون، ويهدون ويتخبطون... والمعلم محمد قد دس طرف الجوزة بين شفثيه وراح يجذب منها أنفاسًا متلاحقة، وحنفي راح ينقل البصر بين الوجوه في حيرة وكان واضحًا أنه يتعذب... ونسي محمود شجاره وتحمسه وانفعاله في لحظات، وتراجع إلى نفسه وغرق في التفكير، راح يتساءل في ضيق: «لماذا تغلي دماؤه ويحتد ويثور ويصيح ويخبط رأسه في الحائط، ثم يهدأ دفعة واحدة وكأنه لم يكن الثائر الصائح المحتد؟!»... زفر كمن يبكي وهو يذكر كايداهم... وأخذت أصوات الرجال تبتعد عن مجال وعيه تدريجيًا، ثم تلاشت، بحث في ذهنه عن فكرة تعيد إليه الحياة، فلم يجد سوى ركود آسن بلا حياة... انفجر في صدره الغيظ من جديد، ثم أذابته سحابة المرارة الداكنة عندما اكتنته... شعر كأنه ينزلق في منزلق بلا قرار... إلى أين؟!... تمنى من أعماقه أن يودع الحياة، ثم بدت له جميلة في العودة إلى البحر، وتمنى أن يترك الرجال في جدلهم وصراخهم واحتدادهم ويقفز إلى القارب ويطرح الشبكة ويجذب الصيد ويقول الشعر في سلام!... لاحت البوظة في أفق تفكيره، فاضطرب قلبه بالحنين، ثم هدا... جو المقهى أصبح دافئًا وكان أنفاس الرجال من نار حامية، رأى الحيرة في وجوههم وفي صراخهم، وشعر أنها تمزقهم، فحزن حزنًا شديدًا... حزنه أصبح كرداء غليظ لروحه هيهات أن تلقيه عنها!... ماذا يريد الرجال؟... وماذا يريد هو؟... ولماذا فعل عبد الموجود فعلته تلك؟ تمنى أن يلقي برأسه فوق صدر أبيه ويبكي في حرقة!... أبوه يتحدث لكن الصوت لم يكن صوته، فتساءل في لهفة، من أين جاء المعلم محمد البلطي بصوت

كهذا... كان صوتًا مرهقًا متعبًا، كلماته تلهث فوق شفثيه وكأن خروجها إلى الأسماع رحلة شاقة!... حتى أبوه؟... من بقي بعد ذلك؟...

«آني شايف يا جدعان إن حنفي معاه حق، طولوا بالكم عليه لما يخلص كلامه، وكل اللي نفسه في كلمة يقولها!».

ما هذا؟... لماذا لا يصرخ ويأمر ويسب ويلعن كعاداته؟... لماذا يصمت أمام رجل يتحدث ويطرق كمن فقد القدرة على مواجهة الناس؟... «كلامك مضبوط يا معلمي».

هز العجوز رأسه بشفثيه على الجوزة وراح يجذب منها الأنفاس في شراهة، وارتفعت يمينه بكوب الشاي ورشف منه على مهل... وعاد الرجال إلى جدلهم غير عابئين بحديث المعلم محمد... كيف يقبل من كان صاحب الكلمة أن يردد وسط الصخب:

«على مهلكم يا ولاد... ما هو ربنا عرفوه بالعقل!».

«عقل مين يا معلمي... دي لقمة عيشنا!».

كيف ينظر إليه في حيرة، ثم يطرق عندما يبدأ حنفي الحديث وكأنه بلا حول ولا طول؟... أين ثورته؟... أين صفعاته وزثيره؟... كان جميلًا رائعًا.... لكنه الآن مسكين مهلهل التقاطيع والكلمات... وحنفي يعود إلى الحديث من جديد:

«دلوقت المركب حاتشتغل يعني حاتشتغل، وعبد الموجود ما دفعش فيها الآلافات هو والإنجليزي بتاعه لله... وبكره تطلع عرض البحر وتغرق السوق بالسماك، فاهمين يعني إيه الكلام ده؟... حانعملوا إيه ساعتها، إيه اللي حانعملوه... لازم نفكروا في طريقة، ونعثروا لنا على حل!».

«عندك انت حل يا معلم حنفي؟!».

قال رجل ذلك وهو يضحك ساخرًا، فقد تذكر فجأة ما قاله الرجال ذات يوم من أن حنفي قد خاوى جنية، كان يومها موقتًا أن حنفي سيفعل شيئًا، كان واثقًا أنه سيصحو ذات صباح ليجد معجزة قد هبطت من السماء لتحل المشكلة، لكن المشكلة لم تحل، جاءت السفينة ووقع ما كان الرجال يرتعبون لمجرد ذكره، وانضم حنفي إلى جيش العاجزين الحيارى... فضحك من نفسه، ضحك في سخرية وكأنه يبكي، ثم سأل حنفي ذلك السؤال على الرغم منه، وتحمل نظرات الرجال وزمجرة حنفي في استسلام، وعاد يقول معتذرًا:

«بلا مؤاخذه... بلا مؤاخذه، غصب عني وحياة النبي!».

وكاد صبر حنفي أن ينفد، هز رأسه كمن يطرد أفكارًا شيطانية، وعاد إلى الصمت من جديد، كان يعلم أن الطريق طويل، وقد أوحشه الشاطئ المهجور، وأوحشه وجه أبيه، فتمنى لو ترك الرجال ومضى إلى صخرة رأس التين، وتمنى أن يلقي بنفسه في المياه ويصبح بكل ما يملك من صوت: «يا بابا... يا سيد يا بلطي، نعم إيه بابا، نعم إيه؟!...» على أنه - لدهشته الشديدة - أحس بالفتور يتسرب إلى نفسه، ورفض في لحظة بدت له رهيبة كل هذا، وسخر غير عابئ بكل ما آمن به، وراح يتساءل: «ماذا فعل السيد البلطي؟... وماذا ترك وراءه؟... أهى تلك الأساطير التي تحكي عن كفاح رجل شق طريقه في الحياة بذراع جبار؟!... لماذا لم يسلمهم مفتاح النجاح قبل ذهابه؟... لماذا لم يورثه سره وسر قوته؟... وماذا كان يفعل لو كان حيًا؟!... أكان يقتل عبد الموجود، أم يضره، أم يقسم البحر بينه وبين الرجال؟!...».

شيء قاهر يتمدد في أعماق حنفي، إحساس رهيب يكفي لتحطيم قلبه، وذكرى السيد ما زالت عزيزة، ومجد هزيل لا يزال أفراد العائلة فيه كالمخدرين، زقاق مهدم، وبيوت متداعية، وقوارب تبدو كالسمكات الوليدة أمام حوت ضخم يكاد يبتلع كل شيء!

وأفاق حنفي من غيبوبته على صوت رجل يقول:

«مالك يا حنفي، سكت ليه؟... ما تتكلم يا ابن الناس!».

لكنه لم يكن يريد الحديث، تطلع إلى الوجوه المحيطة به وكأنه يراها لأول مرة، وكان يعود إلى إطراره من جديد عندما قال عمه:

«ما تتكلم يا حنفي، مالك يا واد؟!».

فرفع رأسه إلى أعلى، وكأنه يبحث في السقف عن حل... فراح يجمع أشتات عقله، وما كاد يفتح شفثيه بالحديث حتى توقفت الكلمات في حلقه، فقد علا في ذلك الوقت صوت قوي واضح، نفذ إلى كل أذن، وارتجف له أكثر من قبل:

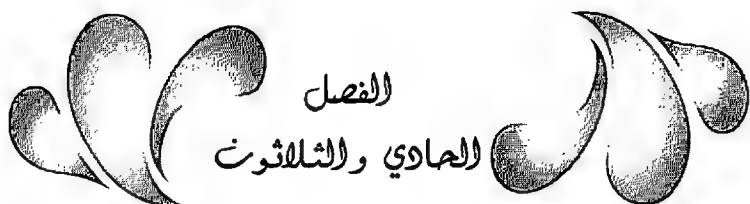
«السلام عليكم يا رجاله!».

استدارت كل الرؤوس في دهشة نحو الباب، وأحاطت النظرات بجسد عبد الموجود حمدان الفارع، ووجهه الذي علتة ابتسامة واسعة، وران السكون على الجمع... ثم قال عبد الموجود وهو يوجه حديثه للمعلم محمد:

«آني جاي نبوس على راسك يا معلمي!».

وصمت قليلاً، ثم استطرد وهو يخطو داخل المقهى:

«نبوس راس حنفي ومحمود كمان!».



الفصل الحادي والثلاثون

تقدم الرئيس عبد الموجود مخترقاً صفوف الرجال في جسارة، وقد غطى كتفيه بشال من الحرير، واستدارت حول رأسه لاسة ثمينة لم تخف رباط الشاش الأبيض الذي يضمّد جبهته... وتحت عينه اليمنى ظهرت آثار الضرب زرقاء صارخة، بينما جاهدت ابتسامته في إخفاء ذلك القلق الذي كان يطل من عينيه.

أخذ الرجال يوسعون له الطريق حتى وقف أمام المعلم محمد البلطي، وسرعان ما فرد ذراعيه وانقض عليه بالقبلات، ولم يتحرك المعلم محمد، كانت المفاجأة قد ألجمته، فاستسلم لكل ما يحدث دون مقاومة... ورفع عبد الموجود شفتيه من فوق رأسه، ثم استدار نحو حنفي ومحمود، وصاح بصوت مدو:

«آني غلطان، الحق عليّ فوق وتحت، ورجال الشط كلهم شاهدين، لكم عندي حق عرب ولو ان مليش ذنب، واللي يقوله معلمي ماشي... وآدي راسك يا حنفي!!».

أتى حنفي بحركة سريعة بغية الفرار، غير أن عبد الموجود كان قد وضع في حسابه مثل هذا الأمر، فانقض عليه في اللحظة المناسبة، وأحاطه بذراعيه، وهوى فوق رأسه بالقبلات وهو يغمغم:

«آني زي اخوك الكبير برضه، آني في سن ابوك برضه!».

وظل محمود ساكنًا، ينظر إلى عبد الموجود في غل وغيظ أذكتهما تلك الحيرة التي لم يستطع الفكاك منها، والتي راحت تدفعه نحو استسلام كانت نفسه تهفو إليه... وما إن رأى عبد الموجود حتى تعلق بذلك الخيط من المقاومة، وقرر أن يقويه بعناد... لذلك، ما كاد عبد الموجود يستدير نحوه حتى صرخ:

«إياك تلمسني، أني منصالحشي غير رجالة عندهم شرف!».

ابتسم عبد الموجود ابتسامة واسعة، وهو يقول بصوت عال ليسمعه كل الرجال:

«برضه حقك عليّ وانت زي ابني!».

انتفض محمود وهو يدفع عبد الموجود من أمامه متشبثًا بالبقية الباقية من غضبه:

«انت حاتبعد عني واللا لأ؟!».

والرجال صامتون يتابعون ما يحدث أمامهم وكأنه لا يمت إلى الواقع بصلة، كان حضور عبد الموجود المفاجئ أمرًا لم يتوقعه أشدهم تفاءؤًا... وبدأ لهم ما يحدث أمامهم غريبًا أشد الغرابة... على أن الأغرب منه هو ذلك الشعور العميق بالارتياح لمجيء عبد الموجود، كانوا يتناقشون ويحتدون ويحمسون وعقولهم غائبة وراء الغد الآتي عليهم كغول لا يرحم... ولقمة العيش التي كانوا يشعرون وكأن يدًا قاسية تنتزعها من أفواههم وأفواه عيالهم... استسلموا لشعورهم الغامض بالارتياح، وضيعتهم - الذي بدا أشد غموضًا - لموقف محمود... كان تصرفه أكبر مما تطيقه قلوبهم الخافقة إلى حل يهبط

عليهم من السماء، وها قد فتحت لهم طاقة أمل، وبدا لهم أن الحل أصبح بين أيديهم... وإلا، فلماذا جاء عبد الموجود حمدان، وهو المنتصر؟!

كان أكثرهم إحساسًا بتلك الانفعالات هو المعلم محمد البلطي... أطرق إلى الأرض... وراح يعبث بأصابعه في شعيرات شاربه... بحث عن عناده فوجده قد ذاب تمامًا، استنجد بماضيه وعراقته، فأحس بهما باهتين لا قيمة لهما أمام القوة الجديدة... وقع في برائن الإحساس بالعجز، وبأن له شبح الهزيمة قريبًا، فرفع رأسه إلى ولده الثائر، وقال بصوت خفيض:

«اقعد يا محمود، اقعد يا ابني وقول لا إله إلا الله!».

«ما هو لا إله إلا الله يا با، إنما ده تهمني آني وحنفي وحب يرميني في اللومان... يرضي مين ده؟!».

وصاح عبد الموجود:

«عليّ الحرام من بيتي ما حصل، وعهد الله اللي باربعين يمين ما حصل، مظلوم يا خلق، مظلوم والله العظيم!».

وصرخ محمود في صوت راعد:

«كذاب... كذاب!».

استدار عبد الموجود نحو الرجال موليًا «محمود» ظهره، وراح يخاطبهم في توسل أنكره في البداية، ثم استعذبه... وقرأ هو ما ارتسم على وجوههم من علامات التصديق، فاندفع يهاجم ضعفهم في غير رحمة:

«آني ما قلتش كلمة واحدة في حق محمود ولا حنفي، كل اللي صدر مني آني قلت منعرفش مين اللي ضربني خوانة، الحاكم العسكري لقاني مرمي في الشارع، وده يصح يا رجالة، هو آني مش منكم برضه؟... المهم، الراجل راح مزعق ومصفر ولم الدنيا عليّ وخدونى المستشفى، وجاني واحد ظابط قال لي مين عمل فيك كده يا عبد الموجود؟ قلت منعرفش، قال لي فيه تار بايت بينك وبين حد، قلت كل الرجالة حبايبي آني ليّه مين غيرهم؟!».

وتوقف عبد الموجود وهو يلهث، وأخذ يدير بصره في الرجال ليرى أثر حديثه فيهم، وسرعان ما سرى الحماس في نفسه من جديد، كان يلح بوضوح اهتمامهم الشديد، وسمع أحدهم يمصمص بشفتيه فرقص قلبه طرباً، واستطرد في صوت متوسل:

«جه المأمور بنفسه وقال لي يا عبد الموجود القنصل الإنجليزي اتكلم في التليفون وبيقول إن شريكك قاعد جنبه...».

وقاطعه محمود في حدة:

«وايه اللي عرف شريكك؟!».

«آني يا محمود آني... ده مال برضه يا محمود، دي ألافات يا خويا... والراجل قعد يقول لي إنه لازم يعرف اللي عمل كده وإلا حايلغ مصر وتبقى حكاية لا لها أول ولا آخر، قلت برضه منعرفش... سألوني فلوسك ضاع منها حاجة؟... قلت الكذب حرام، آني راجل شريف واسمي نضيف مضاعش مني ولا مليم، سألوني حد هددك مرة كده والأ كده؟... قلت برضه ما حصلش... قالوا لي والخناقة اللي حصلت

بينك وبين محمود البلطي، قلت حدّ الله ما حصل بيني وبينه حاجة،
عيلة البلطي خيرها على الكبير قبل الصغير في الشط من أوله لآخره،
واللي يقول عليهم كلمة، أول من يقطع لسانه آني... فيه عيب في الكلام
ده يا رجالة؟!».

صاح رجل من آخر المكان:

«فاتك العيب يا معلمي، الحمد لله جت سليمة!».

وصرخ محمود وهو يشعر بالحبل يلتف حول عنقه:

«لا والله مذبوط، فاتك العيب يا عبد الموجود يا حمدان!».

وقال رجل وهو يختلس النظر إلى حنفي:

«وكان فين الكلام ده ليلة إمبراح؟... كان فين!».

واستدار عبد الموجود نحو المعلم محمد، وفرد ذراعيه في حركة
مسرحية وهو يقول:

«عاجبك كده يا معلمي، عاجبك الكلام ده يا بابا محمد... آني بوست
راسك، وحلفت بالحرام من بيتي، ومستعد نحلف على ختمة يا ناس...
آني فلوسي فلوسكم ومالي مالكم، والمركب كمان مركبكم، والرجال
اللي حايمشوها منكم، واللي حايطرحوا شباكها انتم... هو آني كفرت اللي
جبت رزق للغلاية اللي ملطوعين على الرصيف... يعني آني غلطان؟!».

صمت عبد الموجود، ثم استدار فجأة نحو أحد الرجال، وأشار إليه
صارخًا:

«انت يا حسين مراتك ولدت أول إمبراح... بذمتك جبت لها
الفرخة؟!... انت يوميتك كام؟!».

فغر الرجل فمه، وشحب وجهه شحوبًا شديدًا، فانهال عليه عبد الموجود يحطم ما بقي من مقاومته:

«غايته عشر قروش يا حسين، ويوم فيه ويوم مفيش، مش كده يابن الناس والا آنسي غلطان؟... وقدام الرجالة دول كلهم، يوميتك من النهارده، من دلوقت ربع جنيه، خمسة وعشرين قرش، ومفيش يوم بطل، يوم ورا يوم... فيه غلط في الكلام ده يا رجالة؟!».

كان الصمت الذي ران على المكان بعد ذلك أثقل مما تطيقه الصدور، وكان عبد الموجود لا يزال واقفًا في مكانه عندما نهض رجل وقدم له مقعده، فجلس وسط الرجال منكس الرأس مفتوح الأذنين للهمسات التي كانت تعلو في دوي كدوي نحل أخذ ينشط لحظة بعد أخرى... كان سعيدًا كل السعادة، قلبه يخفق بالجميل للمستتر هوب فلولا له لانزلق فيما كان منزلقًا فيه ولخسر المعركة ولا ريب.



جاء مستر هوب في الصباح بعد أن غادر المستشفى إلى بيته، وكان في صحبته أحد الكثيرين الذين عرف عبد الموجود الطريق إلى سهراتهم الصاخبة... وسأله هوب عما حدث فقصه عليه، وكانت دهشته عظيمة عندما قال شريكه في هدوء وهو يشعل غليونيه ويضطجع في مقعده:

«لقد أخطأت يا عبد الموجود، فليس هذا هو الطريق لاكتساب الرجال... يجب أن تتنازل فورًا عن حقك، يجب أن يكف البوليس عن البحث عن الذين اعتدوا عليك، وإلا خسرنا كل شيء!!».

فصاح عبد الموجود في إنجليزية ركيكة:

«كانوا يريدون قتلي يا مستر هوب، كانوا يريدون قتلي!».

ابتسم هوب وهو يرفع إلى شفثيه كأس الويسكي الذي قدمه عبد الموجود، وبدأ يتحدث في هدوء، ويرسم الطريق الذي كان على عبد الموجود أن يسير فيه دون اعتراض... وظل يتحدث ساعتين دون انقطاع، وفهم عبد الموجود نصف حديثه، وترجم له صاحبه النصف الآخر.... ورغم أنه لم يمارس التمثيل من قبل، فإن أحلامه كانت من الحدة حتى إنه لم يشعر بأية صعوبة وهو يؤدي دوره أمام الرجال... كان خائفًا في البداية من الفشل، كان خائفًا أن تنكشف نواياه للعيون، وألا يستطيع كبح جماح غضبه... لكن حديث هوب كان محفورًا في ذهنه فكيف ينساه؟!

«إنني يا عزيزي عبد الموجود أستطيع أن ألقى بهم جميعًا في السجن، أستطيع ذلك بمكالمة تليفونية واحدة، وأستطيع أن أفعل بهم ما لا يتصورونه من أفاعيل... إلا أننا لن نجد بعد ذلك رجلًا واحدًا يصعد إلى السفينة، لن نجد رجالًا يجذبون الشباك وهي محملة بالأسماك الضخمة، ولن نجد رجالًا يلقون بهذه الشباك، كما أننا لن نجد رجالًا يحملون أسماكنا... وباختصار يا صديقي العزيز، لن تعمل السفينة، وسنعاني الكثير إذا نحن استعنا بصيادين من الخارج، ولن نكسب مليمًا فأجورهم مرتفعة... أما هنا، فنستطيع أن نلقي إلى الفرد منهم بخمسة وعشرين قرشًا في اليوم!».

وصاح عبد الموجود كالمندهول:

«خمسة وعشرون قرشًا، إنه مبلغ سخّي ضخم!».

وعاد هوب إلى الحديث بنفس الهدوء:

«أعلم ذلك جيداً، أعلم أن عشرة قروش أو اثني عشرة قرشاً فيها الكفاية، ولكن... علينا أن نراعي ظروفنا، إنك - بسوء تصرفك وجهلك - أثرت الرجال ضدنا، فليس أمامنا إذن إلا أن نغريهم بالمال، وأنت نفسك قلت لي إن رجالك انضم أغلبهم إلى باقي الصيادين ورفضوا أن يتسلموا أجورهم... نحن في مأزق، وعلينا أن نتصرف بحكمة حتى نعوض ما جره علينا طيشك، وبعد مرور الوقت سنعرف كيف نؤدبهم، ونتحكم في أجورهم، نزيدها أو نخفضها دون أن يستطيع أحدهم أن يعترض!».

وكان هوب على حق!... وكان على حق عندما قال أيضاً:

«علينا أن نفعل مثلما يفعل الساسة، إن زعماءكم يتهاوون الواحد بعد الآخر، وستسمع ذات يوم أنهم قد اتفقوا على حل، وأبرموا معاهدة لصالحنا ولصالحكم... علينا أن نلقي للرجال بالطعم، حتى إذا التهموه، وهم لا بد فاعلون، نجذب السنارة ولن يستطيعوا الخلاص منها، ويصبح الشاطئ ملكنا، ملكي وملكك...».

وصمت هوب وراح يرقب عبد الموجود خلال سحابات دخان غليونه، ثم عاد يقول كمن تذكر شيئاً:

«آه... أما بالنسبة لقواربك، فيمكنك أن تلقي بها إلى البحر، أن تحرقها، ومن الأفضل لنا أن نستعمل أخشابها وقوداً في السفينة، فإنها جميعاً لن تساوي شيئاً عندما تبهر سفيتنا «باتريشا» للصيد!».

كان شريكه على حق، إن الأصوات تأتيه واضحة لا غموض فيها ولا تخف ولا تردد.

«كلام مضبوط وحياة النبي!».

«ربع جنيه يا جدع، قول يا نبي!!».

«انت رايح يا حسين؟!».

«أمال يعني أرفض النعمة يا جدعان؟!».

وانتشى عبد الموجود، وامتدت يده إلى جيبه ليخرج صندوق سجائره، فخطر له أن يلعب لعبة، وأن يتقن دوره، فمال على جاره وقال بصوت عال كي يصل إلى أسماع الجميع:

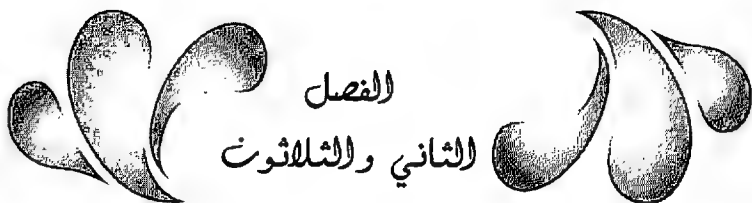
«معاك سيجارة يا معلم؟!».

ولم يكن جاره معلمًا، بل كان أجيرًا فقيرًا من هؤلاء الذين سال لعبهم لعرضه السخي، فبان على وجه الرجل ارتباك شديد مغموس في سعادة لم تخف على عبد الموجود، وسرعان ما امتدت إليه عشرات الأيدي بعشرات السجائر، ولم يستطع أن يكتم فرحته، فتهلل وجهه بابتسامة واسعة، وخفق قلبه وهو يميل على يد قدمت له عود ثقاب في حماس واحترام، وقال في صوت خافت:

«أصلي بطلت الجوزة من يوم الدكتور ما قال لي صدرك تعبان يا عبد الموجود!».

وعلت أصوات متحمسة:

«سلامتك يا معلم... ألف سلامة!».



الفصل الثاني والثلاثون

قال حنفي ساخرًا وهو يرمق عبد الموجود:
«بقي يعني انت جاي تاخذ الرجالة يشتغلوا على المركب؟!».
فوجئ عبد الموجود بأوراقه تنكشف فجأة أمام الجميع فتلعثم
برهة، ثم واجه حنفي قائلاً في دهاء:
«يعني نجيب أغراب يا حنفي، مايهونش العيش والملح!».
وقال حنفي بإصرار غريب، وصوته يجلل في المكان:
«تفتكر لعبتك دي تخيل على حد يا عبد الموجود؟... مين علمك
شغل المكر ده؟... لازم الجدع الإنجليزي إياه... والآن غلطان؟!».
ولم يجد عبد الموجود سوى الالتجاء للمعلم محمد الذي كان مطرقاً:
«يعني ده اسمه كلام يا بابا محمد؟... ده اسمه كلام؟».
فهب حنفي مقاطعاً إياه في حدة:
«شوف يا عبد الموجود، بقي ربنا عرفوه بالعقل، كلام طيب؟!».
«يا حنفي...».
«اسمعني للآخر، أني مش عيل، أني شنبني نص وشي، والرجالة دول
كلهم لازم يفهموا انت عاوز إيه... أني حانقول لك كل حاجة!».

صاح رجل في ضجر:

«جرى إليه يا حنفي... الطيب احسن!».

فعاجله حنفي بالقول:

«معلش يا حسين، آني مقلتش نعملوا رضي، اصبر عليّ حبتين... اسمعوا يا رجاله، عبد الموجود قال للظابط إمبارح ان اللي ضربني حنفي ومحمود البلطي، وأكثر من كده، الظابط قال لي آني ومحمود إن عبد الموجود قال إنه شافنا وعرفنا... وآني عارف إنه قال كده تمام!».

صرخ عبد الموجود في حدة كمن فقد السيطرة على نفسه:

«آني حلفت بالحرام من بيتي يا حنفي، ده مش كلام ده!».

وصاح فيه حنفي وهو يصوب نحوه نظرات مغيظة:

«اسمع يا عبد الموجود لما نخلص كلامي، آني ما طالبتكش بحق عرب ولا حق إنجليز... آني بس بده نقول آني فاهم، ولولا ستر ربنا كنا رحنا فيها آني وابن عمي، الحكاية مكشوفة زي عين الشمس، انت عاوز الرجالة... والرجالة إن ما اشتغلوش النهارده بكرة حايشتغلوا، الجوع كافر، ولقمة العيش تغصب ابن الأصول ينذل لابن الحرام!».

هب عبد الموجود صائحًا:

«قصدك إيه يا حنفي؟!».

«مقصديش، قصدي نقول بعلو حسبي للرجالة... اللي عاوز يشتغل مع عبد الموجود محدش حايشه، ده أكل عيش!».

صرخ محمود وهو يجذب حنفي من كتفه، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه:

«بلا كلام فارغ يا حنفي... وأدي يمين برأس السيد البلطي، إن حد من الرجالة...».

وقاطعه المعلم محمد في حدة وهو ينهض من مكانه:

«بس يا واد، انتوا حاتتخانقوا مع بعضيكم، اقعد يا واد يا محمود لما اخوك يخلص كلامه... اقعد باقول لك!».

أحس الرجال كأن عقولهم تتمزق، وكان أكثرهم إحساسًا بذلك هو المعلم محمد البلطي، كان حائرًا تعبًا مرهقًا، أحس فجأة وكأن سنوات عمره قد ثقلت حتى ناءت بها كتفاه، وكان مختنقًا بالغيظ والعجز... عبثًا حاول أن يجد مخرجًا، أن يجد سبيلًا إلى الطمأنينة... عز عليه أن يعيش آخر أيامه وهو يرى كل ما بناه السيد البلطي ينهار ويتداعى ويصبح أثرًا بعد عين، يصبح أنقاضًا بجوار بناء شامخ جاء من بعيد من أقصى الأرض... كانت حيرته واضحة في صوته، وعذابه يلون نبراته... على أنه وجد بعض العزاء في حديث حنفي، كان هذا يبدو قويًا، ثائرًا، كان يتحدث في ثقة من عثر على الحل، كمن لم يعد يخيفه شيء، أو يغضبه أمر... وسواء أكان الحل على ما يشتهي المعلم محمد أو لا يشتهي، فقد كان حلًا - على أية حال - أخرجته مما كان واقعًا فيه من حيرة... استعذب في لحظة أن يلقي إلى حنفي بكل الحمل وليكن ما يكون، فعاد يقول لولده في نبرات غريبة شدت إليه كل العيون، وارتجفت لها القلوب، حتى قلب عبد الموجود نفسه:

«اقعد يا محمود، اقعد يا بني... سيب أخوك يتصرف!».

ولم يكن يقصد أن يقول: «يتصرف»... بل الكلمة خرجت من أعماقه وفرضت عليه وجودها... فتركها معلقة أمامه في الهواء وعاد إلى مقعده.

وعندما استدار حنفي نحو عمه، وقعت عيناه على وجهه المجعد، أيقن كل شيء، فاندفعت الدموع إلى عينيه في تأثير لم يستطع إخفاءه، وحاول السيطرة على عواطفه، فأخرج سيجارة بيد مرتعشة، وأشعلها بسرعة... لكنه تنبه إلى أنه في حضرة عمه، فارتبك وخجل وألقى بالسيجارة إلى الأرض... وصاح المعلم محمد:

«أوعى تطفئها... خد سيجارتك وكملها يا حنفي!».

تردد حنفي... وعادت عيناه تلتقيان بعيني عمه، فأحس بشيء غريب يغزو قلبه... هم ثقيل كان عليه أن يحمله منذ تلك اللحظة... وعندما انحنى والتقط السيجارة، أوماً عمه أن يبدأ حديثه من جديد... وكأن في هذه الإيماء أمراً له بأن يتقدم الصفوف!

«أكل العيش مش عاوز كبر نفس، فيه رجالة على الشط بيدوروا على رغيف لولادهم، يوم فيه ويوم مفيش... ليه معطلهم ورزقهم قدامهم؟... يبقى صغر عقل وكلام فاضي... اتوكل على الله يا عبد الموجود، الرجالة قدامك محدش حايشك!».

صاح رجل من وسط الرجال، وكان صوته مختنقاً:

«واحنا يا حنفي، وانت، وابوك محمد، وحمودة، والريس صابر، والمعلم جابر... وكل من له قارب يعمل في قاربه إيه... يغرقه؟... يحرقه؟...».

«وحد الله يا معلم خميس وحد الله، خالي حمودة حاي توكل على الله بعد يومين... حاي روح مصر!».

صاح المعلم محمد في دهشة واستنكار:

«بتقول إيه يا واد؟!».

والثفت حنفي نحو عمه... وكانت نظرة واحدة كافية ليطرق الرجل بعدها في استسلام... لم تعد لديه قوة على الجدل!... واستطرد حنفي يقول في حنان:

«خالي حمودة الدكاترة قالوا له مال كش عيش جنب الميه، هو رايح مصر خلاص، وحاي فتح دكانة سمك، والرزق اللي نصيده، هو يبيعه... إيش قولكم في كده؟!».

صاح أحد الرجال في جذل:

«ينصر دينك؟!».

وقال آخر في ذهول:

«إيه الكلام ده يا حنفي... قصدك إيه؟».

«قصدي نقول كلمة ونص، عبد الموجود فاهم كويس إن المركب حاتفرق السوق من أول البر لآخره، وعارف كمان وكلنا نعرفوا كده، إننا حانضيع قدامه ومش حانقدروا على حاجة... خالي حمودة رايح مصر غصب عنه، قلنا في عقل بالنّا، كل من له قارب يصطاد بيه اللي يقدر عليه، ونلموا الرزق كله ونبعته على مصر في السكة الحديد، كل يوم بيومه... خالي بيعع هناك، وكل واحد ورزقه، وهو كمان يسترزق... وبالشكل ده نقدرنا نعيشوا من غير ما حد يتحكم فينا...».

وقع عبد الموجود في الحيرة... وصمت الرجال دهشين وعاد عبد الموجود يرفع عينيه ليستشف ما وراء الوجوه وأشعل سيجارة وراح يدخن في شراهة، ماذا يفعل، كيف يحطم ذلك الرأس الذي نطح الصخر دون أن يتفتت... ولم يكن أمامه سوى حل واحد... فنهض فجأة، واستأذن في الانصراف... وكان متعجلاً!

وكانما تخلص حنفي من حمل ثقيل، فعاد إلى الحديث من جديد:

«صلوا بنا على النبي يا رجاله... الكلام ده مش لازم يوصل بره... إحنا كثير، والرزق بتاعنا بيعجي يوم بيوم، لكن المركب بتغيب لها سبع أيام في عرض البحر، علشان كده عبد الموجود مش حايست... فلازم لازم نكون مفتحين... وفيه كلمة كمان، كل اللي حايشش معنا لازم يفهم إنه حايشش قرشين من رزقه، ومفيش حاجة بتيجي بالساهل، سنة، اتنين، ثلاثة... ومين عارف، يمكن نقدرنا على شرا مركب زي دي واحسن، وزى ما عمل عبد الموجود نعملوا إحنا، بس ما يدخلش معنا غريب... وكل شيء وله آخر، والقوي له اللي أقوى منه، وربنا ما ينساش عبيده أبداً!».

كان العجب الذي سيطر على الرجال مرتسماً على وجوههم فبدوا جميعاً كالبلهاء... حتى حنفي نفسه، عجب أشد العجب لما قال، كان كمن اختزن كل هذا الكلام، كمن عثر على الحل منذ زمان وآمن به، وجد نفسه ينطق بما لم يفكر فيه أبداً، لكنها كانت أماني... و... ووجد نفسه يعود إلى الحديث:

«واللي بيرمي طرحة يرمي اتنين، واللي بيرمي اتنين يرمي أربعة، وكل واحد منا يشتغل لنفسه ولعياله، والرزق نوزنوه قبل ما نبعته لخالي في مصر، والمال يتقسم بالعدل وحسب الوزن!». «

وقال رجل:

«وحمودة؟!». «

«خالي حا يكون له نصيب نتفقوا عليه كلنا، ولازم تفهموا إنهم مش حا يচারبوننا بس، لأ... وفي مصر كمان، وفي السكة الحديد وكلها إنجليز... لكن الأيام أقوى منهم، والجايات أكثر من الرايحات، كده والألا؟!». «

وقال المعلم محمد بلا وعي:

«كلام مضبوط تمام، كلام زين يابن اخويا، إيش قولكم؟». «

وارتفع أكثر من صوت:

«كلام زين... مفيش كده!». «

وقال رجل في حماس:

«نقروا الفاتحة يا جماعة!». «

فقال حنفي في حدة:

«لأ... نكتبوا ورقة!». «

«ورقة؟!». «

كانت الكلمة وكأنها غريب يقتحم عليهم حياتهم، فاستكروها،

وقال المعلم محمد:

«والفاتحة ما لها يا واد... إحنا حانكفروا على آخر الزمن؟».

«ده مش كفر يا بابا... الزمن غدار ومحدث ضامن بكره... اللي عاوز يقف معانا يكتب الورقة، وأكثر من كده كمان، نروحوا بيها لمحامي يعملها لنا حسب الأصول!».

صاح أحدهم في استماتة:

«هي حصلت، محامي بين الرجالة يا جدعان، هو إحنا غرب يا حنفي؟!».

وقال محمود كالمسحور وعيناه معلقتان بوجه ابن عمه:

«استنى يا معلم شويه... قول يا حنفي قول!».

كان محمود مذهولاً... يشعر بحديث حنفي وهو يتساقط من بين شفتيه كأن الله هو الذي يوحى له به... غمرته الراحة فجأة، راحة عميقة عميقة... فأخذ يستمع لابن عمه وكأنه يغني موالاً لم يسمع أجمل منه... «أيوه حصلت... محامي وورقة تنكتب، ده أكل عيش مش لعب، والكلام اللي بنقوله ده كلام صعب، إحنا ما اتعودناش في الشط على كده، إنما كل زمن وله كلامه... أيام أبويا السيد مكانش يحصل حاجة من دي إنما دلوقت حصل... حصل إن عبد الموجود، وآهو كان واحد منا وعلينا شارك رجل غريب من آخر الدنيا، وحب يقطع عيشنا ويجوع ولادنا!».

وقال الرجل متمسكاً برأيه:

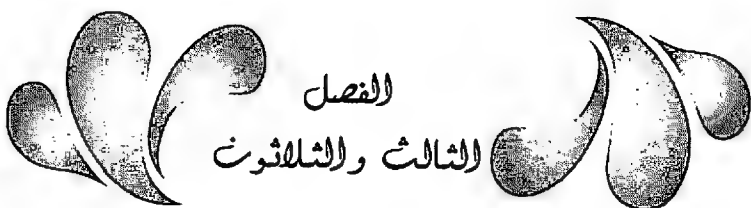
«برضه عيب نكتبوا ورقة يا جدعان... عيب!».

وعاد حنفي يقول في إصرار:

«ما عيب إلا العيب... ماتفرض يا أخي إني حانسرك أو يسرك
خالي حمودة، تاخذ حقك منه إزاي؟... هيه، تاخده إزاي؟!».

والثفت حنفي نحو خاله، كان حمودة شاحب الوجه مطرقاً
وكأنه سيفارق الحياة بعد يومين، قد تشابكت أصابعه في عصبية،
وما إن التقت عينا حنفي بعينه حتى خفق قلبه بالحب... على أن حنفي
سرعان ما حول عينيه إلى وجه عمه... كان العجوز صامتاً هادئ
الوجه... وكان محمود ذاهلاً، والرجال قد غرقوا في الحديث... وشيئاً
فشيئاً سرى الارتياح إلى نفوسهم، وعرفت البسمات طريقها إلى
وجوههم، وبدأ لهم المستقبل في صورة جديدة، فأخذوا ينظرون إلى
السفينة الراسية بلا ضيق كأنهم يعلمون أنهم سيتتصرون... ومضت
لحظات، وأصبحت اللحظات دقائق، والدقائق ساعة... وأخذ النهار
يمضي بهم دون أن يشعروا، وقرص الشمس ينزل في خفة مسترقاً
خطاه نحو الغرب، وكأنه يجذب من الشرق غلالة سوداء يغطي
بها الدنيا إلى حين... وضحك رجل، ورد عليه جاره بضحكة،
وسرت العدوى إلى الرجال فراحوا يصيحون في مرح، ويغرقون في
ضحك عابث، وقرص الشمس الدامي يلامس سطح المياه من بعيد،
ويلون السماء والماء بلون أحمر قان... وتسرب الانبساط إلى
النفوس... واختفى التوتر وزال... حتى محمود والمعلم محمد
ابتسما، وضحكا وتحادثا... وأخذ حمودة يربت على صدره في سعادة
وكانه يمينه بالشفاء، ويتلقى التهاني مبتسماً، ويتناقش مع الرجال
ويعرض رأيه...

وجه واحد وسط كل هذه الوجوه ظل جامدًا... تبدو في عينيه نظرة
تنم عن عزم غريب، كان وجه حنفي ينطق بما يعتمل في ذهنه من
أفكار... إحساس ثقيل بالمسئولية يجثم فوق صدره ويغذي دماءه
بحرارة دافئة... على أن الذكرى وجدت لنفسها متنفسًا عبر أكوام
الأفكار والمشاعر التي كانت تسيطر عليه... فاستدار برأسه ناحية
القصر، ورآه جاثمًا فوق حافة البحر، شامخًا فوق الصخرة العاتية...
فجذبه الشوق من مكانه جذبًا، فنهض على موعد مع الرجال... وما إن
غادر الرصيف، واستقبل الطريق بوجهه، حتى كان قرص الشمس قد
اختفى، وسحب وراءه رداء الليل الأسود وغطى بها الدنيا لتنام.



الفصل الثالث والثلاثون

وصل حنفي إلى الشاطئ المهجور... وترامى أمامه جسر الرمال الضيق ملتقيًا بالمياه في صمت كثيب... وقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل، انتابه خجل، غير أن الإحساس كان قويًا متملكًا من نفسه، وتواعد إلى ذهنه سؤال بدا له سخيًا محيرًا: «هل رضي أبوه عما قاله للرجال!»... لكنه سرعان ما تساءل في غضب ونفاد صبر: «وما الذي كان يفعله أبوه لو كان حيًا؟...».

ظل منتصبًا عند الشاطئ بجسده الفارع ورأسه الكبير، وقد عقد ذراعيه فوق صدره، واكتسى وجهه بطبقة صخرية... ثم برقت في ذهنه حقيقة غريبة ارتاحت لها نفسه واطمأنت، حقيقة جاءت على غير انتظار وكأنها وحي هبط عليه من السماء... «أن الزمن غير الزمن، والرجال غير الرجال!».

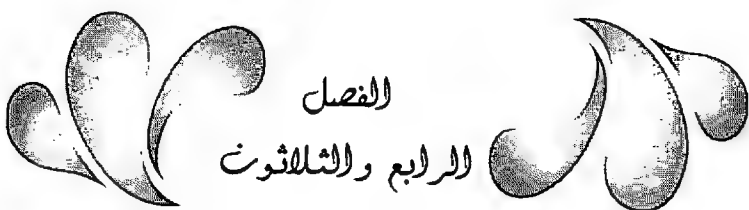
فجأة... أصبح الشاطئ الذي اكتسى في ذهنه بحلة بهيجة من الأساطير والحكايات عاريًا قفرًا، رآه مهجورًا يحيط به الصمت والجمود ويعيش الفضاء من حوله... والسيد البلطي غير موجود؟! وهوى قلبه إلى قدميه...

ذكرى أبيه هي الشيء القوي في حياته... قوته استمدها من تلك الأساطير التي يحكونها عنه... ورغم أنه لا يذكر وجه أبيه، فإنه كان

يحس إحساسًا عميقًا أن السيد البلطي كان يعيش معه طوال عمره، في ليله ونهاره، في حزنه وفرحه، في ساعات يأسه وساعات أمله... كان كالضمير لا يفارقه... وكان حيًّا لم يمِت، ما إن يشعر بالضيق أو يفقد الأمان حتى يذهب إلى الشاطئ... هناك يتنسم رائحته، ويرى في وضوح جلي وجهه الذي شكله خياله وصاغه في أبهى صورة عرفها لإنسان... شيء كالوحي كان يهبط عليه كلما خاض في المياه وغاص في لجتها، ورجفة قدسية كانت تتباه كلما نادى في الفضاء: «يا با... يا سيد يا بلطي!»... ويحس رجوع الصدى وكأنه رد على ندائه... بل كثيرًا ما توهم - وإن كان ينكر ذلك - في لحظات فيه مليًا نداءه... كان السيد البلطي حيًّا في خياله وقلبه، حقيقة حافظ عليها وسعد بها طوال عمره... لكن الأيام جاءت به بما لم يفكر فيه السيد البلطي... وكان عليه وحده أن يجابه أحداثها!

وأحس حنفي في تلك اللحظة - فقط - أن أباه قد مات!
فارتجف!...

وغص حلقه... ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى صخور ناتئة ومياه منبسطة، وصخرة رأس التين الهائلة تتلقى في صمت نطح الأمواج، وترقب في جلال انحسار البحر عنها!
فاض قلبه بالحنين، وقال - لأول مرة في حياته - وهو يستدير مبتعدًا عن الشاطئ في خطوات ثقيلة:
«الله يرحمك يا با!».



الفصل الرابع والثلاثون

صاح طفل بصوت رفيع ثاقب:

«عمي حنفي جه... عمي حنفي جه!».

ورفعت عائشة عينيها لترى شبح أخيها هائلاً عملاقاً يكاد أن يبتلع مدخل الزقاق بطوله وعرضه... فانتفضت في سعادة، وزفرت من أعماقها، ثم اندفعت تعدو بلا وعي وهي تصيح في جذل كطفل غاب عنه أبوه، ثم عاد إليه بعد سفر طويل.

وقد أدهش حنفي ما رآه من علامات السعادة المرتسمة على وجه شقيقته، كان شيئاً غريباً ذلك البريق الذي راح يطل من عينيها، بريق أخاذ مضيء، وراحة عميقة كانت وكأنها رسمت تقاطيع وجهها من جديد.

فرغم الضوء الخافت الذي تسرب إلى الزقاق من نوافذ بيوته المفتوحة، فإنه استطاع أن يلمح في الوجه الذي طالما طالعه كثيراً حزناً لمسة سعادة لا تخطئها العين، كانت عائشة قد اندفعت - على غير ما تعودت أو تعود أهل الزقاق - لتلقي بنفسها على صدره، وتحيط عنقه بذراعيها وهي تجهش بالبكاء... بينما راح صوت أم حنفي يسري في جو المكان ملهوفاً، وهي تتحسس طريقها منادية:

«يا حنفي، يا ضنايا... اتأخرت على امك قوي يا حنفي، ليه يا ابني اتأخرت عليه... حنفي!».

واختنق صوت العجوز وهي تتحسس بكفين مرتجفتين وجه ولدها الذي انحنى عليها ليغمر وجهها ويديها بالقبلات... وتجمعت النسوة، ورحن يزغردن ويسلمن ويهتثن... فرفع حنفي وجهه لتلتقي عيناه بعيني زوبة وقد كستهما دموع مزغردة، وامتدت يده دون تردد لتلتقط يدها وتضغط عليها في قوة وثقة، وأطل من عينيه حديث له معنى، حديث صامت على أنه ثرثار... وأرخت زوبة عينيهما في خجل كمن فهم كل شيء... وخفق قلبها خفقاناً شديداً، وشحب وجهها عندما اقترب منها حنفي حتى كاد جسده أن يلامس جسدها، وهمس بصوت لم تسمعه سوى عائشة:

«أبويا صادق رجع يا زوبة؟!».

قالت وهي تولي عنه وقد تضرج وجهها بعد شحوب:

«لألسه... زمانه جاي!».

وغمرت ابتسامة سعيدة وجه عائشة وهي تجذب زوبة من يدها، وتسير بها بعيداً عن الضجة... ثم دلفت معها إلى فناء البيت، وهمست في جزل وسعادة وهي تقفز في مكانها مصفقة:

«ألف مبروك يا زوبة... ألف مبروك يا اختي!».

«يوه، إخص عليك يا عيشة، على إيه؟!».

ضحكت عائشة وهي تقول:

«يا لهوي على الكهن يا اخواتي، بت... حظي عينك في عينه كده...
أمال كان بيسأل على أبويا صادق ليه؟!».

ابتسمت زوبة وهي تندفع نحو عائشة، وتلقي بنفسها فوق صدرها،
ثم قالت بصوت حالم:

«ان شاء الله يا بت خالتي... ان شاء الله يا رب!».

وقالت عائشة وهي تدفعها إلى بعيد، وتحملق في وجهها:

«عارفة يا زوبة، وحياة النبي أني قلبي حاسس إن الليلة حاتكون
أفراح من أولها لآخرها!».

غمزت زوبة بعينيها وهي تقول مداعبة:

«أبو السيد؟... السيد أفندي؟!».

أحست كل منهما فجأة وكأنها تعرت بغير خجل أمام صاحبتهما...
ووصلتهما من الخارج أصوات النسوة وهي تقترب وتدنو، ودلف
حنفي إلى الفناء باسمًا، وقال وهو يتجه نحو حجرته في خطوات سريعة:
«عاوز نشرب كباية شاي يا عيشة!».

«حاضر يا خويا».

جذبت زوبة عائشة نحو حجرتها وهي تقول في همس:

«والنبي ما حد يعمل له الشاي غيري من الليلة!».

وسرعان ما انحنى على الموقد، وأشعلت الثقاب، وراحت تعد
الشاي... وخرجت عائشة إلى الفناء لتأتي بالمياه، عندما صك سمعها
صوت قفز له قلبها وركض وأخذ يضرب بخفقاته جدران صدرها في
عنف... كان السيد أفندي الباشم رجي يحدث أمها التي اتخذت مكانها
عند عتبة الباب من جديد:

«مساء الخير يا خالتي...».

«يمسيك بالنور والعافية يا سي السيد أفندي!».

«هو حنفي لسه مارجعش؟».

«رجع يا خويا من غير شر... اتفضل آهو جوه!».

وسرعان ما ارتفع صوت حنفي من الداخل:

«اتفضل يا سيد أفندي... أهلاً وسهلاً!».

تنحج السيد أفندي وهو يخطو إلى الداخل خافض البصر... ورغم أنه مر بعائشة وهي تقف وسط الفناء، فإنه لم يحاول أن يسترق السمع أو يختلس النظر... كان ثابتاً يعرف طريقه هذه المرة... وما إن دلف إلى الحجرة، واختفى وراء بابها... حتى دنت عائشة من الباب في خفة، وراحت تتسمع، ودقات قلبها تصم أذنيها... وجاءها صوته بعد لحظات خيل إليها أنها سنوات طوال:

«بقي صلي بنا على الحبيب النبي يا حنفي!».

فوجئ حنفي بلهجة الرجل، فقال في دهشة محاولاً أن يستشف ما وراء كلماته:

«ألف صلا على الحبيب يا سيد أفندي... خير مالك؟!».

«بقي شوف يا سيدي...».

تردد السيد أفندي للحظات... كان جالساً أمام حنفي منكس الرأس، يستلقي من ورائه نور المصباح الموضوع فوق حافة الدولاب ليغمر ظهره ويكسو وجهه بطبقة من الظلال... ونشط ذهن حنفي وهو يرقب

الرجل الصامت الجالس أمامه... وأحس بالضيق يغزو مشاعره... كان قد قرر أمرًا، وكان في حاجة لأن يخلو لنفسه ولو لدقائق معدودة... في لحظة، اعتزم أن يطلب زوية هذا المساء!... ولو لم يتمالك نفسه وهو في الزقاق وسط النسوة، لأخبرها بما اعتزم عليه على مسمع من الجميع... وأحس بالملل وهو يقرب وجه السيد أفندي المكتسي بالظلال، وتنحنح وهو يرسم على وجهه ابتسامة... ثم قال:

«خير يا سيد أفندي... فيه حاجة شاغلأك؟!».

وقال السيد أفندي بصوت مرتجف:

«قوي يا حنفي... ربك والحق مش عارف نقولها إزاي!».

«اتكلم يا سيد أفندي، داحنا اخوات!».

«ما هو ده اللي مطمعني!».

«خلاص... ومستني إيه ما تتكلم!».

«اسمع، اسمع يا حنفي... آني طالب القرب!».

ارتجف حنفي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه حتى أن السرير وارتجفت مفاصله لارتجافه... وتصيب العرق البارد من جسده فغمر صدره وظهره وتساقط من تحت إبطيه... فأطرق لا يدري ماذا يقول... كان حائرًا غير مصدق... لو أنهم قالوا له إن سفينة عبد الموجود حمدان قد غرقت لما اهتزت في جسده شعرة، ولو أنهم قالوا له إنه كل ما مضى من مشاكل كان حلماً لصديق... أما أن يطلب رجل يد عائشة، فهذا ما قد طمست الأيام والقلق والانتظار معالم الأمل فيه... فاخنتي!

«يعني ساكت يا حنفي؟!».

رفع حنفي عينيه إلى السيد أفندي، وسأل في صوت هادئ:

«عاوز عيشة يا سيد أفندي؟!».

«أيوه يا حنفي... أيوه عاوزها على سنة الله ورسوله... وألا آتي مش قد المقام يعني؟!».

كان صمت حنفي قد أفقد السيد أفندي اتزانة وبعث الخوف في نفسه، فنطق بالجملة بلا وعي... على أنه عندما نظر إلى عيني حنفي المشرقتين، عاد يحس الأمان من جديد... فقال:

«إيش قولك يا حنفي؟!».

«كلمت أبويا محمد?...».

«قلت ناخذ رأيك الأول...».

زفر حنفي، وقدم للسيد أفندي سيجارة، وأشعل لنفسه واحدة، ثم قال وهو ينفث دخانها في راحة كمن أزيح من فوق صدره حمل أثقل عمره بالأسى:

«عيشة أختك يا سيد أفندي زي ما هي أختي... ومهما اتقدم لها مش حانطول واحد زيك، إنت منا وعلينا... وخيرك على الكبير فينا قبل الصغير!«.

كاد السيد أفندي أن يرقص طربًا لحديث حنفي، فقال في مرح:

«عيب يا حنفي داحنا أهل... يعني إنت موافق؟».

«من ناحيتي، ألف نهار أبيض لما تناسب واحد زيك... إنما برضه الأصول إننا نشاور أبويا محمد... وألا انت إيه رأيك؟!«.

«تمام تمام... يعني إنت موافق؟!».

«الله... جرى إيه يا راجل؟... ما تصلي على الحبيب أmaal!».

«ألف صلا على سيدنا محمد...».

قالها السيد أفندي... ودلفت عائشة من الباب تحمل أكواب الشاي بيدين مرتجفتين ووجه شاحب سعيد، فخفض الرجل بصره، ورفع إليها حنفي عينين حانيتين... قاوم رغبة عارمة في مداعبتها، وفي إخبارها بالأمر كله... بل قاوم رغبة في أن يقبلها ويضمها إلى صدره وأن يقول لها «ألف مبروك يا عيشة، ربنا يسعدك يا اختي!»... وما كاد السيد أفندي يمد يده إلى كوب الشاي حتى انسحبت عائشة وهي تفر إلى الخارج وهي تقول في اضطراب من لم يتحمل صمت الحجرة وما فيها من أسرار:

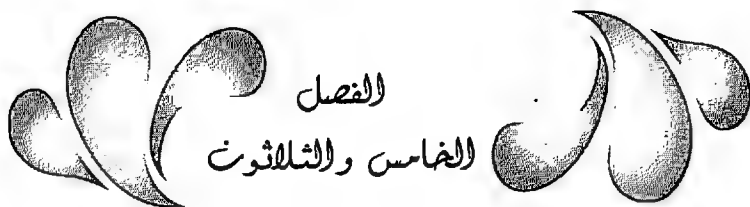
«سي محمود ابن عمي جه...».

فصاح حنفي فيها وهي تغادر الحجرة، وقد أيقن أنها سمعت وعلمت:

«وكباية الشاي بتاعتي يا بت؟!».

ثم انطلق ضاحكًا ملء صدره... وقال وهو يربت على كتف السيد أفندي:

«ألف ليلة بيضة يا سيد أفندي... داحنا اتشرفنا وحياة النبي!».



الفصل الخامس والثلاثون

نهض حنفي والسيد أفندي بعد أن شربا الشاي ليلحقا بالرجال الذين تجمعوا في بيت المعلم محمد... كان محمود جالسًا بجوار أبيه، وعن يساره جلس المعلم صادق وحمودة... بينما تناثر الباقون في أرجاء الحجرة الرحبة.

وما إن انتهى المعلم محمد من مصافحة السيد أفندي، حتى صاح في حنفي ضاحكًا:

«إزاي يا واد يا حنفي تخبي عليّ المدة دي كلها إن خالك مسافر؟!».

اندفع السيد أفندي يقول في مرح:

«هو حمودة ناوي على السفر؟!».

وقال حمودة ضاحكًا:

«إن شاء الله يا سيد أفندي... علشان منزعلكش بس!».

نهض السيد أفندي في حماس وصافح حمودة في حرارة وقد اكتسى وجهه بالسعادة وهو يردد:

«ألف نهار أبيض، ألف ليلة بيضة... حاتوحشنا صحيح إنما يبقى لنا بيت جنب أم هاشم... يا سلام، كل شيء وله أوان يا رجالة!».

ابتسم حنفي ابتسامة مشرقة، وراح يتعجل الحديث، ويقاوم رغبته في أن يعلن للجميع رغبة السيد أفندي، ويطلب زوبة، ويسمع بأذنيه زغاريد فرحه... فقال بسرعة والكلمات تتراقص على شفثيه:

«صلي بنا على النبي يا عمي... فيه كلمتين لازم ينقالوا قبل أيها حاجة تانية... آني كل اللي حيلتي قرشين حانديهم لخالي... واللي عنده قرشين زيادة يبقى خير وبركة... الشحن من هنا لمصر يوماتي آني سألت قالوا لي كده... والا إيه يا خالي حمودة؟».

وقال حمودة:

«هو يوم الجمعة بس اللي مافيهوش شحن... والمعلم جابر السماك قال لي إن الرزق في مصر واسع، البلد كبيرة، والسعر فيها عال!».

فقال المعلم محمد وكأنه ينفذ عن كاهله كل شيء:

«شوفوا يا ولاد، إنتم دبروا أموركم، وربنا معاكم!».

فقال حنفي:

«ما هي الشورة برضه شورتك، والكلمة كلمتك يا بابا!».

«الشورة شورتك إنت يا حنفي... وآهو محمود أخوك، وآني ما عدتش حانطلع بعد النهارده بالفلوكة... يا اللا يا حسن الختام، والأ إيه يا محمود؟!».

قال محمود بنبرات حزينة يشوبها الحماس والإخلاص:

«كلامك ماشي يا بابا!».

وقال حنفي:

«وأنى حانطلع بقارب خالي حمودة».

فقال المعلم محمد:

«كلام زين... إيش قولك يا حمودة».

فرد حمودة بحماس:

«القول ما قاله حنفي بابا... وأنى بعث له القارب والشبكتين بالقرشين اللي عنده، سوى كتير سوى شوية!».

اكتسى وجه حنفي بفرح غامر، وتهللت ملامحه وهو يقول:

«وناوي تتوكل إمتى يا خالي؟».

فقال حمودة:

«أنى اتفقت مع أبويا محمد خلاص... من بكرة حانروح مصر وفي جيبي قرشين، نجس النبض ونشوف الجو ماشي إزاي، وبركة السيدة والحسين، وبإذن الله، نأجروا دكانة على قد الحال... ونشوف لنا أوضة ننام فيها ويا العيال، وبعدين نرحلوا ونبتدي كلنا على بركة الله!».

وقال الرئيس صادق:

«وحاتعملوا إيه مع الرجالة يا حنفي؟!».

«أول ما خالي يرجع من مصر طوالي، نشوفوا لنا واحد محامي يعمل لنا الورقة دي... ونتوكل على الله بعدها... وبكرة حانروح السكة الحديد نسأل عن أسعار الشحن والذي منه... وعلى ما يرجع خالي كل حاجة حاتكون جاهزة بإذن الله تعالى!».

اضطجع المعلم محمد في مكانه، وربع قدميه وهو يشعل سيجارة ويرمق محمودًا بنظرة حانية... ثم قال:

«فضونا بقى من السيرة دي، الصباح رباح... وفيه كلمتين بدي نقولهم ما دمتم كلكم موجودين!».

ابتسم حنفي وهو يضم كفيه ويقول متعجلًا الحديث ناقلًا بصره ما بين عمه والمعلم صادق... كان قلبه يخفق، وكلماته تتلاحق:

«وآني عندي كلمتين مهمين قوي يا با محمد!».

«خير يا حنفي!».

«أولنا والصلاة على النبي... السيد أفندي طالب عيشة... إيش قولك يا بوياء؟!».

اعتدل المعلم محمد في جلسته، وتهلل وجهه بفرح غامر وهو يقول:

«ألف ليلة بيضة يا ولاد... راجل ولا كل الرجالة!... مبروك يا سيد أفندي، على خيرة الله!».

قال السيد أفندي في سعادة وقد تضرج وجهه بالحمرة:

«ما دام كده نقروا الفاتحة دلوقت!».

فقال المعلم محمد:

«وعلشان الفاتحة تبقى فتحتين... آني اتفقت مع محمود على حاجة!».

ثم التفت إلى المعلم صادق وربت على كتفه وهو يستطرد:

«إيش قولك يا صادق في زوبة لمحمود؟!».

ابتسم المعلم صادق وهو يردد النظر بين الرجال... ثم فرد كفه ليلتقي بكف المعلم محمد قائلاً:

«خدماته يا معلمي، زوبة بنتك زي ما محمود ابني ... الفاتحة!».

وصاح المعلم محمد في نشوة:

«حط إيديك في إيد نسيك يا واد يا حنفي!».

وسرعان ما التقط السيد أفندي كف حنفي، وضغط عليها في قوة... وران الصمت على الحجرة، والرجال يقرءون الفاتحة في همهمات خافتة!

أحس حنفي بدوار كاد يفقده توازنه... فتح فمه لكي يتكلم، فوقفت الكلمات في حلقة، وبقي فمه مفتوحاً... تلاحقت الكلمات والأحداث فما تركت له فرصة... نهض الرجال فصافحوه وصافحوا السيد أفندي، وما دري... انطلقت الزغاريد فدوت في أرجاء الزقاق، وهو في مكانه مذهول لا يعي... دارت أكواب الشرابات على الرجال وشربوا، وما ذاق للشرابات طعمًا... أحس كأن يداً قاسية جذبته من مكانه على غير انتظار وألقت به في فضاء لا أول له ولا آخر... فماذا يصنع؟! ... حلم، حلم بغيض ثقيل... كابوس رهيب يكتم أنفاسه، وأصابه غثيان شديد... ضحكات أهله هذه التي تصل إلى أذنيه أم قهقهات شياطين ليس في قلبها رحمة!!... أفاق على صوت عمه وهو يصيح به:

«جری إيه يا واد يا حنفي... إنت غرقان في إيه؟!»

وصاح حمودة نشوان:

«عاوز يتجوز بابا ... عاوز يتجوز، والله لنجوزه ست الحسن!»

كلمات كالسم، أو كأطراف سيوف مرهفة، أو كسكاكين حامية تقطع من قلبه وتلقي إلى الذئاب ... محمود مطرق صامت، لكنه مبتسم، طوفان من الكراهية يغمر مشاعره ... خطفت زوبة في لحظة ... مجرد لحظة قاسية رعناء ... لماذا لم يطلبها قبل عمه؟ ... ماذا يستطيع أن يفعل؟! أصرخ باكيًا ويقول إنها لي؟! ... ماذا يقول عمه وقتها؟ ... وماذا يقول ابن عمه؟ ... وماذا يقول الرجال؟ ... حكم قاس، وقلب يتهاوى في ذلة وانكسار ليسقط مضرجًا بلا حول ولا طول!

«يا واد يا حنفي! ... يا ليلتك بيضة ... إنت يا واد ما قلتش لابن عمك مبروك!».

رفع رأسه إلى محمود مرة أخرى ... وكان هذا باسمًا ... كأنه لم يحب، أو كأنه طوى في أعماقه قصة حب واستسلم فجأة للحياة! ... من يدري؟! رسم ابتسامة على شفثيه ونهض، ونهض محمود، فمد له يده، وفرد محمود ذراعيه، فألقى بنفسه فوق صدر ابن عمه ... وصر على أسنانه حتى يمنع الدمع الطافر في قوة كالطوفان ... أحاط محمودًا بذراعيه، وتمنى لو يبكي، لو يصرخ، لو يتوسل لابن عمه قائلاً له: «احمني وقف بجواري كما حميتك ووقفت بجوارك ... كما فعلت معك بالأمس، بالأمس فقط، عندما حملت جسدك المتهاوي وأوصلته إلى البيت!».

همس محمود في حب خالص:

«عقبال ما نفرح بيك يا حنفي!».

وابتسم حنفي وهو يقول في أسى هامس:
«آني... آني انتجوزت خلاص يا محمود... انتجوزت العيلة!». لا يدري كيف قال ذلك... على أنه أحس بشيء من الراحة يغزو صدره... فرحب به بلا تردد، وعاد إلى مقعده وأشعل سيجارة!

الفصل السادس والثلاثون

في الفجر...

ترامى صوت المؤذن من بعيد... فتأوهت أم حنفي وهي تنهض، وما كادت تفتح فمها وهي تتحسس بعينها جسدها ولدها حتى شهقت في دهشة... كان حنفي متربعا في مكانه وهو يتشاءب... ولا حقت كلماته كلماتها، قال في صوت خفيض:

«يا عيشة... عيشة قومي اعلمي الشاي يا اختي!».

ونهضت عائشة مسرعة... وتدلّى فك أم حنفي وهي تقلب النظر بين ولدها وابنتها... ثم تماكنت نفسها وهي تقول:

«حنفي...».

قال حنفي في هدوء وصبر:

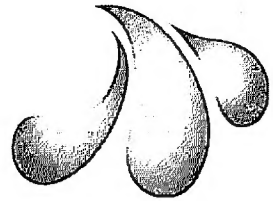
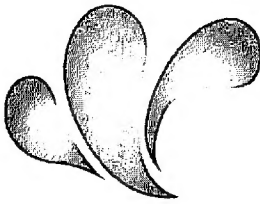
«بلاش سيرة الجواز يا امه... بلاش خالص!».

ما كادت تفتح فمها بالاحتجاج... حتى كان حنفي قد نهض من مكانه، وغادر الحجرة، وعبر الفناء مسرعا إلى حيث كانت أخته واقفة... وسرعان ما انحنى أمامها وهي تصب المياه على يديه... بينما جاءه صوت أمه وهي تتمتم في يأس بالغ:

«والنبي خاوى، وحياة النبي خاوى... حاتاخذ مني الجنيه زي ماخذت أبوه... يا رب!».

ومرت الدقائق مسرعة... الدقات على الأبواب، وأصوات المواقد،
وسعلات الرجال، والنداءات... وخرج من الزقاق رجل، وثمان
وثالث... وألقى حنفي بشبكته فوق كتفه... وغادر الحجرة دون أن
ينظر خلفه، ثم خطا إلى الزقاق، وعبره مسرعاً... وانثنى إلى اليمين، ثم
إلى اليسار... واقترب من باب الرصيف، وزفر وهو يعبره إلى
الداخل.... واتجه بعدها إلى قارب حمودة وقفز إليه... أمسك
بالمجدافين، وراح يجدف في قوة... وانزلق القارب على سطح المياه،
ثم أخذ يسبح مسرعاً مسرعاً... حتى إذا استقبلت مقدمته مياه الميناء
الممتدة المنبسطة... استدار حنفي إلى الخلف، ولمح محموداً وهو
يجدف في القارب الذي عاش فوقه سنوات طويلة... وكان ابن عمه
يغني في ضوء الفجر الشاحب:

يا عيني دمعك ضناني من البكا والنوح
ما انت اللي كنت السبب ليه نظرتك بتروح
للي عشقته... وخلي القلب بات مجروح



3	إهداء
5	الفصل الأول
15	الفصل الثاني
21	الفصل الثالث
28	الفصل الرابع
39	الفصل الخامس
47	الفصل السادس
58	الفصل السابع
68	الفصل الثامن
76	الفصل التاسع
91	الفصل العاشر
98	الفصل الحادي عشر
102	الفصل الثاني عشر
107	الفصل الثالث عشر
118	الفصل الرابع عشر
130	الفصل الخامس عشر
138	الفصل السادس عشر

155	الفصل السابع عشر
162	الفصل الثامن عشر
171	الفصل التاسع عشر
182	الفصل العشرون
190	الفصل الحادي والعشرون
204	الفصل الثاني والعشرون
209	الفصل الثالث والعشرون
213	الفصل الرابع والعشرون
214	الفصل الخامس والعشرون
220	الفصل السادس والعشرون
229	الفصل السابع والعشرون
235	الفصل الثامن والعشرون
241	الفصل التاسع والعشرون
244	الفصل الثلاثون
256	الفصل الحادي والثلاثون
265	الفصل الثاني والثلاثون
275	الفصل الثالث والثلاثون
277	الفصل الرابع والثلاثون
284	الفصل الخامس والثلاثون
291	الفصل السادس والثلاثون

من مؤلفات

الأستاذ

صالح مرسي

بنهضة مصر

- زقاق السيد الباطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.

